Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محمد حسين هيكل

و

الفكر القومي المصري

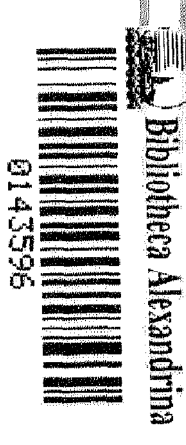
تأليف

د. عبد العزيز شرف

أستاذ الإعلام الإسلامي

دار الجيل

بيروت




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محمد حسين هيكل

و

الفكر القومي المصري


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محمد حسين هيكل
و
الفكر القومي المصري

تأليف
د. عبد العزيز شرف
أستاذ الإعلام الإسلامي

دار الجيل
بيروت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

الإهداء . . .

إلى القلب الكبير
الذي وسعني بحبه و علمه وفضله
وعبّد لي الطريق..
وعلّمني أن أكافح في سبيل
العقيدة والمبدأ..
إلى أبي
الشيخ محمد السيد شرف
أهدي هذا الكتاب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لا شك في أن للنهضة الحاضرة التي تشهدها مصر، وللوعي القومي، أثراً بارزا في ازدهار الدراسات الإنسانية، من فكرية واجتماعية وأدبية ونفسية وإعلامية، فلقد أفاد الدارسون من التيارات الفكرية والأدبية العالمية منذ توثقت صلتهم بالبلاد الأوروبية ووقفوا على هذه التيارات.

ومن أهم السمات التي تتسم بها هذه الدراسة، أو ينبغي أن تتسم بها: الكشف عن الطابع القومي للفكر المصري. وأن البحث عن هذا الطابع يقتضي البحث عن أصول الفكر القومي ودراسة فروعه وتياراته التي أسهمت في تحديد الشخصية الحضارية لمصرنا الحديثة.

ودراسة الدكتور محمد حسين هيكل والفكر القومي التي نقدمها بين يدي القارئ اليوم هي ثمرة من ثمرات هذا الاتجاه العلمي في دراسة شخصية مصر، ذلك أن الدكتور هيكل كان بحق في مقدمة الطلائع الذين استوت على ايديهم معالم الفكر القومي بخاصة، والنهضة المصرية الحديثة بوجه عام، فلقد كان رائدا في الرعيل الأول من الرواد الذين سبروا أعماق الشخصية المصرية وتمثلوها حتى استقامت على نهجها الواضح ومعالمها الأصيلة.

وإننا حينما نبحث عن «مفتاح» لشخصية الدكتور هيكل، على حد تعبير

استاذنا العقاد رحمه الله، فإن هذا المفتاح يكون أوضح عندما نبحث عنه في «الشخصية القومية» التي وسمت فكر هيكل وأدبه، بسماتها، بحيث أصبح يصدر عنها في وعيه النقدي والابداعي على السواء.. حيث كان يؤمن دائما أن «بين مصر الحديثة ومصر القديمة اتصالا نفسيا وثيقا» ولذلك ذهب إلى استلهام ما بقي من تراث الماضي وتقاليده في حياة المصريين وحاضرهم اليوم. وجاءت دعوته إلى «الأدب القومي» ثمرة من ثمار فكره القومي العام، بعد رحلة طويلة قطعها مع جيله العظيم - جيل الرواد - الذي راح أكثرهم يستوحي الفكر الغربي، أطيافه ومعالمه، ولا يقفون عند ذلك بل يجاوزونه إلى النقيض مما شبوا عليه في ثقافتهم الأولى حين واجهتهم الموجة الغربية مواجهة عنيفة، وكانت من القوة بحيث قذفت بهم مبهورين بالجلال والجمال والإبداع العقلي الذي حفل به الفكر الأوروبي في القرن الماضي بعيدا عن جذورهم الاولى.. يدفعهم التحدي لمواجهة المجتمع التقليدي الذي واجههم هو الآخر بعنف شديد، في الوقت الذي كان يجتاز فيه صحوة «الزوال» بما يتسم به هذا المجتمع من جمود وعنف في مواجهة دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة، وفي موقف هذا المجتمع التقليدي كذلك من كتاب «الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين و«الإسلام وأصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق، وغيرهم من رواد التجديد كمحمود عزمي، ومنصور فهمي وأمثالهم ممن نهلوا من فكر الغرب وظفروا بأعلى درجاته العلمية، وهم من الرعيل الأول الذين أوفدتهم الجامعة المصرية عام ١٩٨٠ إلى جامعات اوروبا لإتمام دراستهم.

ففي تلك السنوات من بواكير القرن العشرين كانت مصر تجتاز مرحلة «المعادلة الصعبة» إن جاز هذا التعبير، للوصول إلى فكر قومي مصري، انتهت بهم إلى تحقيق التوازن بين عناصر الأصالة والتجديد حيث عنوا بدراسة التراث العظيم، وما لبثوا أن خرجوا من هذه الدراسة بفتح عوالم من الحق والخير والجمال يصلون بها ما بين حاضرهم وماضيهم ليستقيم معها فكر قومي مصري متميز.

وقد أسفر هذا الفكر القومي عن الوجه الحضاري للشخصية المصرية، وجاء زوال المجتمع التقليدي ارهاصا بإعادة بناء مجتمع جديد يقوم على أساس من الأصالة والمعاصرة، على النحو الذي تلخصه سيرة كل واحد من قادة الفكر المصري الحديث على حدة، بحيث نجد أن هذه السير في مجموعها تلخص السيرة العامة للفكر القومي المصري.

وكم من المتشابهات في سير هؤلاء الرواد، أذكر من ذلك كدليل على عنف وضراوة رواسب المجتمع التقليدي في مواجهة التجديد، أن هيكل حينما نشر رواية «زينب» لم ينشرها باسمه صراحة، واكتفى بأن يصدرها «بقلم مصري فلاح» الأمر نفسه حدث مع رائد عظيم من رواد التجديد في الفكر القومي الحديث وهو استاذنا المرحوم **الشيخ أمين الخولي**، الذي ألف عددا من المسرحيات لفرقة أولاد عكاشة من أشهرها مسرحية «الراهب المتنكر» التي عرضت على مسرح الازبكية وقدمت على خشبة الاوبرا بغير اسم مؤلفها، فقد اختار الشيخ لنفسه اسم «كاتب متنكر» لأنه لم يكن في استطاعة شيخ من قضاة الشرع أن يكتب للمسرح، أو يكتب اسمه في اعلانات مسرحية، على حد تعبير الاستاذ شميس، الذي نشر النص الكامل لهذه المسرحية على صفحات مجلة «الأدب» بعد وفاة شيخه العظيم.

وما أقرب الشبه في سيرة الحياة بين موقف هيكل من «مصري فلاح» وموقف أمين الخولي من «الكاتب المتنكر»، الأمر الذي يظهرنا على ضراوة المعركة التي قادها رواد الفكر القومي مع المجتمع التقليدي. والتي انتهت بهم جميعا إلى اجتياز المعادلة الصعبة، معادلة الأصالة والمعاصرة، على نحو ما نجد عند العقاد وطه حسين والمازني وأمين الخولي وهيكل.

وإذا كانت جهود هؤلاء الرواد لا تفي بها دراسة واحدة، فإننا هنا نقدم صورة من سيرة حياة الفكر القومي المصري كما تتمثل في حياة واحد منهم، هو الدكتور هيكل الذي اتجه منذ البداية الى الفكر القومي إبداعا ونقدا، في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إطار من الوعي العلمي، وفي نطاق متسق من وحدة الشعور التي جمعت المصريين وطبعتهم بالأصالة الدينية. وهو لذلك يذهب إلى أنه «لا سبيل إلى انكار ذلك الاتصال النفسي الوثيق الذي يربط تاريخ مصر منذ بداءته إلى عصرنا الحاضر، وإلى العصور المستقبلة.. ولئن تبدلت اسباب العيش ما تبدلت، ولئن قربت السكك الحديدية والبواخر والطائرات وكل ما يمكن أن يتمخض عنه خيال العلم من وسائل المواصلات بين أجزاء العالم ما قربت، بل لئن تهدمت الحدود الدولية، وفنيت العاطفة الوطنية - فسيبقى ابدا هذا الاتصال النفسي الوثيق الذي يجعل مصر وحدة تاريخية أزلية خالدة، فيما يصل إليه عقلنا من تصور الأزل والخلد، بما أورث أجداد هذا الوادي الحفدة ما سكبته طبيعة الوادي في وجودهم من حياة نفسية، وان تأثرت بمظاهر العيش وألوان التفكير وصور الحكم فستظل ابدا طبيعتهم التي لم تتغير منذ خلق الإنسان إلى يومنا هذا، ولا شيء يدل على أنها ستتغير ما دام الإنسان إنسانا.

وإذا كان الإنسان أقوى سلطانا على الحياة وحكماً لها كلما تمثل ماضيه في شخصه وكلما تمثلت الأمة تراث آبائها وأجدادها جميعا بالغا - ما بعدوا في غيب الماضي - ما بلغ، فمن حق المصريين ومن الواجب عليهم ان يستثيروا دفائن اجدادهم جميعا، وأن يربطوا بين حاضرهم وماضيهم ربطا ظاهرا لكل عين. وانهم اذن ليضفون الى قوتهم قوة، وليضاعفون مجدهم أضعافا، وليزدادون لذلك بالحياة استمتاعا ولها ذوقا. ولقد رأينا نحن أبناء مصر اليوم من ذلك ما لا يدع مجالا للشك فيه. فكلنا صفق طربا لاستكشاف آثار توت عنخ أمون، وكلنا ملأ ماضيه فخرا بمدنية الاسرة الثامنة عشرة الفرعونية، على ما بيننا وبينها من آلاف السنين. وكلنا حدثته نفسه: إذا كان أجدادنا قد تسنموا هذه الذروة السامية من ذرى المدنية فلم لا نتسنمها نحن كما تسنموها؟ ولم يك منشأ هذا الطرب والفخر والأمل ما لهذه الآثار النفيسة من قيمة لذاتها ومن قيمة على التاريخ وكفى، بل كان منشؤها في غور النفس وأبعد اعماقها، كان منشؤها اعتزاز النفس بذاتها واعتقادها القدرة على ملك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحياة بعد يأس من هذه القدرة. أرأيت إلى الفقير البائس الذي لا يعتز من آبائه بجاه ولا بمال كيف يجاهد الحياة وتجاهده ولا أمل له إلا في الحظ الحسن وهو من غدر القدر دائما على حذر؟. ثم أرأيت إلى المعتز بجاه بيته وماله كيف ينظر إلى غدر القدر باسما وهو دائما يؤمن بأن له آخر الأمر الغلب؟ هذه العواطف هي التي تحرك الأمم بقوة مضاعفة ملايين المرات أكثر مما تحرك الأفراد. ولذلك يعمد المستعمرون الذين يريدون أن تذل لهم أمة إلى أن يلقوا في روعها أنها كانت على التاريخ عبدة ذليلة، فحتم عليها ان تظل عبدة ذليلة.

فإذا جاز لنا أن نأمل ما يأمل المعتز بجاه بيته وماله، وكان لنا من آثار الأقدمين المتصلين بنا هذه الصلة النفسية الوثيقة مايطوع لنا أن نجدد مصر القديمة كما جدد الغربيون اليونان والرومان، وكان لنا من وراء ذلك مطمع في أن نقر في مصر حضارة قوية فتية كالحضارة التي أقرها الغربيون في اوروبا فمن الجريمة على أنفسنا وعلى الوطن أن ني في ذلك او نقصر فيه أي تقصير.

والسبيل الى ذلك كله هو البحث عن موضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة في ميادين الأدب وكتبه والعقائد وطقوس العبادة. ولقد فتح الغربيون أمامنا الباب واسعا في هذا المضمار. فمنذ كشف شامبوليون عن سر الهيروغليفية حين حل طلاسم رموز حجر رشيد، لم تن البعثات الغربية من اوروبا وأمريكا في البحث والتنقيب عن الآثار القديمة. وهذا فضل لهم يجب الاعتراف به وشكرهم عليه، لكنه يحملنا نحن وزرا كبيرا، وزر الإهمال في تمثل هذا التراث المجيد الذي يضم حضارات لا تقل عن تلك بهرا عنها وازدهارا.

وإني ليخيل إليّ أن المصريين الذين يتقدمون إلى ميدان البحث في الشئون المصرية القديمة أدنى إلى التوفيق فيه من ابناء أية أمة أخرى يتقدمون إليه. ذلك بأن غير المصريين إنما يترجمون ما لا يتصل بحياتهم وما لا تسري روحه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في قلوبهم وافئدتهم فلهم إن أخطأوا عذر المترجم الذي ينقل من لغة إلى لغة. أما المصريون الذين يوفقون لمثل ما وفق له أولئك الغربيون العظماء من براعة في الوقوف على اسرار المصريين القدماء فإنهم حين يترجمون آثار هذه العصور القديمة يشعرون في غور وجودهم بما يتفق وهذه الصور والأخيلة والمعاني فيؤدونها الأداء الأوفى.

ولعل في الصفحات القادمة ما يكشف عن جانب من جوانب الفكر القومي المصري عند كاتب من جيل عظيم يؤمن برسالة الكاتب التي تجعل ممن يمسك بالقلم «ربا من أربابه لا عاملا من عماله. ربا تؤتيه الطبيعة من قوة الخلق والإنشاء ما لا سبيل إليه إلا في جو من الحرية المطلقة، وتدفعه ليخلق هذه الحرية حوله خلقا ولو ألقى به هو في غيابات السجون، بل تدفع ذكراه لخلق هذه الحرية إذا هو غيب بين صفائح القبور.

على أن اعجابي بالدكتور هيكل ومبادئه وقيمه في الصحافة والفكر والأدب، لم يحل بيني وبين تحقيق المنهج العلمي في هذه الدراسة، فالتزمت جاهدا الحيدة العلمية والإنصاف للدكتور هيكل أو لمعارضيه في بعض مبادئه، بأقصى ما وسعني الجهد فيها، وأرجو أن أكون قد وفقت إلى ذلك، فجل من لا يخطئ تحيزا أو قصورا في عالم البشر.

عبد العزيز شرف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الأول

ماهية الفكر القومي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيد

إن الطابع القومي يرتبط بالقومية ولكنه لا يتحدد بها. من الطبيعي أن الصورة العادية الواضحة للمجتمع الذي ينتمي إليه الفرد هو الوطن أو الأمة. ولكن من الممكن أن يكون هذا المجتمع لم يرتفع بعد إلى مرتبة الوطن أو الامة، كما أنه من الممكن أن يكون مجتمعا فرعيا في داخل الوطن مما يترتب عليه تعدد الصفات أو السمات، البعض منها يرتبط بالمجتمع الكلي والبعض يرتبط بالمجتمع الجزئي أو الفرعي، والأمثلة على ذلك كثيرة: ففي ايطاليا مثلا هناك صفات اخرى تجمع جميع أجزاء الأمة الإيطالية. ذلك رغم أن لايطاليا صفات تميز أهالي صقلية عن غير أجزاء شبه الجزيرة وذلك إلى جانب شعب في حدود الخمسين مليون. ولو انتقلنا إلى المجتمعات الضخمة او المتشعبة Super-nation والتي يتجه إليها التطور السياسي المعاصر لوجدنا الظاهرة أكثر وضوحا.

ومن ذلك يتضح لنا:

أولا: الطابع القومي ليس هو القومية.

ثانيا: رغم ذلك فكل منها يرتبط بالآخر أو بعبارة أخرى يقود إلى الآخر.

ثالثا: الطابع القومي مفهوم يسمح بالتدرج في التحليل حيث أن الانتقال

من الوحدات الاجتماعية الصغيرة ـ ولو نسبيا ـ إلى تلك الأكثر اتساعا ـ ولو نسبيا ـ يفرض مستوى آخر وابعادا اخرى للتحليل لا تتعارض ولا ينفي الواحد منها الآخر. على عكس القومية فهو مفهوم مجرد لا يقبل إلا الاطلاق كما أن الطابع القومي يدور حول خصائص وصفات سلوكية يعبر عنها المواطن الذي ينتمي إلى ذلك المجتمع. وهو بذلك يصير مفهوما ميكروكزميا اي جزئيا وليس مفهوما كليا. بمعنى أنه يدور حول المواطن العادي، ذلك المواطن الذي لا وجود له في ذاته ولكنه لا وجود له في كل مواطن[1].

ويجب أن نلاحظ كذلك أن هناك فارقا جوهريا بين الطابع القومي National Character والصورة القومية National Image الأولى سبق وعرفنا: تنبع من التحليل الموضوعي للسمات والملامح الفردية على المستوى الجماعي والشمولي. هي خصائص فردية تعبر عن الانتماء إلى مجتمع سياسي معين بحيث ترتبط بذلك المجتمع وجودا أو عدما. أما الثانية فنقصد بها كيفية تصور مجتمع لمجتمع آخر، سواء أكان هذا التصور يعبر عن الحقيقة ويعكس الصفات الواقعية للانتماء إلى ذلك المجتمع الآخر أم أن هذا التصور يخضع لعملية تشويه مقصودة ام غير مقصودة. فالطابع القومي المصري يقصد به تلك الصفات والسمات التي يتصف بها المصري العادي: الشجاعة أم الجبن، الصراحة والوضوح أم عكسها.. إلى آخر الصورة القومية التي نقصد بها كيف يتصور الأجنبي ـ الانجليزي مثلا ـ المصري. سواء كان هذا التصور مطابقا للحقيقة أم غير مطابق لتلك الحقيقة[2].

وهكذا يحدد الدكتور حامد ربيع[3] خصائص هذه المفاهيم الثلاثة رغم تشابكها:

الدولة القومية: مفهوم سياسي.

---

(١) د. حامد ربيع: مقدمة في العلوم السلوكية ص١٦١.

(٢، ٣) المرجع السابق ص١٦٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطابع القومي: مفهوم اجتماعي ذو وظيفة سياسية.
الصورة القومية: مفهوم دعائي.

وتأسيسا على هذا الفهم نتحدث عن الدكتور محمد حسين هيكل في إطار الطابع القومي والحقائق الحضارية والجغرافية والنظم السياسية، أو على حـد تعبيره هو[1]: الوسط الذي عاش فيه، حتى نعلم تأثير هذه البيئة المعينة على هاته النفس المعينة.

لهذا نرى للوصول إلى تفهم أسلوب هيكل وأفكاره أن نحلل حال «الوسط الذي عاش فيه» والأوساط الأخرى التي قد تكون أثرت عليه في حياته. ثم نبحث من بعد ذلك مقومات شخصيته وتفاعلها مع البيئة العامة. فإذا تهيأ لنا من ذلك ما أردنا كان لنا ان نحلله ككاتب وأن ننظر في صحافته من جهة اسلوبها، ومن جهة الأفكار التي وضعت فيها.

ولكي نتحدث عن هذه البيئة العامة يجب أن نعنى بها من النواحي الطبيعية والسياسية والاجتماعية والفكرية، ذلك بأن «الوسط الطبيعي» ـ كما يقول هيكل ـ ذو أثر كبير في الناس الذين يعيشون فيه[2] وبالأخص فيما يتعلق بخلقهم. والوسط الاجتماعي هو صاحب الأثر الأكبر في تشكيل أفكارهم[3].

١ ـ الوسط الطبيعي أو الحقيقة الجغرافية:

ويصف لنا هيكل هذا الوسط الطبيعي أدق وصف، نرى أن نعتمد عليه في الحديث عن هذا الوسط، حيث يقول في حديثه عن قاسم أمين[4]:

---

(١) هيكل: في أوقات الفراغ ص٩٨ـ المسفور في ٣ مارس و١٤ أبريل و١٩ مايو ١٩١٦.
(٢، ٣) نفس المرجع ص٩٩.
(٤) المرجع السابق ص٩٩ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« بينما ترى مصر البرزخ الذي يصل بين الغرب والشرق إذا طبيعتها جغرافية تضعها في عزلة عن العالم بشكل غريب. فالصحارى تحيط بها شرقا وغربا وجنوبا والبحر المتوسط يحجبها عن بلاد الشمال. ووسط هذه العزلة المنقطعة ينساب نهرها المبارك الغدوات الميمون الروحات يظل واديه طقس متشابه دائم الابتسام وسماء صافية لا تتلبد بجهام وجو معتدل وشمس دائمة وصفو وسكينة. تجوب الوادي من أقصاه إلى أقصاه فلا تقابلك عقبة تحتاج مجهودا لإزالتها ولا تثور عليك من ثائرات الطبيعة ريح أو زوبعة أو مطر. بل تراك تسير بين جبلين يقتربان حينا فيحدان الأفق دون مرمى نظرك ويبتعدان أحيانا فلا ترى دون الأفق مما يجلل أرض الوادي الا النبت النامي والأشجار اليانعة وأسراب الطير السانحة والبارحة ».

« وسط هذه المزارع الواسعة ترى الدواب في سكينة أشبه شيء بسكينة الخلد، وأكثرها من تلك الدواب الهادئة المطمئنة إلى عيش السكون. فالثيران واقفة وسط مزارع البرسيم أيام الشتاء لا تتحرك من مكانها، والحمر مدلاة - رؤوسها الفارغة لا تهتم بأكثر من أن تنال علفها القريب منها. وقل أن تجد سوى هذين النوعين من أنواع الحيوان إلا ما قام لزينة أصحابه »[1].

ويرسم هيكل صورة الوسط الطبيعي لمصر على هذا النحو من الاستقرار لأن ذلك « الوادي المفرد في عزلته هو مستقر النضرة والنعيم، فنهره الفياض، يجود عليه كل عام بماء الحياة ويجعل من أرضه روضة يانعة كلها الخصب والثروة.

« ولقد بلغ من ذلك حتى ذهب الأقدمون إلى أن النهر يستمد ماءه الغني من ينابيع الجنان وأن الوادي قطعة من رياض الجنة وتفننوا في تصوير ذلك ما شاء لهم الخيال المتدفق الذي يتغنى بكل موجود على ضفاف النهر.

---

(١) هيكل: في أوقات الفراغ ص١٠٠.

« وعلى الرغم من هذه الثروة التي يجود بها النهر على واديه ترى حكم الطبيعة المتشابهة الساكنة على كل ما في الوادي حكما قاسيا يخضع كل شيء لشدته فانك تمر وسط الحدائق والمزارع والمروج بقرى كلها من اللبن متضائلة تائهة في سكون الوادي كأنها بأكواخها الترابية اللون آثار بالية مما خلف الماضي. أو هي أوجرة وأوكار لتلك الحيوانات الضئيلة المستسلمة. فإذا ما دخلت أحدها صدق الواقع ظنك فوجدت نفسك في غرف مظلمة لا يجد النور إليها سبيلا الا كرها. ثم إذا أضاءها أصحابها ليطلعوك على ما فيها جاءوك بمصباح قذر قليل النور فرأيت على شعاعه جدرانها السوداء العارية وأرضا ربما غطاها فرش من الحصير أو القش. وهناك عند أحد الأركان معلقة جريدة من سعف النخل تحمل كل ما في الدار من فرش ودثر وما لأصحابها من ملابس وأردية. وإن أنت عثرت في بعض القرى بمنزل ذي نوافذ وفي نوافذه زجاج كان ذلك دليل ما عند أهله من سعة ويسار غير عاديين. على أن هذا اليسار لا يحمل أحدهم ليدخل من مواد الترف إلى داره ما يثور على الطبيعة القانعة المستسلمة.

« وفي هذا الوسط الخالد الى السكينة يجد الضيف النازل رحبا وسعة ولا يمر بخاطر موجود ممن في الوادي أن يحسب فيه منافسا أو مضايقا.

« رزق الوادي يسعه ويسع غيره معه. وكل ما يطلب إليه أن لا يبالغ في الأذى وأن لا يزعج موجودا عما هو فيه من أحلامه وسكينته..

« وهذا الوسط هو الذي أحاط بمن نزل وادي النيل من قرون القرون وهو الذي خلق الموجودات والناس ممن عاشوا فيه ولم يؤثر فيه الناس ولا الموجودات إلا أقل الأثر »[1].

---

(١) هيكل: في أوقات الفراغ، ص ١٠٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ـ الوسط السياسي:

ولكي نتحدث عن الحياة السياسية في البيئة العامة التي عاش فيها هيكل، لا بد أن نستحضر في أذهاننا ظاهرة انفردت بها الحياة السياسية في مصر في ظل الاحتلال البريطاني. إن أغلب الأحزاب قد خرجت من دور الصحف[١]، فبدلا من أن تنشئ الأحزاب صحفا ناطقة باسمها انشأت الصحف أحزابا كتجسيد مادي لآرائها.

وقد كان الحزب الوطني يدعو لتركيا أول الأمر في الوقت الذي يطلب فيه الاستقلال التام لمصر، ويتضح ذلك من قول مصطفى كامل: « حقا ان سياسة التقرب من الدولة العلية لأحكم السياسات وأرشدها »[٢].

وكان الحزب الثاني ـ الإصلاح على المبادئ الدستورية ـ حزب الخديوي، ويدين بالولاء لتركيا عن عقيدة دينية عبر عنها المؤيد في عدده الصادر يوم ١٨ من أكتوبر سنة ١٩١٣.

والحزب الأخير هو حزب الأمة، وقد انشئ في عام ١٩٠٧، عقب مغادرة كرومر للبلاد، وقد شهد مولد هذا الحزب واثنى على رجاله « لأنهم من وجهة نظره ـ يرغبون في التعاون مع الأوروبيين على إدخال المدنية الأوروبية إلى مصر »[٣]. على أننا نرجح أن الفكرة الوطنية لم تظهر بوضوح بعيدة عن الجامعة الإسلامية إلا على يد رجال حزب الأمة الذين ترسموا خطا الأستاذ الإمام محمد عبده[٤] وكان ذلك غريبا عن الجمهور، لكنه لم يكن فيه شيء من الغرابة عند الصفوة المتعلمة تعليما عاليا، والتي تريد لمصر استقلالا

---

(١) الحزب الوطني انشأه مؤسس اللواء وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ترأسه صاحب المؤيد، كما أن حزب الأمة قد خرج أساسا من الجريدة وكان لطفي السيد مديرها سكرتير الحزب والمعبر الحقيقي عن آرائه.

(٢) الرافعي: مصطفى كامل ص٣٥٠.

(٣، ٤) آدمس: الإسلام والتجديد ص٢١٤، ٢١٥.

وحرية نيابية »[1].

وعن حزب الأمة يقول تشارلس آدمس: « وعندما دخل حزب الأمة ميدان السياسة كان أول حزب سياسي له برنامج ونظام في مصر، وكان أول الأحزاب التي وضعت لها برنامجا مفصلا يتناول مرافق البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية جميعا. وعلى نهجه سلكت الأحزاب الأخرى بعد ذلك »[2].

وتأسيسا على ذلك يمكن القول إن سبق الصحيفة للحزب كان طبيعيا طالما أن أي حزب باعتباره ممثلا لتيار سياسي أو فكري معين كان يحتاج إلى تربية رأي عام يساند كل جانب من جوانب تيارات الحركة الوطنية، ويعبر عنها، ولدينا المثل على ذلك في « الجريدة » بالذات التي أخذت من خلال مواقف عديدة تنمي فكرة « المصرية في وسط شعب يموج بالولاء لدولة الخلافة »[3] ثم أن أولئك الذين اصدروا « الجريدة » لتكون لسانا لهم وإن كانوا قلة إلى جانب هذه الكثرة من أتباع مصطفى كامل[4] الا أنهم قد سبقوا بوجودهم كجماعة سياسية لها تفكيرها الخاص إزاء الاحتلال وكيانه ووجوده في مصر أو كطبقة لها مصالحها الخاصة التي بدا أنها ترتبط إلى حد بعيد بوجود الاحتلال أو التعاون معه ـ كما يقول جولدزيهر ـ جماعة الوطنيين وقيام الحركة الوطنية التي قادها مصطفى كامل[5] فمن المعروف أن هذه الجماعة التي أصدرت الجريدة تنتمي إلى تلك الطبقة التي قادت الحركة الدستورية في أواخر عهد اسماعيل وكلل كفاحها بصدور دستور ١٨٨١ في أوائل عهد توفيق، فهم كما يقول « يونج » حلف أولئك الدستوريين القدامى.

(١) هيكل: مذكرات ج١ ص٣١.
(٢) آدمس: الإسلام والتجديد ص٢١٤.
(٣) رمزي ميور وترجمة بدران: النتائج السياسية للحرب العظمى ص١٨٠.
(٤) آدمس: الإسلام والتجديد ص١٩٦.
(٥) المرجع السابق نقلا عن Die Rechtungen Goldziher: der Islamichen. Karansulegung.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم ما لبثت طبيعة الاحتلال في السنوات السابقة للحرب الأولى أن تغيرت وكان أول تغير خروجه عن جادة الاعتدال التي لازمها وخروجه عن جادة الابهام التي لازمها ايضا. وكلا الخروجين يقترنان بالأيام الأخيرة للورد كرومر في مصر، وبالخطط التي سار عليها خليفتاه: السير ألدون غورست واللورد كتشنر حتى قيام الحرب العظمى.

وسارت الحكومة المصرية في عهد الوفاق (كما أطلق عليه) على خطة خنق الحريات ـ كما سبق القول ـ وفي ذلك الجو الفاسد تدخل مصر فترة الحرب العالمية الأولى وعقدها منفرط وعراها محللة.

وخلال فترة الحرب، استحال العمل الصحفي في ظل الأحكام العرفية فتوقفت معظم الصحف عن الصدور، وبقيت كذلك حتى نشبت الثورة المصرية في سنة ١٩١٩، وكانت الحرب قد وضعت أوزارها في السنة السابقة لها، وكان الاحتلال البريطاني فوق هذا وذاك قد عطل الجمعية التشريعية هي الأخرى ـ وذلك في ١٨ من أكتوبر سنة ١٩١٤.

«وسعد زغلول هو الذي حقق أمال زميله قاسم أمين بعد سنوات، فقد أقامت لجنة السيدات الوفديات حفلا للزعيم سعد زغلول. وعندما وصل إلى مكان الاحتفال وجد السيدات وضعن على وجوههن اليشمك، (وهو البرقع التركي) فمد يده إلى وجه أول سيدة صافحته، وانتزع اليشمك من فوق وجهها، واقسم أنه لا يحضر الحفل إلا إذا نزعت السيدات من فوق وجههن اليشامك[1].

«ومنذ هذا اليوم تحقق سفور المرأة المصرية، وظهرت صفية زغلول في المجتمع سافرة الوجه.

وعلى حد تعبير الاستاذ شميس فإن قصة سعد زغلول من القصص المثيرة

(١) عبد المنعم شميس: رحلة في حياة مصر ـ ص٤٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في التاريخ المصري الحديث فقد كان اسمه شديد اللمعان منذ نشأته. وكانت شخصيته أقوى من كل شخصيات عصره[1].

حدث معه ما حدث مع رفاعة رافع ومع محمد عبده من صدام مع المجتمع المتخلف ولكن صدامه كان أقوى، لأنه اشتغل بالسياسة، ولم يكن مستقلا بالعلم والإصلاح مثل رفاعة ومحمد عبده. ورجل السياسة له عداوات من نوع آخر.

اتهم سعد زغلول اتهامات لا أول لها ولا آخر، ولكنه كان أقوى من الاتهامات لا من متهميه الضعفاء.

وكانت في حياته ومضات باهرة[2].

عندما كان ناظرا للحقانية أي وزيرا للعدل، قدم الزعيم محمد فريد إلى المحاكمة للمرة الثانية بعد أن كانوا قد حبسوه في قضية ديوان الشعر الذي اصدره الشيخ علي الغاياتي، ولم يكن سعد وزيرا اثناء هذه القضية الأولى. وعندما أبلغ بأنه صدر قرار باتهام محمد فريد، وأنهم يريدون محاكمته، أسرع الوزير فقدم استقالة مسببة اهتزت لها الحكومة واهتز لها المندوب السامي البريطاني، وقال سعد زغلول:

ـ كيف أكون وزيرا للعدل ويقدم رجل مثل محمد فريد إلى المحاكمة دون علمي؟ وفي ذلك اليوم كان محمد فريد قد خرج من مصر إلى منفاه الاختياري في برلين.

ويكشف الاستاذ شميس عن حدث تاريخي هام ذلك أن محمد فريد عندما أراد أن يشارك في أحداث ثورة ١٩١٩ رفض سعد زغلول هذه المشاركة، وهو الذي استقال من الوزارة بسببه، وكان لينين قد اتصل بمحمد فريد وحاول استقطابه للدخول في الحركة الشيوعية، أو ادخال النضال المصري في

(١، ٢) عبد المنعم شميس: رحلة في حياة مصر ص ٤٩.

مدار الحركة الشيوعية، وفهم سعد زغلول اللعبة. وأشار إليها في خطبته الشهيرة في العمال التي اقيمت في مصر الجديدة اثناء ثورة ١٩١٩، وقال إن الثورة المصرية لا علاقة لها بالحركة الشيوعية، وإن العمال المصريين لا تربطهم بالحزب الشيوعي رابطة[١].

« وسعد زغلول هو وزير المعارف الذي اخضع دنلوب وأرغمه على المثول بين يديه. وقد أعاد وزير المعارف تدريس العلوم باللغة العربية رغم أنف بريطانيا العظمى، ورغم أنف دنلوب المستشار الانجليزي لوزارة المعارف[٢].

« وقد كان سعد زغلول عيوفا حقا كما وصف نفسه بشعر محمود سامي البارودي. وعندما كان مستشارا في محكمة الاستئناف سافر إلى باريس وحصل على درجة الليسانس في الحقوق حتى لا يترك للقضاة الأجانب أو لغيرهم من الحاقدين فرصة النيل منه.

« عاصر سعد أحداث الضياع المصري منذ سقوط ثورة عرابي حتى قاد هو نفسه ثورة ١٩١٩.

« وبين عام ١٨٨٢ وعام ١٩١٩ حدثت في مصر أحداث خطيرة، فقد ظهر مصطفى كامل الزعيم الشاب يقود ثورة ضد الاحتلال البريطاني اطلقوا عليها اسم ثورة الأفندية، لأنها كانت حركة ثورية مثقفة تخاطب العالم بلغة الشعر أحيانا[٣].

وخاض مصطفى كامل معاركه في بسالة. وهدم سلطات اللورد كرومر ملك مصر غير المتوج في أعقاب حادثة دنشواي.

« ولكن أعظم دعوة قام بها مصطفى كامل هي.. الجامعة المصرية. وكان يسير في طريق اسلافه من المناضلين المصريين الذين عرفوا أن العلم هو الطريق الوحيد للتقدم.

(١، ٢، ٣) شميس: رحلة في حياة مصر ص ٥٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« كان مصطفى كامل يحب المدارس ويحب الصحافة ويعشق الحرية.. وكان شاعرا جميل الصورة حلو النبرة، عذب الحديث، قوي الحجة، شديد الذكاء.

« ثم مات الزعيم الشاب وترك في مصر شيئين عظيمين.. تأصيل الوطنية المصرية.. والدعوة لإقامة الجامعة المصرية.

وكان سعد زغلول يزداد تجربة وعمقا، ويكتنز حكمة مصر خلال أخطر سنوات النضال المصري.. ثم أصبح واحدا من المشاركين في إقامة الجامعة الأهلية قبل إقامة الجامعة الرسمية[١]

وأصبح الشيخ الجليل هو الرئيس الجليل.. وهو زعيم مصر في ثورة ١٩١٩. فهز الدنيا، وايقظ الشرق كله، وبعث في العرب روح الأمل، فالتفوا حوله، وسعى ثوارهم إليه، ورأوا فيه المثل الأعلى للكفاح[٢].

قال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الزعيم السوري عندما ذهب مع رفاعة لزيارة الزعيم[٣]:

ـ لقد رأينا أسد العرين.

واحتضنت ثورة ١٩١٩ مفاهيم التقدم.

« كان بنك مصر ابنا شرعيا لثورة ١٩١٩، وقد حوكم حمد الباسل باشا وكيل الوفد ورفاقه الستة عندما كان سعد زغلول في منفاه في جزيرة سيشيل، لأنهم اصدروا بيانا للشعب المصري طالبوا فيه بمقاطعة البضائع الانجليزية والبنوك والسفن وشركات التأمين وكل المؤسسات الاقتصادية البريطانية، والمساهمة بأموالهم في إنشاء بنك مصر باعتباره البنك الاقتصادي المصري المرتقب، وحكم على الزعماء السبعة من أعضاء الوفد بالإعدام بسبب هذه

(١، ٢، ٣) شميس: المرجع نفسه ص ٥٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدعوة الجريئة، ثم خفف الحكم وافرج عنهم بعد ذلك عندما انتصرت الثورة[1].

وكانت أولى خطوات الثورة نحو التقدم هو صدور قانون التعليم الإلزامي عام ١٩٢٤ وقد عين الشيخ عبدالعزيز جاويش، الثائر الوطني المعروف مديرا لهذا التعليم الذي فشل بسبب معوقات التقدم التي كان يصطنعها ولا زال يصطنعها بقصد أو بغير قصد أولئك الذين تجمدت أفكارهم أو فسدت نفوسهم، أو أظلمت حياتهم.

رفاعة الطهطاوي كان يدعو إلى تعليم الشعب كله وخاصة تعليم البنات.

محمد عبده رأى أن التعليم يجب أن يسبق الديمقراطية نفسها وهي أعز شيء في حياة الشعوب.

سعد زغلول سار على خطوات أسلافه.

طه حسين دعا دعوته إلى جعل التعليم للناس كالماء والهواء، عندما كان وزيرا في وزارة مصطفى النحاس.

ولا زالت نسبة الأمية تبلغ ثمانين في المائة.. ولا حول ولا قوة إلا بالله[2].

٣ - الوسط الاجتماعي:

يقرر هيكل أن لسكان وادي النيل مميزات خاصة امتازوا بها منذ القدم. مميزات في أنظمتهم الجسمية ومثلها في أنظمتهم الأخلاقية والعقلية. وكلها خلق ذلك الوسط الطبيعي الذي يعيشون فيه. فكما ان الطقس في بلادهم هادئ دائم السكينة قليل التغير، كذلك تلمح في وجوههم أثر السكينة الهادئة المطمئنة، وتلاحظ في أخلاقهم الاستسلام والعيش في الحاضر، وترى في

---

(١) شميس: المرجع نفسه ص ٥٢.

(٢) شميس: المرجع نفسه ص ٥٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفكيرهم خلودا للماضي وعدم ميل للتغير. هم يعيشون على نحو ما عاش آباؤهم خلا أماني تجول برأسهم قد يتغنون بها أحيانا إذا ساعدهم الوقت على التغني، كما يتغنى الطائر ما دام الصيف وما أسعده الدفء، فإذا جاء الشتاء أسكته[1].

كما يذهب هيكل الى أن الظروف إذا تغيرت انكمش المصريون ونسوا أغنياتهم ورجعوا إلى عيشهم الأول مكتفين من الحياة بحرث الأرض وبانتاج موارد الرزق وما تستلزم المعيشة. ويعلل هيكل بذلك، ما نرى في التاريخ من تقلب الولاة والحكام الأجانب على هذه الديار من غير أن يدفع أهلها لمناوأة حاكم ملكهم دافع. بل لقد بقيت الاسرار الفرعونية تتوالى واحدة بعد أخرى وليس من بينها أحد من سكان الوادي الصميمين. وهؤلاء السكان أبعد ما يكونون عن التفكير في إسقاط أسرة أو الطمع في الاستيلاء على العرش. ويبقى الحاكم متربعا في دسته آخذًا بيده النهي والأمر حتى يجيء سواه من جنسه أو من جنس آخر يستعين عليه بالقوة أو بالدهاء حتى يسقطه ويأخذ الحكم مكانه. والمصريون ينظرون لذلك كله بعين مطمئنة وقلب إن جالت به بعض الوساوس فأنها لا تخرج إلى أكثر من الهمس الذي يزول يوم ينكشف النزاع بين المتجادلين. وأي منهما غلب كان صاحب الحكم وصاحب الحق على عرش وادي النيل وصاحب الرعاية على سكانه[2].

ويرجع هيكل الى قوة الوسط الطبيعي للوادي إخضاع من يقيم فيه لسلطتها فلا يلبث الحاكم القديم أن يتدرك إلى ملابسة الناس من أهل الوادي ومخالطتهم والعيش بينهم حتى تداخله وتداخل ابناءه الأخلاق الخاصة التي امتازت بها الطبيعة. فهو سرعان ما يميل إلى الاستسلام للطمأنينة والأخذ في طريق الحياة الساكنة القانعة من العيش بما تنبت الأرض وبما يرزق الله. لهذا لم نر اسرة من الأسر بعد أن غلبت على أمرها كونت لنفسها حزبا تناوش به من بزها

(١، ٢) هيكل: في أوقات الفراغ ص١٠٤، ١٠٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عرشها سعيا وراء استرجاع ذلك العرش اللهم إلا في ظروف نادرة ولوقت قصير[1].

على أن هذه الفترة شهدت بوادر الانقلاب الاجتماعي، التي ارتبطت باتجاهات الأحزاب السياسية والتي تتمثل في إتجاهين: الأول: يدعو إلى عدم فصل الدين عن الدولة، كما هو واضح في مبادئ الحزب الوطني الذي كان يدعو إلى استقلال مصر تحت السيادة العثمانية. بينما كان الاتجاه الثاني يدعو إلى عدم اختلاط الدعوة الوطنية بالنزعة الدينية، كما هو واضح في مبادئ حزب الأمة التي كانت تدعو إلى استقلال مصر تحت السيادة المصرية، ومن ثم نادى ممثلو هذا الاتجاه بفصل الدين عن الدولة، وبتحرير المرأة وفض الحجاب عنها وكان في مقدمة الداعين إلى ذلك قاسم امين الذي طلب في كتابه: «تحرير المرأة» تعليم المرأة ورفع الحجاب عنها «وكان تعليم المرأة يومئذ أمرا إدا لا يقدم عليه رجل حريص على احترام الجمهور المصري له. أما رفع الحجاب وخروج المرأة سافرة إلى المجتمعات، فكان القول به أدنى الأشياء إلى تحليل ما حرم الله إن لم يكن إلى الشرك بالله. فقد كانت المرأة يومئذ محكوما عليها ألا تتعلم وأن لا تخرج من بيتها إلا لضرورة ملحة، والا محجوبة الوجه. والمرأة المصرية التي كان يجري عليها هذا الحكم لم تكن المرأة الفلاحة المضطرة بحكم الحياة إلى مشاركة زوجها في عمله، بل المرأة التي يستطيع زوجها أو أهلها أن يعفوها من مشكلة الخروج من البيت»[2].

ولكن كان إلى جانب قاسم أمين ـ كما يذكر هيكل ـ حركة اجتماعية جديدة قامت على أثر الحركات المتوالية التي تعاقبت على مصر في القرن الأخير، حركة حرة قامت على أساس فكرة الإصلاح متأثرة بما حصل في البلاد في سنتي ١٨٧٦، ١٨٨٢، وبما عقب ذلك من أوجه الإصلاح

---

(١) هيكل: في أوقات الفراغ: ص ١٠٤ و١٠٥.

(٢) هيكل: مذكرات ج١ ص٢٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاقتصادي والنهضة الشابة العلمية وأعان هذه الحركة الإصلاحية الحرة على البقاء والتقدم المركز الخاص الذي وجدت فيه مصر بعد سنة ١٨٨٣ والذي أدى لوجود حكم البلاد في يدين متنافستين تنافساً سمح بازدياد الحرية الفردية وتـرك للأمة أن تبدي على الملأ ما كان يجول بخاطرها من الأماني متأثرة في ذلك بما ورد إليها من نظريات الغرب الذي كان قد بدأ يهتم لها اهتمامًا خاصًا لما خلقه لها قنال السويس من المركز الخاص[١].

ويذكر هيكل أن ظهور هذا الكتاب كان حادثا خطيرًا اضطربت له آراء الهيئات الدينية واضطرب له كثير من المتعلمين أنفسهم، وأبدى الخديوي عباس سخطه الشديد على الكتاب وعلى مؤلفه[٢]. ويرجع ذلك - كما قرر هيكل - إلى الوسطين الطبيعي والسياسي والصفات التي أوجداها في الشعب المصري، فضلا عن أن قوى خارجة كانت تحول بين السياسي وبين نجاح الدعوة للانقلاب السياسي. لذلك كانت الحركة الحرة التي نشأت عند نشأة قاسم أمين مضطرة إلى أن تهتم بالإصلاح الاجتماعي قبل كل شيء[٣].

على أن الآراء التي حواها الكتاب - كما يقول هيكل - أثارت من تطلع الشباب ما جعلهم يفكرون في الأمر جديا، يرى أكثرهم فيه مروقا من الدين وتمهيدا للالحاد، ويرى بعضهم أنه حق، وأنه الوسيلة الوحيدة لخلق شعب حر يدرك الحياة ادراكا صحيحا، كما أنه العدل كل العدل الا تحرم المرأة من نور الحياة، ومن نور العلم الذي يزيدها للحياة ادراكا وتقديرا صحيحا[٤].

ومع ذلك فإن هيكل يؤكد أنه لم تثمر دعوة اجتماعية في مصر ما أتت دعوة قاسم أمين من ثمرات إيجابية.. ويرى أن حاجات الحياة المادية هي التي

---

(١) هيكل: في أوقات الفراغ ص١٠٧.
(٢) هيكل: مذكرات ج١، ص٢٥.
(٣) هيكل: في أوقات الفراغ ص١٠٨.
(٤) هيكل: مذكرات ج١ ص٢٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اسرعت من بعد، بدعوة قاسم أمين إلى الانتشار والنجاح، وأن الانقلاب الذي احدثته الحرب هو الذي دفع بالمرأة لتطلب من صور الحرية كل ما يرسم خيالها المتوهج الوثاب، ولتنال من هذه الحرية حظا عظيما[١].

ومن ذلك يمكن أن نقول إن التطور الاجتماعي الذي شهدته الحياة المصرية في هذه الفترة «لا يقل جسامة عن التطور السياسي والتطور الاقتصادي، وهو مرتبط بهما أوثق اتصال»[٢].

فقد كان أبناء الريف المصري يعيشون إلى أوائل هذا القرن العشرين عيش قبائل البادية أو عيشا يشبهه. كان لكل اسرة في الريف زعيم أو شيخ يرجع الأمر إليه فيما جل ودق من الأمور، وكانت كل قرية تدين لزعيم أكبر اسرة فيها بالطاعة، فهو للجميع أن يرجع الكل إليه، ويذعن الكل لرأيه وكان لأبناء هذا الريف من الصفات ما ألف المؤرخون نسبته الى البدو من المروءة والشهامة والكرم والحرص على الثأر، ثم كانت كراهية الحاكم البعيد عنهم أصيلة في نفوسهم، لأن هذا الحاكم كان أجنبيا عن البلاد[٣]. وكانت الحال في المدن وعواصم الريف قريبة من هذا الطراز، لأنها كانت متأثرة إلى حد كبير بنعرة عربية جعلت ما دونته الكتب من خلال العرب وعاداتهم بعض ما يتشبث المصريون به[٤].

على أن هذه الحال في المدن والريف تطورت كما تطور غيرها من جوانب الحياة المصرية. وقد بدأ هذا التطور في المدن بطبيعة الحال[٥]. ثم انتقل منها إلى الريف. وكان من عوامل هذا التطور ازدياد عدد الأجانب الأوروبيين

---

(١) مجلة الهلال: نوفمبر ١٩٣٤ـ مقال بعنوان «بعد قاسم أمين».
(٢) هيكل: مذكرات ج١، ص
(٣) هيكل: مذكرات ج١، ص١٠، ١١.
(٤) هيكل: مذكرات ج١ ص١٠، ١١.
(٥) هيكل: في أوقات الفراغ ص١٠٨.

في مصر لاطمئنانهم إلى المقام بها بعد إنشاء المحاكم المختلطة فيها. وكان عهد الخديوي إسماعيل من عوامل هذا التطور كذلك. فقد حرص هذا العاهل الحاكم بأمره على أن ينقل لمصر من مظاهر الحياة الاوروبية، ما لفت أنظار المصريين إلى هذه الحضارة الحديثة وما جعلهم يأخذون بنصيب منها. ولهذا قال إسماعيل كلمته المشهورة: «لم تبق بلادي قطعة من افريقيا، بل صارت قطعة من أوروبا». فلما استقر الانجليز بمصر بعد الثورة العرابية قوي الاتجاه الى الحضارة الاوروبية، وأسرع التطور نحوها. لكن تطور الريف إلى هذه الناحية كان بطيئا ككل تطور في البيئة الزراعية، ولأن الحكومات المتعاقبة لم تعن بنقل مظاهر هذه الحضارة إلى الريف كما عنيت بنقلها إلى المدن[1].

٤ ـ الوسط الفكري:

وإذا ما اجتزنا الحديث عن الوسط الاجتماعي إلى الوسط الفكري، وجدنا أن ما انتقل إلى مصر من مظاهر الحياة الغربية قد أدى إلى تطور في التفكير يجعله هيكل، اساس ما سواه من صور التطور جميعا[2]. فقد كان التفكير المصري إلى عهد الحملة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر وإلى عهد محمد علي مستمدا من الثقافة العربية وحدها، وكان يطبعه لذلك طابع بدوي متأثر بالعاطفة والعقيدة أكثر من تأثره بما سواهما. فلما بعث محمد علي ومن بعده إسماعيل البعوث العلمية المصرية إلى اوروبا، ولما انتقلت مظاهر الحضارة الغربية مع الأوروبيين الذين جاءوا زرافات إلى مصر إبان شق قناة السويس وما بعد شقها ولما ازدهرت من بعد ذلك معاهد التعليم المصرية القائمة على اساس من الثقافة المدنية، تنافس في توجيه البلاد السياسي والاقتصادي والاجتماعي تياران من تيارات التفكير[3].

---

(١) هيكل: مذكرات ج١، ص١١.

(٢) المرجع نفسه ص ١١.

(٣) هيكل: مذكرات ج١ ص١١، ١٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك أن مصر - كما يقول هيكل - كانت تتأرجح بين العقليتين العربية والغربية تتغلب إحداهما حينا، وتتغلب الثانية حينا آخر. تتغلب العقلية الغربية حينا، فينهض الفكر الحر، وتنتشر النظريات العلمية وتتأثر الثقافة بها في المعاهد المختلفة، وفي المعاهد الدينية نفسها، وتتغلب العقلية العربية حينا، فتتحكم العاطفة ويسترد الماضي سلطانه، وتتأثر الثقافة بها في المعاهد المختلفة، وفي المعاهد الجامعية المدنية نفسها.

على أن هيكل يقرر أن الحركات الفكرية التي حمل لواءها الأفغاني ومحمد عبده في الميدان الديني، وما قام به قاسم أمين في الميدان الاجتماعي استطاعت أن تؤدي دورها في الحياة المصرية بعمق، بينما ما سوى ذلك مما حدث فلا يعدو أن يكون حركات مستعارة من الغرب لقيت من المقاومة ما حطمها، لأن سياسة الاستعمار الغربي كانت حريصة على أن تتحطم ولولا هذا الحرص لكان لهذه الحركات من الأثر ما يفيد في بناء أمم الشرق أجل فائدة[1].

ويمثل لذلك بمثلين حدثا في مصر في أوائل هذا القرن حيث قامت حركة ترمي إلى إنشاء جامعة علمية تنقل إلى مصر ثمرات العلم من مختلف بلاد العالم، وتمهد السبيل لحركة فكرية في الميدان العلمي تفيد مصر وتفيد أمم الشرق العربي كله. ولم يتجه الدعاة الى هذه الفكرة للحكومة لأنهم كانوا على يقين من أن الحكومة لن تستجيب لهم بل لجأوا إلى السراة وكبار الأغنياء يطلبون إليهم التبرع لهذا المشروع الجليل. ذل أن كرومر كان يرى أن التعليم العالي في هذه البلاد لا يجوز أن يزيد على تزويد الشبان بالعلوم الكافية ليكونوا أدوات طيعة في يد الحكومة إذا هم تولوا وظائفها. لهذا أوحى إلى رجال الحكومة جميعا فطالبوا الأعيان بإنشاء «كتاتيب» لتعليم القراءة والكتابة وبالتبرع لها حتى يصرفهم عن التبرع لمشروع الجامعة. وكان لهذا العمل أثره. صحيح أن الجامعة قامت رغم ذلك لكن مواردها المحدودة حالت دون

---

(١) السياسة الاسبوعية: في ٩ أبريل ١٩٢٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التوسع فيها بالقدر الذي كان يقصد الدعاة إليها أن يبلغوه[1].

أما المثل الثاني فتفكير بعض المصريين في أوائل هذا القرن كذلك في إقامة صناعة النسيج في مصر، هذه الصناعة المزدهرة اليوم، والتي تكفي مصر حاجتها الشعبية وتصدر منها الى الخارج ما فاض عن هذه الحاجات. أشاع كرومر يومئذٍ أن صناعة النسيج لا تصلح في مصر لأن جو مصر لا يساعد على قيام هذه الصناعة. فلما أراد بعضهم أن يجازف مع ذلك قيل له إن هذه الصناعة إذا قامت وجب أن تدفع مقابل الرسوم الجمركية رسوم انتاج حتى لا تنافس غيرها[2].

كانت سياسة الاستعمار الغربي حريصة إذن على تحطيم ما تخشاه من حركات الفكر لو كانت هذه الحركات مستمدة من الدول المستعمرة نفسها. وقد أدى هذا التفكير الاستعماري - كما يقول هيكل - إلى نتيجته المحتومة، وعلى حد تعبيره «زاد المرارة بين الأرقاء والسادة في العصور الوسطى، ودفع إلى نفوس الأمم المحكومة بأن لها من الحق في الحياة وفي الحرية ما للأمم الحاكمة». ولذلك قامت كلها في أعقاب الحرب العالمية الأولى «تناضل في سبيل حريتها واستقلالها».

على أن حركة الإصلاح الديني التي تزعمها الاستاذ الإمام، قد ذهبت في غير تردد - كما يقول هيكل - إلى محاربة الجمود الذي قضى على الأمم الإسلامية وجعلها طعمة للاستعمار الاجنبي لأنه قيد العقل في هذه الأمم بقيود منعته من الانبعاث في تفكيره إلى غاية ما يستطاع بلوغه لإدراك الحق والجمال في خلق الله جل شأنه والسمو بهذا الإيمان فوق كل عبودية لغير الله جل شأنه[3].

(١، ٢) السياسة الاسبوعية: ٩ أبريل ١٩٢٧.

(٣) هيكل: مذكرات ج١ ص٢٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومما يذكر أن الاستاذ الإمام حين عاد من المنفى وضع تقريرا في إصلاح التعليم رفعه إلى كرومر لا إلى غيره تسليما منه بأنـه القـوة الفعـالـة[١]. إلا أنـه بالرغم من ذلك ظل يحصر نشاطه في تلك الدائرة التي ارتضاها لنفسه وهي تزعم حركة الإصلاح الديني والاجتماعي ولم يتعداها إلى خارجها ولم يرد أن يكون صاحب رأي مباشر في السياسة إلا من خلال مذهبه الاجتماعي والإصلاحي، والنضج السياسي لا يتم إلا بالتعليم وخاصة التعليم الاجتماعي والصحافة النزيهة وتربية القادة في مجلس الشورى وأمثاله فيدرسون المسائل درسا وافيا ويبدون الرأي في إخلاص وأمانة فيكون كل هذا درسا يقلد عند طبقات الشعب[٢].

وكان مثل الامام في ذلك - على حد تعبير هيكل - مثل لوثر وكلفن وغيرهما من المصلحين الذين قاموا بالحركة الدينية في أوروبا في القرن السادس عشر. أي أنه «جعل العقل مقياس الدين» فكل ما لم يتفق مع العقل من تفاسير السابقين هو يعتبره دخيلا لا يستحق البقاء ويجب أن يقوم مجتهد يحل غيره محله. ولقد كان لهذه الحركة من القوة ما لم يكن سهل الاحتمال عند الأمة لولا الظروف الخاصة التي كان فيها «الشيخ المفتي»، فقد كان صاحب الافتاء في البلاد. كما أنه كان بإطلاعه الواسع وبحسن فهمه للظروف المحيطة به وبتوفيقه ما بين العلم الشرقي والعلم الغربي صاحب مكانة لم تتهيأ لغيره من المصلحين، مكانة سمحت له أن ينفث روحه في الصحافة ويؤثر بذلك في الرأي العام[٣].

ولذلك يذهب هيكل إلى أن آثاره بقيت فعلا في نفوس جماعة الذين لم

---

(١) أحمد أمين: زعماء الإصلاح ص٣١٢- ٣١٣.

(٢) نفس المرجع ص٣٣٥ - أيضا: العقاد: محمد عبده ص١٢٢.

(٣) اعتمدنا في هذا الجزء على كتاب الاستاذ عبد المنعم شميس: رحلة في حياة مصر - القاهرة - كتاب الجديد ص٤١، وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ينقطعوا للعلم الديني. وبهذه الآثار استطاعوا أن يجعلوا الأمة تسيغ من مبادئهم الحديثة ما لم يكن في وسعها أن تسيغه من قبل.

كان محمد عبده على حد تعبير الاستاذ شميس صاحب فلسفة واضحة ترتبط بفلسفة جمال الدين الأفغاني ارتباطا وثيقا، مع أن محمد عبده يختلف عن استاذه في الوسيلة، فقد كان الافغاني يريد إحداث التغيير عن طريق الثورة وكان محمد عبده يؤمن بالتغيير عن طريق الإصلاح.

« اعتنق محمد عبده فكرة التعليم قبل إقامة الحياة النيابية أو تطبيق الديمقراطية وعارض العرابيين عندما دعوا إلى إنشاء مجلس نيابي، ودعا إلى إقامة نظام حكم مصري على اساس نظرية المستبد العادل، وهاجم محمد علي هجوما عنيفا لأنه كان يمثل المستبد الظالم، وقال إنه جعل مصر عزبة له ولأقاربه وأصهاره ومحاسيبه، وعندما علا صوت محمد عبده فوق صوت عرابي ورجاله في اجتماعاتهم الصاخبة، استطاعوا التوفيق بين الفكرتين: فكرة التعليم العام للشعب كله وفكرة إقامة مجلس نيابي يمثل الشعب المصري.

« وكان أخطر أعمال مجلس النواب الذي تمخض عن الثورة العرابية هو تقرير مبدأ التعليم العام للشعب، وكان ذلك في عام ١٨٨١، وقدم تقرير مبدأ التعليم العام للشعب عبدالله باشا فكري تقريرا كاملا عن نظام التعليم الجديد كما اقترحه محمد عبده ووافق عليه النواب بالاجماع. وتقرر لأول مرة في مصر جعل التعليم للناس كالماء والهواء، ووافق النواب على إنشاء مدرسة في كل قرية، وحدد ناظر المعارف عبدالله فكري المواد التي تدرس: القراءة والكتابة والحساب، واعتبر هذا هو الحد الأدنى، للتعليم العام.

« واعتنق محمد عبده فكرة تجديد الإسلام، واعتبرها أساسا من أسس بناء مجتمع مصري جديد، وبدأ يطبقها فعلا في أمور ثلاثة:

أولا: تجديد الأزهر وإدخال العلوم الحديثة في دراساته.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثانيا: إصدار الفتاوى الخطيرة التي تناسب روح العصر، والتي هزت المجتمع الإسلامي كله، ومن أشهرها الفتوى بإباحة لبس القبعة للمسلمين. وإباحة التصوير، وإباحة الفوائد في صندوق التوفير واعتبارها من الأرباح لا من الربا. وغير ذلك من الفتاوى، التي فتحت باب التجديد في الإسلام بعد اغلاقه.

ثالثا: تغيير المفهوم الديني المتخلف عن طريق التفسير الجديد للقرآن الكريم مع وضع اسس علمية تربط الدين بالحياة، ولا تبتعد عن جوهر الإسلام، وبذلك حقق أول منهج عصري في تفسير القرآن.

« وقد اصطدم محمد عبده بالمجتمع المتخلف كما اصطدم رفاعة الطهطاوي من قبل، ووجد معارضة عنيفة من شيوخ الأزهر الجاحدين، كما انتشرت عنه الشائعات المغرضة، ولكنه استطاع بقوة شخصيته الوقوف ضد كل التيارات المناوئة للتقدم.

وحقق في عالم الإسلام فكرة التجديد التي حركت المجتمع المصري، وحافظت على كيانه في أخطر مراحل السيطرة الاستعمارية.

« وأصبح الاستاذ الإمام من أعظم القوى الفكرية المتقدمة في عالم إسلامي متخلف. وكان علماء الإسلام في كافة اقطارهم يطلبون منه الرأي والفتوى.

وعمل محمد عبده على تحقيق فكرته في التعليم عن طريق الجمعية الخيرية الإسلامية التي انتشرت مدارسها في أنحاء مصر. وكان لها كيان تعليمي ظاهر، وآثار باهرة في نشر التعليم على قدر إمكانياتها المادية.

« وكانت جهود محمد عبده تلهب الفكر المصري وتوقظه بعد السقوط وتبعثه على استرداد ما فقده.

ومن المؤكد أن قاسم أمين تأثر بأفكار محمد عبده تأثرا شديدا، وارتبط بها، وبنى عليها موقفه من قضية تحرير المرأة التي أثارها. فاهتزت لها مصر.

« وقاومت القوى المختلفة أفكار قاسم أمين، وعارضته معارضة عنيفة، لم تشهدها مصر من قبل، حتى أن رجلا مثل طلعت حرب الف كتابا في الهجوم على قاسم أمين، ثم أصبح طلعت حرب بعد سنوات قلائل، من دعاة التقدم، وقاد أكبر حركة مصرية لتحرير الاقتصاد، وأنشأ الفرقة المسرحية واستديو مصر للسينما، وجعل المرأة ممثلة ومغنية داخل نظام اقتصادي رائع، قدم روائع الفن المصري، وهو الذي كان يعارض تحرير المرأة، ويؤيد فرض الحجاب عليها، وإلزامها بحياة الحريم.

« ولم تكن أفكار طلعت حرب جديدة في الفكر المصري، ولكنها كانت تجد المناوأة والمعارضة من القوى الرجعية المتخلفة.

كان الشيخ جمال الدين الأفغاني يدعو إلى تصنيع بلاد الإسلام، وعندما القى محاضرة في اسطنبول عن الصنائع، وذكر أن بعض الأنبياء عليهم السلام كانوا من الصناع، فقد كان نوح نجارا، وكان داوود حدادا، ثار شيخ الإسلام في اسطنبول واتهم الشيخ الأفغاني بالكفر والإلحاد، واضطر السلطان إلى إخراج الأفغاني من عاصمة خلافته.

« وكان محمد عبده يدعو مثل هذه الدعوة، بل إنه وضع أساسًا اقتصاديا للمجتمع الإسلامي الصحيح، عندما تحدث عن الرأسمالية، وقال إن الإسلام يرفضها كما يرفض الشيوعية ايضا، وان المجتمع الإسلامي هو مجتمع العدل الاجتماعي.

« وفي تلك الأيام كانت المذاهب الأجنبية الوافدة تحاول غزو الفكر المصري قد ترجم محمد عبده كتاب استاذه الأفغاني في الرد على الدهريين الى اللغة العربية وكان هذا الكتاب هو أول كتاب نبه إلى خطورة الماركسية والداروينية وفندهما تفنيدا علميا[1].

---

(١) شميس: نفس المرجع ص٤٥.

وقد شهد الوسط الفكري إلى جانب ذلك وحول ذلك مناقشات «الجريدة وغيرها للمذاهب والآراء السياسية الحديثة كالحرية والديمقراطية والفرق بين الحكومة الاستبدادية والحكومة الديمقراطية ومقومات استقلال الأمم الحديثة وكيف يمكن أن تتحقق في مصر[1].

وشهد كذلك الدعوة إلى تعميم التعليم بين طبقات الأمة كمقوم أساسي للاستقلال[2]. كما شهد الوسط الفكري كذلك الاهتمام باللغة العربية وتعريب المواد التي تدرس بالانجليزية في المدارس.

ومن جهة أخرى كان الأدب العربي - كما يقول هيكل - يضطرب بعوامل الثورة منذ الثورة العرابية في مصر، ومنذ بدأ هذا الشعور القومي يحرك النفوس ويدعوها إلى التوجه نحو النهوض بمجموع الأمة إلى مثل أعلى. من يومئذٍ بدأت الكتابة تخرج من الحظيرة الضيقة: حظيرة الدواوين، ومن النطاق المحصور: نطاق التعليم، لتتصل بالناس على اختلاف طبقاتهم، ولتصور لهم من نواحي الحياة ما يريد الكاتب تصويره.

وكما أدت الثورة العرابية إلى الاحتلال البريطاني لهذه البلاد احتلالا اتجه بالثورة السياسية إلى ناحية جديدة، كذلك اتجه هذا الاحتلال بثورة الأدب إلى ناحية جديدة انتهت عندها الصور الأولى من الثورة، صورة لغة الكلام ولغة الكتابة، ولم يبق بعدها محل لبحث أو جدل ولم يبق البتة قائل باتخاذ لهجات الكلام اساسا للأدب وحل محل ذلك ما سمي القديم والجديد في الأدب واللغة. وقد احتدمت معركة القديم والحديث هذه منذ سنين طويلة وتنقل فيها المحاربون في ميادين مختلفة[3].

ومهما يكن من غمر الحوادث لزعماء ثورة الأدب في ميادين السياسة،

---

(١) لطفي السيد: صفحات مطوية ص٣٩ وما بعدها.

(٢) لطفي السيد: مذكرات ص٦٨.

(٣) هيكل: ثورة الأدب «المقدمة».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهيكل منهم فان جهودهم ظلت «تراقب وتحلل كأدق ما كانت جهود الزعماء السياسيين تراقب وتحلل»، ذلك بأن الأدب واتجاهه في أية أمة من الأمم «هو العنوان الصحيح لحضارتها، وهو القوة التي لا تستطيع قوة أخرى كبحها والقضاء عليها بالسهولة التي تقضي بها القوات المسلحة على الثورات السياسية، وإنما يقضى على ثورة الأدب باندساس عوامل تفسد توجيهها، ويذهب هيكل إلى أن مجهودا كبيرا قد انفق في هذا السبيل، كما أنفق من قبل ذلك مجهود كبير للقضاء على حركة الإصلاح الديني التي بدأها الاستاذ الإمام والتي كانت جديرة بأن تؤتي أعظم الثمرات»[1].

وفي هذا الوسط الفكري تبلورت أفكار هيكل، فاصطبغت بصبغة التجديد فيه وأسهم في ذلك أيضا ما أفاده هيكل من فرنسا ومقوماته الشخصية، وقويت هذه النزعات عنده في السياسة اليومية والاسبوعية والتي خاض من أجلها معركة القديم والحديث، مجندا كل طاقاته لانتصار الحديث، ومن أجل ذلك سنرى أن كتابات هيكل تسري في جسدها دائما «روح التجديد».

٥ ـ الوسط الفرنسي:

قضى هيكل سني دراسته للدكتوراه في فرنسا. وككل شاب يتاح له المقام في إحدى جهات أوربا زمنا غير قصير تأثر هيكل بما رأى في تلك البلاد، وتأثر أكثر من سواه، وكان تأثره بنوع خاص من «جهتي الإحساس والتفكير» ففي مدينة النور يطالع آفاقا جديدة من حرية الفكر والعقيدة ويقبل على دراسة الأدب الفرنسي ـ رغم تخصصه في القانون ـ فيرى في هذا الأدب جزالة وطلاوة لا يجدها في الأدب العربي ولا في الأدب الانجليزي.

---

(١) هيكل: ثورة الأدب «المقدمة».

لذلك يجدر بنا أن نستظهر قدر الطاقة نوع الوسط ومميزاته حتى يتسنى لنا تتبع هيكل كصحفي وكاتب. وربما يساعدنا ذلك على تحليل أسلوب هيكل ومقالاته وأفكاره وعقيدته.

وسنكتفي في عرض هذا الوسط الفرنسي، بما ذكره هيكل نفسه، في معرض حديثه عن قاسم أمين، لأن ما ذكره هيكل هو ما يأخذ «بذهن الشاب الشرقي الذي يقصد إلى تلك البلاد ليفيد منها العلم والنظر»[1]. ولأن ما ذكره هيكل تأثر هو به أشد التأثر، ذلك أن الناظر في فرنسا تقابله «طبيعة جديدة جميلة لم يعرفها في مصر ولم يتذوقها الا من طريق الخيال تقابله جبال وغابات وغياض وحدائق يأخذ جمالها بالنظر ويسترعي اللب والفؤاد. وتقابله كذلك مبان فخمة بديعة النظام فيها غير المعنى التاريخي الذي ألفناه في مبانينا التي وجدت على التاريخ قبل أن يوجد التاريخ معنى الاتساق والتوازن. وفي كثير من هذه المباني يجد التماثيل والنقوش والصور وكله مثل الجمال على مختلف أنواعه. فلا يلبث أن يرى ذلك كله حتى تأخذه نشوة تدعوه إلى تكرار النظر إليه والاستزادة منه. فهو يذهب المرة تلو المرة الى قصر اللوفر الفخم يشاهد فيه أبدع الصور وأدق التماثيل مما خلف اليونان والرومان والهولنديون والإيطاليون وأهل الأمم ذات المدنية والحضارة»[2].

«تسترعي هذه الأشياء كلها نظر النازل فرنسا وتفتح أمامه عالما جديدا لم يجل قط من قبل في تصوره وتدعوه بذلك للاستزادة ما استطاع مما حولها. فيقصد مسارح التمثيل يرى فيها أثر الفكر الإنساني مجسما متنوعا كما يرى التفنن في حسن الذوق حين يجيل بصره في صالات التياترو المزدحمة أثناء هدنات ما بين الفصول بالمتفرجين. ويذهب إلى ملاعب الموسيقى فتأخذ بسمعه نغمات جديدة مملوءة بالحياة والقوة مختلفة جد الاختلاف عن نغمات موسيقانا المستسلمة الشاكية. قد لا تطربه هذه النغمات بادئ الأمر ولكنه يرى

(١، ٢) هيكل: في أوقات الفراغ ص١١٣.

فيها معنى خاصا غير الذي ألفه في الموسيقى الشرقية. يراها أغلب الأحيان موسيقى عصبية يهزها الفرح أو يخرجها عن طوقها الحزن. فإذا انبعث عنها الوجد والشكوى لم تدم على ذلك الا ريثما تصور المدنف الواله وسط الحركة الشديدة حركة المدنية الحاضرة. ثم يرى فيما حول ذلك كله المتاجر والمصانع كلها النشاط والحركة ويحس في كل مخلوق مما على ارض هاته البلاد أنه يحب الحياة حبا حقيقيا ويرى فيها مواضع للفائدة واللذة يمكنه الوصول إليها متى أراد. ولن يكون ذلك بالاستسلام ولا بالطمأنينة للحاضر ولكن بالجد والعمل. فكل يجد ويعمل ويريد ان يسخر كل ما على الطبيعة لفائدته ولـذتـه هذه هي النواحي الظاهرة التي تأخذ بنظر النازل فرنسا »[1].

على أن هيكل يتعمق في شئون الفرنسيين إلى أكثر من المنظر الظاهر، فهو يهتم ببحث أنواع حياتهم ومبلغ إحساسهم وأوجه التفكير عندهم مستعينا في تفسير ذلك كله بما رأى، وقد تبدلت له « صور وإحساسات وأفكار وأنظمة أكثر أخذا باللب وأوقع في النفس مما رأى قبل ذلك. تبدت الاسرة وليست هي مجرد ذلك القطيع الإنساني لا يجمعه أكثر من الروابط الطبيعية روابط الأبوة والبنوة تحت أمـرة الأب، ولكنهـا شركـة إنسـانيـة أسـاسهـا تبـادل الإحساس الخالص والزيادة في سعادة الفرد من طريق الاجتماع وخلق الأبناء والقيام عليهم ليكونوا في مستقبلهم رجالا أحرارا أو سيدات يعرفن معنى الحرية ويقدسن الواجب[2].

وتبدت له إحساسات دقيقة رقيقة قوية « عنها صدرت تلك الموسيقى العصبية الحرة وهاته النقوش والصور البديعة المملوءة حياة ونظامًا ومعنى، وتلك الروايات المملوءة بالشعر والفكر وعنها تصدر كل جلائل الأعمال التي

---

(١) هيكل: في أوقات الفراغ ص ١١٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ١١٥.

ترى في تلك البلاد »[1].

وبدا له إلى جانب هذه الإحساسات وآخذا بيدها فكر دقيق مصقول هو مصدر « فلسفة طويلة عريضة لم تترك نقطة من نقط الأخلاق والعقائد أو الأديان إلا حققتها وحللتها ووصلت فيها إلى مختلف النتائج »[2] وليست هذه الفلسفة فلسفة استسلام وتواكل. بل هي الأخرى فلسفة « قوية مبناها احترام الجنس الإنساني وكل ما ينتج لا تعرف تقديس الماضي ولا الخضوع له. بل هي تأخذ كل ذرة من ذراته فتحللها وتبحث عن مصدرها وأصلها وطرق نموها والنتائج التي أنبنت عليها ثم تبحث عن قيمتها وحقها من البقاء فان لم ترها متفقة مع العقل أو رأتها عقيمة النتيجة طرحتها جانبا »[3].

ويذكر هيكل أن هذه الفلسفة لم تذر الاعتقادات دون النقد المر ولم تترك الديانات ولا أساسها الا بعد ان هدمت منها جانبا غير قليل. وقد سارت في هذا الطريق أزمانا طويلة حتى كانت مسألة عدم التدين في العصر الذي نزل فيه هيكل أرض فرنسا مسألة مفروغا منها بعد ما استنفذت من الكتب الفلسفية ومن كتب الشعر والأدب آلاف الصحائف[4]. وكان من أثر هذه الفلسفة اللادينية أن بثت في الشعور العام فكرة جديدة عن الأخلاق وعن المعاملات وعن طرائق النظر عامة. فصارت فرنسا المفكرة تعمل لبناء عمرانها الاجتماعي على أساس من العقل والعلم والبحث، وصارت فرنسا المتصلة بهذه الأولى - يقصد هيكل بذلك شعب المدن - بعيدة عن أن تدين بالأفكار القديمة أفكار الزهد والتقشف. بل آمنت بالأفكار الاقتصادية المنادية بوجوب السعادة في هذه الحياة الدنيا[5].

هذه الحركة الفكرية القوية في ذلك « الشعب الحي وسط تلك الطبيعة

(١، ٢، ٣) هيكل: في أوقات الفراغ ص ١١٦.
(٤) المرجع السابق ص١١٧، ١١٨.
(٥) المرجع السابق ص١١٧، ١١٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الناطقة المتحركة، وهذه المظاهر الفنية من نقوش وتماثيل وروايات وموسيقى وتلك العواطف الشديدة التي تحرك النفوس ـ ذلك كله هو أول ما يأخذ بنظر الأجنبي المقيم في فرنسا ـ وذلك كله هو أساس مدنية الغرب»[١].

في هذا الوسط أقام هيكل زمنًا من حياته وتأثر به أكبر الأثر. تأثر به إلى حد ظهور هذا الأثر في أفكاره وفي كتبه وفي تراثه الصحفي والأدبي إلى حد كبير. ففي باريس يكتب «زينب» يخط بعض فصولها حين يشتد به الحنين إلى الوطن فيسدل ستائر غرفته لينقطع إلى أخيلته وإلى ذكريات صباه في ريف مصر وحضرها، أما حين يكون في سويسرا فيبهره منظر الجبل والبحيرة والأشجار تتسرب من خلال أوراقها وغصونها أشعة الشمس أو ضوء القمر ينعكس على صفحة البحيرة فإنه سرعان ما يتناول كراسة «زينب» ليملي على الورق ما اهتاجت مناظر سويسرا من ذكريات ريفه الحبيب. وأخذت، «زينب» من وقته قرابة عام بدأ كتابتها في أبريل عام ١٩١٠ وأتمها في مارس عام ١٩١١.

ويكتب هيكل من وحي مشاهداته في فرنسا: «يوميات باريس» يدون فيها ما رأى وما استهوى خياله من تلك الصور، وتبقى هذه الكراسة مطوية لا تنشر حتى وقتنا هذا.

وفي هذه اليوميات المخطوطة يذكر أنه التقى بالشيخ مصطفى عبد الرازق وبهي الدين بركات وعبد الحميد سعيد وحسن صبري وغيرهم يتناقشون فيما يجد للوطن من أمور وهنا تطرأ له فكرة لم تخطر لأحد من قبل فعرضها على أصدقائه فقابلوها بالاستحسان ومن ثم كوَّنَ جمعية للمصريين بباريس يستقبل فيها الوافدين ويرشدهم إلى ما يريدون ويناقشهم أحوالهم وأحوال وطنهم، وكان هيكل سكرتيراً لهذه الجمعية. ويسمع عن الجمعية الاسلامية فيتردد عليها ويتصل فيها بالدكتور منصور فهمي ثم صار أحد أعضائها وخطبائها.

---

(١) هيكل: في أوقات الفراغ ص ١١٧ و١١٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي باريس ايضًا كان يقرأ جريدة « العروة الوثقى » التي سبق أن أصدرها الأفغاني ومحمد عبده. ولم تنقطع صلته بـ« الجريدة » التي كانت تصل إليه ولكنه كان لا يكتب بها إلا نادرا.

وكان هيكل قد التحق بمدرسة العلوم الاجتماعية العالية « وأخذ فيها دراسات كثيرة متنوعة عن الاجتماع وعلومه وتلقى محاضرات في الأدب الفرنسي واللاتيني فحصل لنفسه ثقافة واسعة غنية. وقد أحدثت هذه الثقافة، التي سبق الحديث عن ملامحها اللادينية في نفسه مرحلة من الشك لا يتصل بالاجتماع ومثله وشئونه، بل يتعداه إلى أمور الدين. وحول هذا الشك يناقش في يومياته بعض مسائل الدين والسياسة والحكم حسب مفهوماته الجديدة التي حصلها[1].

وما يلبث هذا الشك أن ينقشع بعد أيام فنجده يذكر في إيمان عميق أن « الكتب المقدسة أمل الإنسانية الكبير في أن تصل إلى كمالها وتبلغ الغاية التي أعدتها لها القدرة الالهية». ثم يضيف: « أخلص روحك من ظلمات الباطل تصل من الحقائق إلى ما حواه هذا العالم وتطلعك الطبيعة على سنتها الأزلية »[2].

ويروي عنه الدكتور محمد بهي الدين بركات[3]، زميله في باريس أنه « كان ينزل دراسة القانون في المحل الثاني من نفسه.. أما المكان الأول فقد جعله لمطالعاته الخاصة، فهو دائم الشغف بمطالعة كتب الأدب والفلسفة باللغة الانجليزية والفرنسية فإذا تعب منها اتجه إلى أمهات الكتب العربية في الأدب والشعر، القديم منها والحديث، يستمتع بقراءتها ويحفظ الكثير منها عن ظهر قلب ».

---

(١) يوميات باريس: أوائل اكتوبر ١٩٠٩.

(٢) المرجع السابق: ١٥ أكتوبر ١٩٠٩.

(٣) من كلمته بكتاب « الدكتور محمد حسين هيكل ص٣٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد وصف هيكل أثر هذا له في نفسه قال: «ولعل أشد ما أعجبني من هذا الأدب روح الثورة الذي يبدو فيه دائم الضرام، وحيوية متوقدة، لا تخبو قط، نارها نشاط دائم لا يستقر ولا يهدأ» وقال: «ومرت الأيام وأنا أرى في مدينة النور ألوانا من الحياة تفسح أمام النظر آفاق التفكير وتزيد الإنسان إيمانا بحرية العقيدة والرأي وبأن التعصب ذميم وأن أول واجب على الإنسان أن يديم البحث عن الحقيقة، وألا يكتفي بما يظن أنه وصل إليه منها، بل يجعل دأبه تقليب هذا الذي وصل إليه، فينفي عنه ما يعلق به من زيف، يرى من خلاله آفاقًا جديدة لهذه الحقيقة العظمى تتراءى لنا من وراء الحجب»[١].

وقد ثبت هذا اليقين في نفسه ما درسه في باريس للدكتوراه، وما قرأه في الكتب الكثيرة التي أتيح له أن يقرأها يومئذٍ. ومن هذه الكتب كتاب لليون بورجوا عنوانه (التضامن Solidarité) فمبدأ التضامن القومي يستند إلى أن الوطن يتألف من أجياله المتعاقبة وأن ساكني القبور لهم في تراثه الوطني العظيم حظ أكبر من حظ ساكني الدور «أما وذلك حق، فالكاتب والطبيب والقاضي والفيلسوف والصانع وكل عامل وكل مفكر يخدمون جميعا وطنهم. ما أحسن كل منهم العمل الذي يقومون به. وسياسة الوطن ليست حديث الصحف وخطب الأحزاب وكفى، «ولكنها تتناول أيضا كل شيء من أمر الوطن وعيش بنيه»[٢].

واختار هيكل في باريس لرسالة الدكتوراه موضوع «دين مصر العام»[٣] وهو يذكر أنه كان يريد البحث في موضوع آخر: هو: التشريع للعمل والعمال في مصر. ولكنه لم يجد في هذا التشريع ما يكفي لرسالة يتناول فيها

(١) هيكل: مذكرات ج١، ص٤٣.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٤.

(٣) La Dette publique Egyptienne. Par Mohamed Hussin Haekal Librairie Nouvelle Paris 1912.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموضوع، ويقترح ما يراه لمصلحة الصناعة والعمال في مصر. ويعجب حين يجد تشريع العمل والعمّال بمصر في ذلك العهد لا يتجاوز بعض مواد خاصة بتشغيل النساء والأطفال في محالج القطن[1].

ولم يجد بدًّا من العدول عن هذا الموضوع وإن كان هذا الفقر في التشريع للعمل والعمال قد فتح عينه على ما نحن بحاجة إليه في حياتنا العامة من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية[2].

وإذ رأى موضوع التشريع المصري للعمل والعمال مجدبًا لا يصلح موضوعا لرسالة فقد اختار موضوع، « دين مصر العام » الذي وافق عليه أستاذه في الاقتصاد « لارنود » وشجعه عليه. فقرأ كل ما أمكن قراءته عن مصر الحديثة من عهد محمد علي وقرأ ما كتب بالانجليزية والفرنسية والوثائق الرسمية في الكتاب الأصفر الفرنسي، والكتاب الأزرق الانجليزي. وراجع بعض الكتب العربية كتاريخ الجبرتي وتاريخ ابن اياس كما راجع الوثائق الرسمية التركية والمصرية في قاموس الإدارة وبعض سجلاته.

وقد لاحظ أثناء قراءاته في تاريخ مصر الحديث أن الحوادث والوثائق كانت تؤول عند كل مؤلف حسب هواه السياسي في الموقف الذي كتب فيه، « وكان تاريخ مصر لذلك مضطربا أشد الاضطراب يكتبه الفرنسي على نحو، والانجليزي على نحو، والمصري على نحو ». ولذلك يقول: « أما وقد درسنا نحن هذا التاريخ على الصورة التي أرادت السياسة البريطانية أن تضعها، فكان لزامًا علي أن اتقصى الحقيقة ما استطعت وأنا أرسم أمام ذهني صورة لهذا الوطن في القرن الذي ولدت فيه استطيع من خلالها أن أتبين الحق من أمره وأن أترسم الطريق الذي سار فيه حكامه الأجانب عنه، وأبناؤه الخاضعون لاستبداد هؤلاء الحكام، وما اقترفه هؤلاء وأولئك من خير وشر. وقد أعانني على ذلك حب عميق لهذا الوطن، وحرص على الحقيقة العلمية المجردة من

(١، ٢) هيكل: مذكرات ص٤٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأهواء والشهوات. يضاف إلى ذلك زهو شاب يريد أن يجيد كل الإجادة وأن يتقن غاية الاتقان »[1].

وقال: « كان لهذه المطالعات أثر كبير في اتجاه تفكيري في سياسة بلادي، لقد ازددت إحاطة بالعوامل التي أدت بها إلى الوضع الذي هي فيه، وتقديراً لما يجب على أبنائها عمله لخيرها، كما قدرت أن للسياسة الدولية أثرها الكبير في حياة الأمم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وزادني علما بهذا الأمر اطلاعي على كتب لجبريل هانوتو ولغيره من الساسة الفرنسيين عن اتجاه السياسة في أوربا، سواء كان هذا الاتجاه استعماريا أم كان في علاقة دول أوربا بعضها ببعض. على أن ذلك كله كان يصطبغ في تفكيري بمنطق سني يومئذٍ، وكان منطقا أثر العقل فيه أكبر من أثر العاطفة ولكنه كان على كل حال تفكير شاب لما يمارس الحياة ولما يقف على تصاريفها إلا من خلال ما قرأ. وأما ما رأى من حوادث الحياة فقليل، بالقياس إلى هذا الخضم الضخم الذي تضطرب فيه السياسة العالمية، وتتأثر به الدول كبيرها وصغيرها على السواء »[2].

هذه صورة استوحيناها مما ترسب في العقل من قراءتنا للأوساط السياسية والاجتماعية والطبيعية والفكرية لعصر هيكل.

والذي لا شك فيه أن هذه الصورة كان لها أثر في الناحيتين النفسية والخلقية لدى المصريين.

فالأثر النفسي يبدو في « الحيرة » التي عانى منها الشباب الذي عاش الصراع بين القديم والجديد في جلال عنفوانه، وكان هيكل من القلة التي استقام تفكيرها على العقل والمنطق، فلم يكن ممن يقبل الأمور على علاتها أو ينساق مع رأي الجماعة مهما بلغ إجماع الناس عليه، وإنما كان يبحث عن الاتجاه

(١) هيكل: مذكرات ج١، ص٥٣.
(٢) نفس المرجع ص٥٤.

الصحيح الذي يجب الأخذ به عن اقتناع وبينة[1].

وهي الفترة التي شهدت المعركة بين العقل الإيجابي (علم أوربا) والإيمان التقليدي في الشرق الإسلامي، على حد تعبير الدكتور بابريوهانزن، وهي المعركة التي عاشها فكر هيكل، المتجه باستمرار نحو الشرق[2]. ووقف هيكل من كل هذه الاتجاهات في حيرة لم ينقذه منها إلا أن يلم بنفسه بها ويراها على هدى بصيرته ومنطقه حتى استقام فكره على الخير منها كما يراه، وهكذا كان تكوينه العقلي والفكري متصلا أشد اتصال باتجاهات جيله في باكورة شبابه وبامتداد الموجة الغربية حيث آذنت البيئة المصرية بتقبل آثار امتدادها. ولم يعد أمام هيكل وجيله من الشباب إلا أن يقودوا الاتجاهات الجديدة وأن يطبعوا تلك الموجة الغربية بطابع بيئتهم وجيلهم.

وقضى هيكل كما قضى شباب جيله في هذا العناء فقد كان عليهم أن يتعرفوا إلى أنفسهم وشخصيتهم ومقومات بيئتهم قبل أن تجرفهم الموجة الغربية في جري غريب عليهم وعلى بيئتهم[3].

أما الأثر الخلقي فقد نجم عن العوامل السابقة جميعا، ويتمثل في ذلك «الاستسلام الطبيعي الموجود في النفس المصرية. فاصطبغ كل ما دخل إليها من الاخلاق والعقائد بصبغته وأصبحت قواعد الأديان التي توالت على أرض مصر مرتكزة على أساس الجبرية والإيمان كما امتازت الأخلاق المصرية بالسكون إلى حكم القضاء: ولم يكن من مصالح الحكام المتعاقبين تغيير شيء من ذلك كله فانغرست تلك الصفات وتأصلت الى حد الجمود»[4].

وقد اقتضت هذه الرؤيا الاجتماعية للواقع المصري عند هيكل، أن يقرر

---

(١) النجار: من كلمته بكتاب «الدكتور محمد حسين هيكل» ص١٥.

(٢) Islamic Studies Vol. VII June. 1968. P.P. 187 191.

(٣) النجار: نفس المرجع، هيكل: مذكرات ص٢٣ــ ومقدمة ثورة الأدب.

(٤) هيكل: في أوقات الفراغ ص١٠٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن طرق باب الإصلاح يستلزم قبل كل شيء الإحاطة بحال الأمة. والأمة لا تتكون من اللحظة الحاضرة بل أن للماضي في شركة حياتنا قسما أكبر مما للحاضر. الماضي هو حياتنا كلها، هو الأب الذي أنشأ اللحظة الحاضرة وسلطان أبوته سلطان فعال قاس شديد المحال وإنما يكون الإصلاح بما في هذا الماضي من حسنات ومساعدة هذه الحسنات لتسري إلى المستقبل وتنمو فيه وبمحاربة ما فيه من مفاسد محاربة استئصال وإبادة[1].

ومن تلك الحسنات في الخلق المصري ما يذكره هيكل منذ أيام الصبا، « ذلك حين كنا نقضي إجازاتنا المدرسية بالريف، وحين كنا نخرج في أحيان كثيرة مع الفجر، فنرى القرية استيقظت، ونرى الرجال يذهبون إلى المسجد يؤدون فيه فريضة الصبح قبل مطلع الشمس، لينتشروا بعد ذلك في المزارع يعكفون فيها على العمل نهارهم ويبقى فيها منهم شطرا من الليل من يمسكه العمل فيها هذا الشطر من الليل، ونرى النسوة أخذت كل منهن جرتها لتملأها ولتعود بها مرارًا، ثم لتعكف على عمل الدار صباحها حتى إذا كان الظهر ذهبت لرجلها بطعام الغداء في المزرعة.

« أعاد هذه الصورة في ذاكرتي مثل لاتيني معروف ترجمته « العمل عبادة » ولهذا المثل نظير في لغات العالم جميعا وفي ريفنا يقولون الشغل عبادة كما يقولون: نوم الظالم عبادة. فالعمل الصالح هو بعض ما وجد الإنسان في هذه الحياة ليقوم به. بل هو كل واجب الإنسان في هذه الحياة »[2].

في هذه البيئة العامة التي كانت قد استوت تماما لاستقبال الموجة الغربية وأخذت تستقبل أدق مراحل تطورها الاجتماعي والفكري والسياسي والاقتصادي، في هذه البيئة نفسها عاش محمد حسين هيكل في مطلع هذا القرن يحاول التعرف على نفسه وأن يستدل على شخصيته، فاستقام له منهج

---

(١) هيكل: في أوقات الفراغ ص ٩.

(٢) مجلة الهلال: يونية ١٩٣٥.

البحث والمعرفة بعد جهد. وكانت حياته صورة لتلك الجرأة وهذا العناء الذي كان يعوق جرأة جيله من الشباب في سبر أغوارهم للتعرف على مكنون نفوسهم حين اجتاحتهم الموجة الغربية، فضلوا أهدافهم ولم يهتدوا حتى رجعوا إلى أعماقهم يستجلون مكنونها ويكشفون عن رواسبها القديمة التي تذهب بعيدا عبر آلاف السنين من تاريخ مصر الطويل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثاني

الفكر القومي في مدرسة لطفي السيد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيد

أما مقومات شخصية هيكل، فإننا نتحدث فيها عن المقومات الفطرية (الطبيعية والخلقية) بما فيها عامل الوراثة، كما نتحدث عن المقومات المكتسبة، بما فيها نشأته وتعرفه بلطفي السيد، وموقفه من العصر، ومزاجه وثقافته، وعلى الرغم من اعتقادنا ان المقومات الفطرية أقوى من المكتسبة فإننا لا نستطيع أن نغفل المقومات المكتسبة «لأنه لو كانت المقومات الشخصية هبة طبيعية وحسب، لكنا ضحايا الظروف وما كان للتربية أي أثر في تكوين العظماء من رجال العلم والأدب والفن، ولكن أثرها لا ينكر في تكوين الشخصية والعظمة في نفوس العظماء»[1].

على أننا لا نستطيع القول بفصل المقومات الفطرية من المكتسبة، ومن هذا سيكون حديثنا عنهما لتحديد مقومات هيكل الشخصية.

هيكل: مولده وأسرته:

ولد هيكل في العشرين من شهر اغسطس سنة ١٨٨٨ بقرية «كفر غنام» مركز السنبلاوين التابعة لمحافظة الدقهلية، والقرن الماضي يضيء بآخر ذبالاته، لأبوين من صميم الريف المصري. وكان أبوه حسين أفندي سالم هيكل سيد

---

(١) محمد عطيه الأبراشي: الشخصية ص١٠، ١١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قومه وعشيرته، أحد أفراد هذه الطبقة المصرية التي أخذت تسود الريف المصري وترث ما كان للطبقة التركية القديمة الغالبة من ثراء ونفوذ يعززهما جاه العشيرة وعصبية الأسر الريفية الكبيرة[١].

وفي قصة هيكل «زينب» يمكننا أن نتصور من خلالها أن والد هيكل كان على صورة قريبة من السيد محمود والد حامد بطل القصة، ومما يذكره هيكل عنه «أنه صاحب ضياع كثيرة ورب عائلة طويلة عريضة.. وباعتباره أكبر أخوته الكثيرين كان قد جمع من كده وبمعونة والده ثروة غير قليلة وأصبح هو وارث اسم العائلة وطبعا الوصي على أخوته القصر.

وقد كان من أطيب الناس قلبا وأصفاهم سريرة وأحبهم لاخوته وأحناهم على الصغار منهم»[٢].

وبكر به أبوه إلى كتّاب القرية، كتاب الشيخ ابراهيم جاد، حيث أتم حفظ القرآن. وعن ذكريات الطفولة في الكتاب يكتب هيكل في السفور «سنة ١٩١٥» عن نفسه قائلا: «وان - أنسى لا أنسى يوم العلقة المليحة، أذكرها اليوم وقد مضت عليها سنون فتعروني هزة الخوف، كنا إذذاك يوم السوق وكان من عادتي أن أحضر لسيدنا نصف بريزة من أبي كل سوق. فلما أصبحنا ذلك اليوم وأردت مقابلة والدي علمت أنه نائم فألححت وبكيت وصحت وصرخت حتى استيقظ لشدة ما أحدثت من الجلبة، فخرج يسأل عن الأمر فلما علم غضب مني وأمسك بأذني وضربني كفًا وطردني ولم يعطني حتى ولا قرش السوق. فذهبت إلى الكتاب بعد ان كفكفت أمي دمعي وأعطتني قطعة من السكر لتسكتني. ولما وصلت نظر إلي سيدنا نظرة الأمل. ولكنما خيب كل ظنونه أني لم أضع يدي في جيبي. فتعلل وسأل عن سبب تأخيري. ولما أجبته استشاط غضبا لأنه كان ناويا - كما علمت فيما بعد - يشتري

(١) النجار: من كلمته بكتاب «الدكتور محمد حسين هيكل» ص٥.

(٢) هيكل: زينب ص٢١ وما يليها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بزذعة حمارته من السوق. وأنذرني إن لم أحفظ لوحي قبل الافطار أوراني شغلي وفعلا لم أحفظ لضيق الوقت فنادى بعلج من أولاد المكتب فدنا الي وقرص بيديه رجلي فوق كتفه وأمسك سيدنا بعصا من جريد وقام على أطراف أظافره ونزل ضربا[1].

مهد طفولته:

وكانت نشأة هيكل في الريف المصري وفي أسرة لها العصبية والسيادة في القرية من أهم المؤثرات في حياته، فالطفل حين ينشأ في مثل تلك الأسر الريفية الكبيرة يحس بعصبية الأسرة إحساسا تاما وحين يكون الابن الأكبر لسيد العشيرة ورب الأسرة يرى من رعاية الأب واكبار الاسرة ما يؤهله لزعامتها بعد أبيه فتتكون شخصيته وتنمو منذ الصغر وتتفتح رجولته واعتباره لذاته قبل الأوان، وينمي شعوره بالمسئولية إحساسه بكيانه وسط الاسرة هذا إلى ما جبلت عليه الأسر في الريف من توقير المسنين منهم، ثم هذه الحياة الطليقة في الريف ترى فيها أبناء الأعيان يتركون على سجيتهم يقضون كما يقول هيكل في «زينب» - أيام مساحاتهم السنوية في الغيطان، وكثيرا ما يبيتون هناك ليالي الحصاد مسرورين بهواء الليل وغناء العاملات، أو إلى جانب (تابوت) يزن من غير انقطاع - أو هذا على الأقل شأن الأسر في ريف الدقهلية والشرقية[2].

كان هيكل أكبر أخوته وابن سيد عشيرته يذهب إلى مدرسة الجمالية بالقاهرة منذ عام ١٩٠١ التي انتقل منها الى المدرسة الخديوية ليتم بها دراسته الثانوية أو التجهيزية كما كانت تعرف حينذاك وحصل منها على البكالوريا عام ١٩٠٥. وكان يقضي عطلته الدراسية بقريته «كفر غنام» صيف كل

(١) هيكل: في أوقات الفراغ ص٢٣٣.
(٢) النجار: من كلمته بكتاب «الدكتور محمد حسين هيكل» ص٨.

عام، وكان له مزاجه الخاص، كما يروي أحد أقربائه[1]، لم يكن يقبل على العمل في الحقل كما كان يحلو لبعض التلاميذ من أبناء الريف حين يمضون أوقات فراغهم في الحقل فيجدون متعة وتسلية في مزاولة بعض أعمال الفلاحة، فقد كانت ملكاته الذهنية تفوق ملكاته اليدوية، فكان يقضي وقته في القراءة أو الكتابة أو في النظر الى طبيعة الريف أكثر مما يقضيه في أي عمل آخر، ونراه يصدر مجلة للقرية دعاها «الفضيلة» يطبعها على (البالوظة) ثم يوزعها على القراء في كفر غنام وما جاورها من القرى. وأيا كان الأمر في هذه المجلة أو في شأنها، فانها تنبئ عن ميل مبكر للصحافة وشغف لمهنة الكتابة.

وكان شغف هيكل بالريف كشغفه بالقراءة والكتابة، يطوف به مغرقا في تأملاته يستجلي مفاتنه هيانا بكل مواطن الجمال فيه، يحسه في غناء العذارى حين يقبلن على جني القطن ويراه في (الموردة) حين ترد الصبايا لملء جرارهن، ويستصبحه في وجوه الجميلات من بنات الريف وقدودهن المياسة تحت جلابيبهن السوداء الطويلة[2].

وتظل هذه الصورة - لمهد طفولته - محفورة في ذهنه وتكون قصة «زينب» رجع هذه الصور في نفسه جميعا، حين يشتد به حنين الغربة إلى الوطن وإلى مراتع الصبا وصبوات الشباب الباكر، فزينب هي ثمرة الحنين إلى الوطن والحنين وحده - كما يقول[3]- هو الذي دفع به إلى كتابة هذه القصة، ولولا هذا الحنين ما خط قلمه فيها حرفا ولا رأت هي نور الوجود. وزينب هي قصة شبابه: «أراها تمثل شبابي تمثيلا صحيحا وان فيها لذلك كثيرا مما أحب، سواء لأنه دخل عالم الذكرى حتى لأعجز إن حاولت استعادته، أو لأنه يمثل أحلام الشباب وخيالاته مما أبسم اليوم له كما أبسم لما اسمع من

---

(١) سالم محمود نجم الدين: من كلمته بالكتاب السابق.
(٢) النجار: نفس المرجع ص٩.
(٣) هيكل: زينب ص٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خيالات وأحلام لشبان هم اليوم في مثل سني يومئذٍ، ولأنه بعض عزم الشباب ومضائه هذا العزم الذي لا يعرف المستحيل بل يعرف كيف يتغلب على كل مشقة ويذلل كل عقبة ويستسهل كل صعب ويحقق كل خيال، أو لأنه يشدو بموسيقى الصبا الحلوة العذبة المنبعثة من كل موجود في الأرض أو في السماء، والتي تتغنى بأهازيج الحب والوجد كما يعرفها الصبا خالية من كل ما يفجع طائره على أجنحة من الأمل إلى جنات فيحاء كل ما فيها ورد وريحان وحور عين، بل أن لفجائع الشباب لشعرا له روعته وموسيقاه، هذا وغيره من صور الصبا المرسومة في زينب يمثل شبابي، ولذلك أحن اليوم إليه حنين القلب إلى مثوى محبوبٍ ذهب ولن يعود ».

وليست زينب وحدها هي كل ما خلف الريف في نفس هيكل، فان أثر الريف في فنه وفي خلقه وطبعه واسلوبه أقوى من أي مؤثر آخر. فقد كان هيكل - كما سنرى أعظم وصاف بين كتاب جيله، وهو في هذه الميزة في وصف الطبيعة شأنه في أسلوبه التصويري الجميل، وهذا من أثر نشأته في الريف، كجان جاك روسو، حين غذت طبيعة التيرول الفاتنة وحيه وألهبت أحاسيسه وخيالاته وتأملاته في كل ما كتب وحين غدت معلمه الأول يستهديه أفكاره وحكمته، وهيكل في وصفه للريف وروعة النيل وجلال الآثار في مصر ومنظر البحيرة والجبل ومغرب الشمس ومطلع القمر على مرتفعات التيرول في أوربا مما ذخرت به كتبه ومقالاته وغدا طابع كتابته أول من يرود هذا اللون من الكتابة في الأدب العربي الحديث. ولا يقل في هذا عما كتبه روسو. كما برز هيكل في هذا الاسلوب التصويري، وكنتيجة لأثر الطبيعة المصرية، في وصف الحضارة القديمة، وكان ذلك جميعه دافعا لاتجاهه الشديد نحو المصرية[1].

---

(١) السياسة: في ٢٥ و٢٩ ديسمبر ١٩٢٢ و٨ يناير و١٤ فبراير ١٩٢٣- أوقات الفراغ ص٢٤٦ و٢٥١، ٢٥٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هيكل ولطفي السيد :

أتم هيكل دراسته القانونية عام ١٩٠٥ وليس له رأي مكون ـ كما يقول ـ في أمور السياسة ولا في أمور الاجتماع، إلا أنه كان شديد الميل لدراسة الأدب العربي قديمه وحديثه، فقرأ: أمالي القالي، وأغاني الأصفهاني، وأمثال الميداني، والبيان والتبيين للجاحظ، وقرأ كذلك كتاب الأفغاني في الرد على الدهريين، والإسلام والنصرانية للشيخ محمد عبده، وما أن أصدر السيد رشيد رضا تاريخ الاستاذ الإمام حتى أقبل على قراءته وقراءة مقالاته في العروة الوثقى، وتأثر هيكل بطريقة الاستاذ الإمام وبأسلوبه(١). حتى اتصل بالجريدة منذ نشأتها وأخذ يقبل على استاذه أحمد لطفي السيد محرر «الجريدة» ليفتح له آفاقا جديدة من القراءة والفكر، فقرأ «الحرية» لجون ستيوارت مل و«العدل» لسبنسر و«الأبطال» لكارليل و«الثورة الفرنسية» لكارليل أيضاً، هذا إلى كتب في الأدب الأنجليزي أفسحت له كما يقول، آفاقا لم يكن له بها من قبل عهد(٢).

ويلتحق هيكل بمدرسة الحقوق بتوجيه من استاذه لطفي السيد الذي مناه بإكمال دراسته في الخارج إن أراد(٣).

وفي سنة ١٩٠٧ تألف حزب الأمة، وجعل الجريدة لسان حاله، لمديرها لطفي السيد، وقد يسرت له صلة النسب التي تربط بين أسرته وأسرة لطفي السيد أن يزوره في الجريدة، فعرفه بمدير الجريدة إذذاك ـ أحمد عبد القادر ـ الذي شجعه على الكتابة في الجريدة. ونشر له فعلا أول مقال عن «تحرير المرأة» وقد أبدى لطفي السيد تقديره لأسلوب تلميذه وطريقة تفكيره فزاد ذلك في تشجيعه وجعله ينشر في الجريدة ما يكتبه(٤).

---

(١) هيكل: مذكرات ج١، ص٣٢، ٢٨، ٣٤.
(٢، ٣) نفس المرجع ص٢.
(٤) المرجع السابق ص٣٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم تقف صلة هيكل بأستاذه عند الكتابة في الجريدة، بل كان يتردد عليه في سراي البارودي فيجد منه خير استاذ يشرح «في حديث عذب ومنطق دقيق، مبادئ الحرية على ما فهمها أهل القرن التاسع عشر في أوروبا. وكنت أشعر بعطف من جانبه علي لعل مرجعه إلى ما كان بينه وبين والدي من صداقة، جعلت والدي يقف في صفه منذ اللحظة التي أظهر فيها الجريدة ولذلك كان يقدمني لأصدقائه قائلا: «محمد، ابن أخي». وأشهد لقد أفدت من أحاديثه الكثيرة معي، ومن متابعة منطقه الدقيق، فائدة لم أنسها قط، ولن أنساها أبدًا»[1].

ونجد هيكل يسجل هذا الأثر في كتابه «في أوقات الفراغ» الذي أهداه لأستاذه لطفي السيد بقوله:

«لك الفضل الأول في تعليم من أسعدهم الحظ بالاستماع إليك أول شبابهم كيف يقضون أوقات فراغهم يفكرون فيما يعرض من النظريات بسبب عملهم وأثناء أحاديثهم ومطالعاتهم وكنت أنا أحد هؤلاء. ولك كذلك الفضل في أن جعلت «الجريدة» ميدانا لما تمليه القلوب والعقول على الأقلام من ثمرات التفكير في أوقات الفراغ. وكنت أنا ممن أفادهم فضلك هذا بما نشرته في الجريدة أيام كنت أطلب العلم في مصر وفي أوربا وحين كنت محاميا. ولك فوق مالك من الفضل ما يتركه عطفك الأبوي في نفس من عرفك من حب لك وتعلق بك»[2].

ويحصل هيكل على ليسانس الحقوق بعد أن يجتاز مرحلة الدراسة دون تعثر - ويذهب إلى باريس للحصول على الدكتوراه في القانون، ويعود إلى مصر ولما يبلغ الرابعة والعشرين في سنة ١٩١٢ مؤمنا بوطنه وحقه في الاستقلال نتيجة بحث عميق وتمحيص لوجهات النظر، وإحاطة بالعوامل التي

---

(١) هيكل: مذكرات ج١، ص٣٢.

(٢) هيكل: في أوقات الفراغ ص ٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أدت بوطنه إلى الوضع الذي هو فيه. ونرى للطفي السيد في ذلك أثرا واضحا، نتلمسه في:

مدرسة الجريدة والفكر القومي:

أشرنا فيما سبق الى تعرف هيكل بأستاذه لطفي السيد، وصلة القرابة بينهما وتشجيع الاستاذ للتلميذ على الكتابة في الجريدة، وتوجيهه المستمر له في الثقافة والسياسة. وكان من المفروض أن تكون «الجريدة» صحيفة حزبية وحسب، لأنها أول صحيفة تصدر في عهد الاحتلال لتكون لسان حزب الأمة، أول الأحزاب السياسية التي تكونت حينذاك ولكن لطفي السيد جعلها إلى جانب ذلك مدرسة فكرية لها أفكارها ونظرياتها التي تجمع حولها الرواد والأنصار والمؤيدين - وتركت مدرسة الجريدة في جيلها وفي الجيل الذي يليه من الأثر ما لا يقاس إليه أثر أية مدرسة فكرية أخرى سواء كانت هذه المدرسة الفكرية لفرد أو لصحيفة من الصحف أو جماعة من الجماعات. فالجريدة هي التي فلسفت الحركة الدستورية وخرجت بها من حيز الأفكار المجردة والمطالب المحدودة الى حيز المعاني الشاملة للقيم الدستورية وأنظمة الحكومات والعلاقة بين الحكام والمحكومين. والجريدة هي التي فلسفت ايضا حركة الإصلاح العام فأقامتها على قواعد ثابتة من النظريات العلمية وحاجيات المجتمع، والتطور الطبيعي لعملية التقدم والارتقاء، والجريدة هي أول من نادت بتوجيه المدرسة والتعليم اتجاها تربويا يتفق مع تطور المجتمع المصري، ومطالبه، وهي التي رعت حركة تحرير المرأة فخرجت بها من حيز الدعوة إلى حيز العمل والتطبيق، وهي التي أخذت تدل الناس على مواطن الجمال والحياة المتمدنة الراقية في حدود البيئة وتقاليدها والدين وتعاليمه[1].

وهذه المدرسة الفكرية الشامخة التي رادتها الجريدة هي التي خلدتها وجمعت

(١) النجار: الجريدة تاريخ وفن «رسالة دكتوراه» مخطوط.

حولها الأنصار والأعوان الذين ساروا على هديها ودعوا بدعوتها، وكان لهم في نهضة مصر المعاصرة أعظم الأثر[١].

وقد كان من الممكن ألا تترك «الجريدة هذا التأثير الفكري في جيلها والجيل الذي تلاه لو لم يكن محررها لطفي السيد بطبعه رائدا ومعلما أكثر منه صحفيا وسياسيا، فإنا لا نرى صحيفة من الصحف المصرية قبل الحرب العالمية الأولى قد عنيت بالمجتمع المصري عناية الجريدة به»[٢].

ولا نعلم أن أحدا شغل نفسه بتربية هذه الأمة وتعليمها وإرشادها وإصلاح شئونها كما شغل لطفي السيد بذلك منذ قيامه على تحرير الجريدة[٣].

ولا نعرف استاذا راد تلاميذه ورعى خطاهم وأرشدهم كما كان لطفي السيد مع رواده وتلاميذه[٤].

ولا نسمع عن صحفي قد أفسح جريدته للنابهين من ناشئة جيله ما أفسح لطفي السيد من صفحات الجريدة لهذا الشاب النابه الذي التف حوله والذي قدر له فيما بعد أن يقود الحركتين الفكرية والسياسية في تاريخ مصر المعاصرة، ولم يكن هناك منتدى ثقافي تلقى فيه المحاضرات ويسترشد فيه الشباب بأئمة الفكر والقانون والأدب والسياسة والاجتماع كمنتدى الجريدة في تلك السنوات الثمان التي عاشتها[٥].

فالجريدة قد أصبحت مدرسة فكرية لها روادها وتلاميذها وذلك بفضل لطفي السيد الذي خرج بها من النطاق الحزبي الضيق الى آفاق أرحب من التوجيه والإرشاد والتثقيف فأصبح بحق معلم هذا الجيل[٦].

---

(١) النجار: أحمد لطفي السيد ص ٤٠.
(٢، ٣) حمزة: أدب المقالة ج٦، ص١١٧، ١٣٦.
(٤) هيكل: مذكرات ج١، ص٣٢.
(٥) هيكل: مذكرات ج١، ص٣٤.
(٦) حمزة: أدب المقالة ج١، ص٧، ١٣٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأصبحت الجريدة مدرسة الجيل الجديد[1]. وكان من اهتمامه بالجيل الجديد أن كان يستقدم لهم خير المحاضرين في مختلف العلوم فيحاضرونهم في دار الجريدة كما كان لطفي السيد معلما بطبعه، فاستطاع أن يؤلف إليه هذا الشباب النابه فخلدت تعاليمه فيهم، فهم الذين حملوا الشعلة بقيادة مدرسة الجريدة، فلا نذكر اتجاها من الاتجاهات الفكرية والسياسية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية التي اختطتها النهضة المصرية الا وكان للجريدة فضل تقويمها على النهج الذي اختطته والغاية التي تسير نحوها، ولا نذكر سياسيا أو اديبا أو مفكرا او استاذا في الجامعة أو صحفيا ممن برزوا على مسرح الحياة المصرية بعد الحرب العالمية الأولى إلا وكان للطفي السيد فضل توجيهه وإرشاده وتقويمه على النهج الذي سارت فيه النهضة المصرية بعد ذلك[2].

ومن هؤلاء الشباب من اختلفت بهم مسالك الحياة في مختلف ميادينها بعد ذلك إلا أنهم ظلوا جميعا يذكرون فضل الجريدة وتأثيرها عليهم وتوجيه محررها لهم[3].

ومن هؤلاء الشباب الذين تسلموا الراية من بعد: طه حسين، وعبد القادر حمزة، وعبد الرحمن شكري، ومصطفى عبد الرازق، ومحمد توفيق دياب، وعباس العقاد، وابراهيم عبد القادر المازني، وغيرهم.

ويأتي في مقدمة هؤلاء تلميذ الجريدة الأول: محمد حسين هيكل، الذي كان حين صدرت الجريدة طالبا بمدرسة الحقوق، ووجد من رعاية لطفي السيد، ما سبق وتوجيهه ما ظل يذكره حياته. وقد يسرت صلة القربى والجوار تدعيم هذه الصلة، التي جعلت من هيكل اول تلميذ للجريدة وأول

---

(١) أخبار اليوم، في ٨ سبتمبر ١٩٥٦ من مقال لسلامة موسى: «تعلمت من هؤلاء الثلاثة» النجار: نفس المرجع.

(٢) حمزه: أدب المقالة ج١، ص٧.

(٣) هيكل: مذكرات ج١، ص٣٠.

رائد من رواد مذهبها وأقربهم الى روح لطفي السيد وتفكيره، وأشدهم تأثرا به، وقد استمرت الصلة بين هيكل والجريدة خلال إقامته في باريس، فأخذ يراسلها بما يعن له من ملاحظات عما يراه في مدينة النور فيكتب بعنوان: «شهوري الأولى في باريس»[1] يسجل انطباعاته وملاحظاتها. إلا أن كتاباته قلت فلم تكن بالكثرة التي كان يكتب بها في الجريدة قبل سفره إلى باريس، وذلك لأنه كما يقول، كان مشغولا بكتابة مذكراته اليومية عما يراه في باريس[2]. وهي مجموعة ما يجول بخاطره في مسائل معينة كان يبحثها ويدقق فيها ما استطاع.

ولما عاد إلى مصر، كان قد انتهى من «زينب» فنشرها فصولا بالجريدة عام ١٩١٤[3]. وتتصارع في قصة «زينب» أفكار عديدة مما كانت تراود أذهان الشباب في ذلك الوقت، فحركة تحرير المرأة وحقها في اختيار الزوج تبدو واضحة جلية في سياق القصة، بل تكاد تكون الهيكل الذي قامت عليه كما يبدو فيها اتجاه قوي إلى المصرية وإحيائها في الأدب والفن والثقافة. وهذا الشعور هو الذي جعل الكاتب الشاب ينشر قصته بامضاء «مصري فلاح». ذلك أنه كان يخشى - كما كان غيره من الفلاحين يخشى إذذاك - من أبناء الذوات وغيرهم ممن يزعمون لأنفسهم حق حكم مصر ينظرون إلينا - جماعة المصريين وجماعة الفلاحين بغير ما يجب من الاحترام[4].

هيكل في الجريدة:

ويستمر اتصال هيكل بالجريدة حتى تحتجب عن الصدور عام ١٩١٥. وتتعدد على صفحاتها طوال صدورها ألوان نتاجه الفكري فنراه يكتب من

---

(١) الجريدة: في ١٤ ديسمبر ١٩٠٩.
(٢) هيكل: مذكرات ج١، ص٤٢.
(٣) حزة: مستقبل الصحافة ج١ ص٦١.
(٤) المرجع نفسه، ص ٦١، زينب ص ٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحي المؤثرات الثقافية والفكرية التي سيطرت على تفكيره: في الأدب والنقد والسياسة إلا أن اللون الاجتماعي قد غلب على تفكيره ومقالاته في هذه الفترة، كنتيجة لحبه الشديد لأفكار قاسم أمين ومحمدعبده ولطفي السيد.

ومن ذلك ما كتبه بعنوان: «المرأة المصرية»[1] و«المجتمع المصري»[2]، وهو في مقالاته تلك يذهب مذهب مدرسة التجديد في التفكير والأسلوب، وفي هذه المقالات صور كثيرة للمشاهد وللحوادث العامة والخاصة. وهذه الصور مرسومة بدقة أظهرت ملكة التصوير في أسلوبه من بعد: وهي مرصودة بعضها تلو بعض كلما أريد التدليل على رأي من الآراء أو نظرية من النظريات. ويتضح من مقالات هيكل في مرحلة الجريدة أنه يميل إلى الاستقراء. كانت تأخذ بنظره الجزئيات فيبحث عن نظائرها ويجاهد ليكوّن لنفسه رأيا كليا من مجموع هذه الجزئيات. وكان لذلك يحب دائما أن يحلل هذه الجزئيات وأن يقف على دقائقها حتى لا تدعوه الملاحظة السطحية إلى الخطأ.

ولعل الأفكار التي نادى بها قاسم أمين ومحمد عبده في الإصلاح الاجتماعي هي التي عمقت هذا الاستقراء الاجتماعي في مقالات هيكل الأولى، ومن تلك ما كتبه بعنوان «نتيجة الحب»[3]، فنجده يحلل الجزئيات حيث يلاحظ أن الاعتقاد الشائع عن أسباب الفساد في مصر ضعف نفوس الأفراد وانحطاط الأخلاق العامة «ويستقرئ لهذه الجزئية من المشاهد أن «السارق يسرق لأنه لا ثقة له بنفسه وشرفه فيعتمد على اختلاس مال الغير، والسكير يعتقد أنه مهموم بما تحيط به أعماله من الشرور فيسعى في نسيان نفسه ساعة من زمان.. الخ».

---

(١) الجريدة في ٣ مايو ١٩٠٨.
(٢) الجريدة في ٣ أغسطس ١٩٠٩.
(٣) الجريدة: في ٢٢ مارس ١٩٠٩.

ثم يرتب هيكل على هذه الجزئيات نتيجة أن الفساد يرجع إلى « فقد ثقة الفرد بالفرد والاعتقاد الساري في النفوس اصغار أمر حب الإنسان للإنسان وامتهانه». ويرجع « الحجاب » إلى « فقدان الثقة » هذا، ويذهب إلى أن « عادة الحجاب عندنا تقف جسرا منيعا بين الرجال والنساء وتكاد تدل على أن رجالنا ونساءنا من الخسة بحيث لا يستطيع أحدهم أن يفكر إلا في الدنيا. إذا كان العالم يضج من السجون بالنسبة للأشقياء ويحسها مجلبة للفساد فكيف تكون حال المرأة البريئة فيها.. الخ »[1] ويستخلص من ذلك كله أن « الحب وسيلة من أحسن الوسائل لتماسك الأفراد وإرسال القوة في روح الأمة كما أنها خير منق للنفس من شرور الرذيلة يرفعها إلى مكان من العزة والاباء »[2].

وفي مقال آخر يستقرئ جانبا من جوانب المشكلة الاجتماعية[3]، ويذهب إلى أن « الاستبداد يفسد ذوق الأمة في تقدير العاملين بعض الشيء لما ينميه في عواطفها من النظر للحكومة بكل تحرز وتحفظ وأنها وجدت للضغط عليها وعدم تقديرها مركزها ».

وهيكل في الجريدة يسير في مرحلة التكوين والدربة، على خطة استاذه لطفي السيد، وفي اتجاهات تفكيره، ذلك أن لطفي السيد توجه بالجريدة الى الفرد رجلا كان أو امرأة، والى الأخلاق الشخصية للأفراد والأخلاق العامة للجماعات، ثم إلى الأسرة المصرية في المدينة أو القرية، ثم إلى المجتمع المصري كله كوحدة مستقلة، ثم إلى الأداة التي تتولى حكم هذا المجتمع المعقد التركيب وهي الحكومة، فكان من الطبيعي أن يوجه هيكل عنايته - مع استاذه في أثناء ذلك - إلى المشكلات التي تواجهها الأمة المصرية والمعاني التي يجب أن تتعلمها حتى تضمن لنفسها الرقي المطرد.

وقد جاءت مقالة « الإخلاص والثقة » لهيكل مشاركة فيما بدأته الجريدة

(١، ٢) الجريدة في ٢٢ مارس ١٩٠٩.

(٣) الجريدة: في ٢٢ ابريل ١٩٠٩.

بالأداة الحكومية التي هي على رأس المجتمع المصري، فساءها أولا: أنها أداة تتألف من قطع لا يقع التجانس بينها، وثانيا: افتقاد الثقة في موظف الحكومة[١]. وفي هذا يقول هيكل في مقاله: «تسوق فكرة سوء الظن وعدم الإخلاص إلى أسوأ النتائج على الفرد وعلى الجماعة. ها هم أعضاء شورى القوانين الذين وافقوا الحكومة على ابقاء قانون الصحافة يقدمون لنا مثلا لكل ما قدمناه. برهنوا لنا على أن أخلاقهم الشخصية لم تصف بعد من الاستبداد وأن عروقهم لا يزال دمها متأثرًا بما كان يتأثر به أيام شبابهم فهم يترددون كثيرا في إخلاص كتابنا فيما يكتبون. كذلك هم لا يثقون بقضاة بلادهم المنوط بهم تطبيق قانون العقوبات، كما لا يثقون بما في صدر بني جلدتهم من الحمية التي تدفعها لطلب عقاب المسيء. هم لا يثقون إلا بالحكومة الشخصية المطلقة التي تنذر متى رأت للإنذار عملا. أي متى انتقدتها الجرائد انتقادا بالحق لأن الباطل قليل الأثر دائما يثقون بحكومة هي إزاء قانون الصحافة أشبه شيء بالمحكمة الخصوصية.

«عدم الثقة بالغير إذا ذهب به صاحبه الى حد كبير كما ذهب أعضاء الشورى عندنا دل على ضعف نفس صاحبه أكبر دلالة انما يدل على رجولية الإنسان وعدم اكتراثه بالحوادث إلا بالقدر الذي يعد لها في الطريق الذي يريد، فإذا كانت حكوماتنا أرادت بقانون الصحافة كَمَّ أفواه الناس خوف اندفاع سيل الحرية الجارف الذي يكتسحها في طريقه فأي شيء خاف أعضاء الشورى عندنا وأي ضمانة سحبوها لأنفسهم في قانون المطبوعات»[٢].

«... من أجل أن يكون الرجل رجلا يجب أن يكون له بنفسه ثقة أولا. يجب أن يقول إني أرى كذا لأني بعد تقدير المصلحة العامة وما يفيد الحرية العامة رأيت الواجب أن يكون هنالك مخلِّص ويستحق ثقة العالم أجمع»[٣].

---

(١) حمزة: أدب المقالة ج٦، ص١١٨- مقالة: «حفت الجنة بالمكاره» للطفي السيد نشرت في الجريدة في ٩ يولية ١٩٠٨ ناقش فيها نفس الموضوع مؤكدا على مشكلة «التقة» كدلك.

(٢، ٣) الجريدة في ٢٢ ابريل ١٩٠٩.

ولم تقف عناية هيكل في الجريدة بالمجتمع المصري عند هذا الحد. بل تجاوزه إلى أمرين آخرين منحهما كذلك من العناية ما منحتهما الجريدة ولطفي السيد. وهذان الأمران هما: حرية المرأة من جهة، والعطف على الفلاحين والعمال من جهة ثانية. على أن حرية المرأة قد شغلت من تفكير هيكل وكتاباته بالجريدة حيزا كبيرا، ومن أجل هذا الموضوع تحدث كثيرا عن قاسم أمين، وأشاد بجهوده وتابعها من بعد. وكان ذلك جميعا مدعاة للتفكير في نظام الأسرة المصرية، وعلاج العيوب الاجتماعية التي ترتبت على فقدان حرية المرأة، ومن تلك العيوب مشكلة «تعدد الزوجات»[1]. يقول: «محال أن يجتمع مع تعدد الزوجات ذلك الإحساس بالواجب، أن يكون في نفس الرجل لزوجته أو في نفس المرأة لزوجها من إخلاص وحب وانعطاف حقيقي. ومهما يكن فيما بينهما من الروابط من دواعي ذلك الإحساس فإن الرجل الذي يرضى عن نفسه أن يتزوج بثانية يهجر من يوم يفكر في هذا الأمر صفات كثيرة من صفات الإنسانية. يظهر بعزمه هذا احتقاره لزوجته كما يجيء إلى بيته بامرأة جامدة الإحساس توافق على التزوج من شخص تعلم أنه حنث في عهده لامرأة من قبلها. تدخل بيته وهي توقن أكبر اليقين أنها تجبر الرجل على المحاباة وتعلم صفات الخداع والكذب... الخ» إلى أن يقول:

«هذا الداء الذي يتفشى في مفاصل الأمة اليوم لا مبرر له من دين، أو علم أو خلق ولا أساس له إلا الشهوات والأطماع الفاسدة. وليس في منعه ما يعارض قانونا او يمس نظاما ولكن منعه فيه كل الخير، فيه، أن يرجع الناس خطوة أوغلوا بها في الشر ليسيروا في الطريق الطبيعي المستقيم»[2].

ولا عجب أن يذهب هيكل هذا المذهب في النظر إلى المجتمع المصري، فهيكل يعتقد أن العواطف هي التي تسير أعمالنا في الحياة، وأن العناية بها أثناء

---

(١) الجريدة في ٢٢ يونيو ١٩٠٩.

(٢) المرجع نفسه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطفولة وتربيتها تربية عالية هي التي ترفع الشخص من المستوى الوضيع الذي لا يهتم فيه إلا بمصالح الجسد ليعرف للروح مصالحها ويهتم بغذائها ويجاهد لرفعها لفائدة الجماعة ولفائدة الوطن ولفائدة الإنسانية، وهو في ذلك يتفق مع قاسم أمين في أن السبب في التأخر والانحطاط الذي كان يشاهد يومئذٍ في بعض بلاد الشرق ليس راجعا فقط إلى توالي الكوارث والمصائب على هذه البلاد[1]. يقول هيكل:

« إنما يظهر تماسك الأمة وتتجلى قوتها إذا سعت في إبطال بدعة أو عملت للقضاء على شر ينخر في عظامها. وإذا كان بعض ما تريده الأمة مما هي متفقة في المطالبة به في يد الحكومة، وعذرها في عدم الحصول عليه أن الحكومة لا تعطي. فها هي العادات تغير فيها وتبدل على ما تشاء. وها هي الأدواء الاجتماعية تحتاج إلى السعي والمجاهدة لاجتثاثها من أصولها واقتلاعها حتى لا يبقى لها أثر ولا تحتاج الأمة إلى قانون تسنه الحكومة أو ضريبة تفرضها ولكنها تحتاج إلى عزيمة ماضية وحمية تحثها على العمل لخيرها »[2].

ولعل هيكل من أجل ذلك اتجه في كتابته إلى علاج المشكلات الخلقية، وتدعيم تربية الفضائل في المجتمع، وهو لذلك يتلمس مقياسا « لقيمة الحياة »[3]، تقدر به قيمة حياة كل فرد من الأفراد، فيتوصل إلى أن الصفات المتفق عليها هي التي تدخل في هذا التقدير. ويرجع بها إلى مصدرها الأول ومستقرها القديم، فيجده ثابتا لم يتغير كامنا في النفس كمون الحياة لا تلعب به يد الدهر. « ذلك الأصل الذي تصدر عنه كل الفضائل وإليه المرجع في تقديره هو « الحرية الشخصية ». وبالقدر الذي يمكن تطبيق أعمال الفرد معه على هذه الحرية تعلو قيمة حياته أو تنحط. فإذا جاءت الدرجة التي يكون

(١) هيكل: في أوقات الفراغ ص١٣٧.
(٢) الجريدة: في ٢٢ يونيو ١٩٠٩.
(٣) الجريدة: في أول يوليو ١٩٠٩.

الفرد فيها لا حرية عنده فحياته لا قيمة لها مطلقا». وهو يقيد هذه «الحرية» دائما بصالح «الأمة» و«المجموع». يقول: «أمتنا تحتاج عملا كثيرا جدا لترجع إلى مركزها الطبيعي الذي أبعدها عند الاستبداد والقسر. وليس عندنا ملكة من ملكات الأمة الا وهي في شدة الحاجة إلى العمل لإصلاح أمرها وبغير هذا العمل تكون قيمة أمتنا ليست بالقيمة الغالية التي يصح أن تفتخر بها حيث كنا من بقاع الأرض»[1].

على أن هيكل لم يكن كثير الكتابة في الجانب السياسي، بالقدر الذي رأيناه في الجانب الاجتماعي، ولا يعني ذلك أن الاهتمامات السياسية لهيكل كونت أقل في الدرجة من الاهتمامات الاجتماعية وإنما يرجع ذلك - فيما نرجح - إلى اعتقاد مدرسة الجريدة في أن «تربية الأمة» هي الوسيلة الحقيقة للاستقلال.

ونذكر في هذا الصدد، من كتابات هيكل السياسية في الجريدة، ما قام به «كمراسل» لها من بروكسل، وذلك أثناء وجوده في باريس، إذ أن الحزب الوطني برياسة محمد فريد كان يهيّئ لإقامة مؤتمر سياسي مصري في باريس، تلقى فيه خطب تنير الرأي العام الأوربي عن الحالة في مصر. ويعجب هيكل[2] من أن حكومة الجمهورية الفرنسية، التي تؤمن بالحرية وتقدسها منعت عقد هذا المؤتمر في العاصمة الفرنسية مجاملة منها لانجلترا، فرأى محمد فريد عقده في بروكسل عاصمة البلجيك. وطلب إلى هيكل أن يسافر إلى هناك وأن يمثل الجريدة، ويوافيها بما يحدث.

ويذكر هيكل أنه شهد بهذه العاصمة منظرا أثر في نفسه، ذلك أن أول يوم من أيام المؤتمر صادف عيد الاستقلال البلجيكي. «وكان طريقنا إلى مكان المؤتمر بميدان الاستقلال، حيث احتشد الناس يشهدون العرض

---

(١) الجريدة: في أول يوليو ١٩٠٩.

(٢) هيكل: مذكرات ج١، ص٤٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العسكري، وحيث صفت في شرفات الميدان مئات بل ألوف من أبناء بلجيكا وبناتها ينشدون النشيد الوطني. وكان معنا يومئذٍ عثمان بك غالب، ذلك العالم الفاضل الذي كان استاذا بمدرسة الطب سنوات عدة ثم استقال وأقام بباريس شيخا أحالت السنون سواد شعره بياضا مهيبا، تركت على محياه غضونا تحدث عن ماضيه الجليل. وجاء موقفي بميدان الاستقلال إلى جانب عثمان بك. فلما بلغ الشبان والفتيات من نشيد الاستقلال عباراته الحماسية، رأيت الرجل المصري الشيخ تنهلّ من عينيه عبرات تنحدر من بين غضون وجهه. فلما فرغ أبناء البلجيك من نشيدهم سألته: ما باله؟ فكان جوابه: « انني أبكي لأنني لا أرجو أن أعيش حتى أرى مصر تحتفل مثل هذا الاحتفال بحريتها واستقلالها » وقد ترك هذا المنظر كله وهذه العبارة من فم ذلك الشيخ الجليل، أثرا في نفسي لا تمحوه الأيام »[1].

ويذكر هيكل ايضا أن المصريين في باريس والمنتسبين منهم للحزب الوطني شكروه على ما نشره في الجريدة عن المؤتمر « فقد كانوا يظنون أن ما أخالفهم فيه من رأي سيظهر أثره فيما أكتب فلما قرأوه ورأوني أسمو بالشئون الوطنية العامة عن المنازعات الحزبية، وأرى المصريين خارج بلادهم لا أحزاب بينهم، قدروا هذا الموقف الذي رأيته أنا طبيعيا، ورآه كثيرون سموا بالخصومة عن مواقف لا تحتمل الخصومة. والواقع أنني من ذلك العهد، عهد الشباب الأول كنت أرى أن الخلاف في الرأي ليس معناه الخصومة، وأن خدمة الوطن ينفسح فيها المجال لكل رأي ولكل عمل، وأننا إذا استطعنا أن ينهض كل منا بما يعتقد أنه الخير لوطنه كان في ذلك أجل الخدمة لهذا الوطن، وأن اتقان الإنسان عمله الخاص الذي لا يتصل بالتفكير السياسي في قليل ولا في كثير يخدم الوطن كذلك، لأن الوطن ليس أرضا وماء وسماء وكفى، بل هو أولا وقبل كل شيء مؤلف من أبنائه على تعاقب أجيالهم، ومن أعمال كل

---

(١) هيكل: مذكرات ج١، ص٤٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واحد من هؤلاء الأبناء طيلة حياته »[١].

وقد بينت رسائل هيكل الى الجريدة من بروكسل تطور اتجاهات الحركة الوطنية لاضفاء الصبغة الدولية على المسألة المصرية، وتبدو قيمة هذه الإضافة في جانبين:

أولها: أن انتقال الحركة الوطنية من مرحلة الجهود الفردية إلى مرحلة الجهود الجماعية ممثلة في قيام الأحزاب قد انسحب أثره على طبيعة هذه الحركة في الميدان الدولي.

ثانيها: أنه بعد أن كانت الحركة الوطنية في هذا الميدان في فترة ما قبل قيام الأحزاب تعتمد أساسا على استغلال الخلافات بين الدول لاسماع صوتها إلى أوربا. كما حدث في اعتمادها على الخلاف بين فرنسا وبريطانيا وبالتالي وطدت صلاتها برجال الحزب الاستعماري في باريس تحولت في المرحلة التالية إلى الاعتماد على علاقات « اتفاق المبدأ » فأخذت في توطيد روابطها مع أصحاب الاتجاهات اليسارية في مجلس العموم البريطاني أعداء الاتجاه الاستعماري[٢].

وقد وقف هيكل ايضا موقف المعارضة وهو في باريس، من مشروع مد امتياز قناة السويس، الذي عارضته الصحف المصرية[٣]. وأرغمت الحكومة

---

(١) هيكل: مدكرات ج ١ ص ٤٤.

(٢) فممن لبوا الدعوة لحضور مؤتمر بروكسل عدد من الراديكاليين من أعضاء البرلمانات الأوربية مثل كيرهاردي زعيم حزب العمال البريطاني ومسيو فيرغوند العضو الاشتراكي في البرلمان البلجيكي وغيرهم من الأعضاء البرلمانيين البلجيك والألمان. كما وصلت المؤتمر عدة رسائل سياسية بالغة الأهمية منها رسالة من ثوري هندي معروف هو المستر كريشنا فارما الدي اقترح إنشاء جائزة أدبية تمجيدا لذكرى الورداني. وخطاب من المستر ديلون يعد فيه بمعونة البرلمان الايرلندي، للحركة الوطنية المصري. ورسالة من المستر بلانت يطلب فيها مقاطعة البضائع الانجليزية في مصر.

(٣) مقالات لطفي السيد ـ يطالب بذلك في الجريدة يوميا من ٢٦/١٠ إلى ٤/١١ ثم قرار اللجنة الإدارية للحزب الوطني في نفس اليوم، وتقديمه طلبا رسميا بذلك إلى الخديو ورئيس النظار ورئيس الجمعية العمومية (الجريدة واللواء في ٢٩،٣٠/ ١٠/ ١٩٠٩).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الموافقة على عرض مسألة مد امتياز قناة السويس على الجمعية العمومية.

يقول هيكل: «ان مصر اهتمت واهتم المصريون الشبان المقيمون بباريس بهذا الأمر أشد الاهتمام»، فقد كان حفر قناة السويس، على أنه عمل إنساني وهندسي جليل، مجلبة المتاعب لمصر منذ اليوم الأول، ولم يكن يغيب عن أحد يومئذٍ أن وجود القناة هو الذي أتاح للانجليز التدخل في شئون مصر، وهو الذي عاونهم على دخول مصر من القناة واحتلالهم إياها، وان مصر لا تفيد من القناة شيئا، وأن ما يقال من أن مد الامتياز يجعل لمصر حصة في أرباح الشركة - كل ذلك لا يوازي استمرار المتاعب التي رأتها مصر وظلت خاضعة لآثارها عشرات السنين»[١].

ويذكر هيكل أن هذه المسألة قد أثارت اهتمام الطلبة في باريس، وقد رأوا أن يكون لهم رأي جماعي فيه، فأبلغوا رئيس الجمعية العمومية والصحف المصرية قرارهم برفض مد امتياز القناة[٢].

وفي صيف ١٩١١، وقع حادث دولي كان له في مصر دوي عظيم وفي السياسة المصرية أثر بالغ، فقد أعلنت ايطاليا الحرب على تركيا في برقة وفي طرابلس الغرب، وكانتا يومئذٍ ولايتين تركيتين تحكمهما السلطة العثمانية حكما مباشرا.

ويكتب لطفي السيد في الجريدة ثلاث مقالات في ثلاثة أيام متعاقبة عنوانها جميعا: «سياسة المنافع لا سياسة العواطف» يدعو فيها المصريين إلى التزام الحياد المطلق في هذه الحرب الإيطالية التركية، وإلى الضن بأموالهم أن تُبَعْثَرَ في سبيل قل ما تفيد بلادهم منه ويذكرهم بأن من الخير أن يبذلوا هذه الأموال لخير مصر ولإنشاء المرافق المصرية النافعة لأبناء الوطن.

وتثير هذه المقالات الثلاثة على لطفي السيد عاصفة هوجاء من نقد مر

(١، ٢) هيكل: مذكرات ج١، ص٤٥.

و« طعن جارح » فاضطر إلى الانسحاب من الميدان وإلى السفر إلى « برقين » وترك الجريدة يتولى أمرها غيره من محرريها[١].

وطلب من هيكل أن يتولى كتابة المقالات السياسية في الجريدة أثناء انقطاع لطفي السيد عنها « مع مراعاة ميول الرأي العام، وموقف الحزب »[٢]. وقبل هيكل هذا الموقف « قضاء لبعض ما لإستاذه عليه من حق »[٣]. فجعل يكتب المقالات الافتتاحية للجريدة، تاركا الكلام عن وقوف مصر موقف الحياد ساخرا من ايطاليا التي اعتبرت غزو « برقة » و« طرابلس » نزعة بحرية، فلما نزلت إلى الأرض لقيت من المقاومة ومن الهزائم ما جعل من هذه النزعة وبالا عليها[٤].

« وما كان أشد اغتباط رجال الجريدة ورجال حزب الأمة بهذا الموقف الذي وقفته. والذي أنجاهم وأنجى الجريدة من سخط الرأي العام، من غير أن نخالف ما دعا إليه لطفي بك في كثير ولا قليل »[٥].

وحين تعلن الحرب الأولى في سنة ١٩١٤، يكتب هيكل في الجريدة سلسلة مقالات جعل عنوانها: « الحرب الحاضرة وآثارها ». وكان أساس الفكرة في هذه المقالات يكاد يكون ردا على انجلترا. فقد كانت دعواها أنها دخلت الحرب لأن ألمانيا أخلت بالمعاهدات الدولية التي قال عنها مستشارها الأول بتمان هلفيج أنها قصاصات ورق ولذلك خرقت حياد بلجيكا مع أنها كانت من الدول التي وقعت معاهدة هذا الحياد، وقد ألقى سير ادوارد جراي خطابا يسوغ دخول انجلترا الحرب دفاعا عن حرمة المعاهدات « غاية في البلاغة ودقة المنطق ». ويذهب هيكل في مقالاته غير هذا المذهب فيقول: « إن السبب الحقيقي في الحرب اقتصادي بحت، فقد استأثرت انجلترا وفرنسا أو كادتا تستأثران باستعمار أفريقيا وآسيا، وقد أقامتا خطتها إزاء ألمانيا على

(١) هيكل: مذكرات ج١، ص٥١.

(٢، ٣، ٤، ٥) المرجع نفسه ص ٥١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أساس التطويق، فعقدتا معاهدات مع روسيا ومع بعض الدول الأخرى حتى لا تخرج ألمانيا من دائرة البلطيق. وقد حملتا ايطاليا على أن تقف في صفهما بأن أعلنتا أن لها بحق الفتح أن تستولي على برقة وطرابلس في افريقيا. وبرقة وطرابلس واقعتان بين مصر التي تحتلها انجلترا وتونس الواقعة تحت نفوذ فرنسا وحكمها. وقد ذهبت ألمانيا الى تقوية نفسها حربيا. ثم بدأت فكرة الاشتراكية تندس إليها وتهدد النظام القائم فيها، فلم يكن للامبراطور غليوم الألماني الا أن يثير هذه الحرب ليعرف الألمان عن هذه الاشتراكية التي يخشى خطرها، وليجد في الحرب وسيلة لتوسع خارجي يمكن له ولأسرته. هذه الأسباب الاقتصادية هي التي أثارت الحرب. وسيكون من نتيجة هذه الحرب أن تزعزع أركان المدنية الأوربية المتحكمة في العالم، وأن تنقل الحضارة من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى حوض الأطلنطي أو الباسفيكي، وبذلك تتيح لأمم الشرق فرصة للتحرر من العبودية التي فرضت عليها »[1].

وحين تتقدم الحرب وتدخل تركيا الحرب بالفعل، نشرت « المقطم » مقالا بعنوان: « أهل مصر والتغيير المنتظر » تمهيدا للسياسة التي قررتها انجلترا. في نفس الوقت الذي اشتدت فيه الرقابة على الصحف، فخضعت مادتها لسطوة الأحكام العرفية.

ولكن هيكل يكتب مقالا بالعنوان نفسه يفند فيه دعوى المقطم ويصاب مقاله بقلم الرقيب الذي ترك أثره واضحا في كل الصحف الوطنية في ذلك البياض الكثير الذي كان يتخلف عما يحذفه من مواد الصحف التي كانت السلطات ترى عدم السماح بنشرها، فينشر عنوان مقال هيكل وامضاؤه ويترك مكان المقال « على بياض »[2].

وهذه المقالات التي كتبها هيكل في الجريدة في الاتجاهين الاجتماعي

---

(١) هيكل: مذكرات ج١، ٨.

(٢) نفس المرجع ص٧١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والسياسي مكتوبة بتلك اللغة الرشيقة التي لاحظناها فيما أوردنا من مقتطفات، تبين بوضوح وجلاء طريقة تفكير هيكل وتحكم العاطفة فيه وتأثير إحساسه الشديد عليه في هذه المرحلة.

هيكل في عالم السياسة:

صحبنا هيكل في نشاطه الصحفي بعد تخرجه في مدرسة الحقوق وحصوله على درجة الدكتوراه في القانون من باريس وعودته إلى مصر، وكتاباته في الجريدة. واشتغاله بالمحاماة حيث افتتح له مكتبا بالمنصورة. ولا تثنيه شواغل المحاماة وواجباتها عن قراءاته المتصلة في الفلسفة والتاريخ والسياسة، بل إنه ليعطي من نفسه هذه الألوان من القراءة أكثر مما يعطي منها لقراءاته القانونية، وتندبه الجامعة محاضرا بمدرسة الحقوق إلى جانب عمله في المحاماة. وتمر الأيام سراعا وهيكل مقبل على عمله في المحاماة لا يعوقه العمل عن متابعة كتاباته في الجريدة حتى تشب الحرب العالمية الأولى وتعلن الحماية البريطانية على مصر وتخضع الصحف للأحكام العسكرية وتفرض الرقابة على المطبوعات ويعطل الكتاب السياسيون صحفهم واحدة بعد الأخرى وتحتجب الجريدة بدورها في سنة ١٩١٥.

والآن نتحدث عن نشاطه السياسي ليتسنى لنا الوقوف على مقوماته الشخصية بصورة مكتملة، لأنه يرى «أنه أدى بكتاباته السياسية خدمة لوطنه أسرع انتاجا من الخدمة التي أداها له بكتاباته الأدبية. مع يقينه بأن هذه الكتابات الأدبية أعمق أثرا وأنقى ذكرا. فليس من شك في أن الوطن محتاج في ظروفه الخاصة المعروفة إلى مجهودات ضخمة من كل قادر عليها. وان ضميره - مطمئن إلى أنه أدى هذه الخدمة غير مبتغ عليها جزاء ولا شكورا»[١].

---

(١) من حديث مع الدكتور هيكل أجرته مجلة الهلال: نوفمبر ١٩٥٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت سنوات الجريدة، سنوات الإعداد والتكوين في جيل هيكل، تلتها حرب قاسية تطحن زهرة شباب العالم طحنا لم تشهده البشرية من قبل. ومصر تخضع لظروف الحرب التي فرضت عليها فرضا، والسلطة العسكرية تأخذ الناس أخذا لم يكن لهم به عهد، وسيف الرقابة مسلط على الفكر. وهذا الشباب لا يجد متنفسا لحيويته إلا أن يعد نفسه للساعة التي تعود فيها الأمور إلى مجاريها الطبيعية. وهم يتلاقون ويتناقشون ويبحثون عن أمور وطنهم ما يجدون بحثه فرضا عليهم، ويتتبعون من أخبار الحرب الدائرة ما يظنون في تتبعه بعض الأمل لكربة هذا الوطن. فإذا نشرت شروط الدكتور ولسن للسلام، يجد البعض فيما نصت عليه من حق تقرير المصير أملا في خروج الانجليز من مصر وتحقيق الجلاء، ويشك هيكل في صدق رجال السياسة، ويرى «أن الساسة البريطانيين بما عرف عنهم من دهاء سيجدون لهذه الشروط الأربعة عشر شتى التأويلات والتفسيرات» ولن يصدق «أن الولايات المتحدة تحارب انجلترا لتحملها على الجلاء من مصر»[1].

كان هذا التفكير بعض أصالة السياسي الذي يحكم العقل والمنطق ولا يذهب مع العاطفة أي مذهب ـ كما يقول الدكتور النجار[2]ـ وكان هذا أيضا بعض تأثير مدرسة الجريدة عليه، فقد كانت دعوة الجريدة يرددها لطفي السيد طوال صدورها أن مصر لن تحقق استقلالها الا بجهود بنيها، أما أن «نطلب استقلالنا من أوربا أو من أنجلترا أو من الباب العالي فلن يصل بنا الطلب إلى غاية ما لم نحمل الى الغاية بأنفسنا ويكون تحقيق استقلالنا هو ثمن كفاحنا وثمن جهدنا في بناء هذا الوطن بناء يقوم به أبناء هذا الوطن أنفسهم»[3].

ويتصل هذا الشك في نفس هيكل حين يتكون الوفد المصري ويزمع السفر

---

(١) هيكل: مذكرات ج١، ص٧٧.

(٢) من كلمته بكتاب «الدكتور محمد حسين هيكل» ص٢٨.

(٣) حمزة: أدب المقالة ج٦، ص٢١٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى باريس للمطالبة بحق تقرير المصير لمصر والسودان أمام مؤتمر السلام، ويتساءل: هل رسم الوفد خطته للعمل إذا ما جانبه التوفيق في تحقيق ما أراد لمصر من استقلال وسيادة(١).

ويسأل استاذه لطفي السيد في ذلك، ويصارح الاستاذ تلميذه بأن الوفد يذهب إلى باريس لعرض قضية مصر على مؤتمر السلام فان أجيب إلى مطلبه كان ذلك ما يبغي والا فليذهب حسين رشدي وعدلي يكن إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية في تنظيم العلاقة بين البلدين في حدود الحماية تنظيما أساسه قيام الحكم الدستوري الصحيح في البلاد(٢).

وتترك هذه الإجابة أثرا في نفس التلميذ، فالوفد إذن يريد أن يذهب إلى باريس ليحاج الحلفاء بمبادئهم. وهو مع ذلك ليس مؤمنًا كل الإيمان بان هؤلاء الحلفاء مقتنعون بهذه المبادئ، وكل ما يرجوه الوفد أن تنظم علاقة مصر بانجلترا في حدود الاعتراف لمصر بالاستقلال الذاتي. وهذا نفسه ما كان ينادي به لطفي السيد من قبل، وظل يدعو إليه طوال صدور الجريدة. وكان هيكل أكثر ميلا لتفكير مدرسة الجريدة، فإذا سارت الأمور في هذا المجرى الذي يظن أنها سائرة فيه لا محالة فإنه ولا ريب سيكون أول الداعين إلى تنظيم العلاقة بين مصر وانجلترا تنظيما يحقق أوفى قسط من الاستقلال لبلاده(٣).

شعر هيكل بأن على جيله واجبا يتحتم أداؤه للوطن، ويتفق الرأي على تكوين حزب أسموه «الحزب الديمقراطي» يضم عدا هيكل، مصطفى عبد الرازق، ومنصور فهمي، ومحمود عزمي، وعزيز ميرهم ووضعوا له برنامجا عاما وفق ما يرونه محققا لآرائهم ومصلحة وطنهم(٤).

---

(١) هيكل: مذكرات ج١، ص٨٢.

(٢، ٣) نفس المرجع ص٨٢، ٨٣.

(٤) المرجع السابق ص٨١.

نشأ الحزب الديمقراطي في الجو السياسي الذي بعثته الثورة المصرية، والطريف أن عزيز ميرهم عمل على توجيه «الحزب» نحو الاشتراكية، بينما عمل هيكل على توجيهه نحو الفردية. واختلف الرجلان اختلافا كاد يفضي الى حل الحزب، لولا تدخل مصطفى عبد الرازق، الذي سأل هيكل، أفأنت تضن على الفقراء في حقهم في التعليم والتداوي والعيش عيشا إنسانيا؟ وأجاب هيكل بطبيعة الحال: أن لا.. ثم سأل عزيز ميرهم: وهل أنت تريد الغاء الملكية الخاصة في مصر حالا؟ فقال: أن لا. قال مصطفى عبد الرازق: أمامكما إذن ميدان فسيح مشترك تستطيعان العمل فيه متفقين فإذا جاء اليوم الذي لا مفر فيه من اختلافكما - ولا أحسبه يجيء قبل سنوات طويلة - نظرنا جميعا في الأمر وفصلنا فيه بما يقضي به الحال حينئذٍ وأنقذ مصطفى عبد الرازق «الحزب»[1].

ويبين من هذه الواقعة ميل هيكل الشديد إلى الليبرالية، وهو الأمر الذي وجدناه في معتقده السياسي الذي لخصناه في تطويع النظرية الفردية للطبيعة المصرية أو ما اسميناه بالديمقراطية المصرية التي تفسح الميدان مشتركا للاتجاهين الاشتراكي والفردي والذي عبر عنه مصطفى عبد الرازق تعبيرا أنقذ «الحزب» الشاب من الانهيار.

على أنهم في طموح الشباب أرادوا أن يكون لهم ممثل في الوفد المصري الذي تألف برياسة سعد زغلول، ولكن الوفد المصري رفض أن يشرك أحدا منهم في عضويته[2].

وما تلبث الثورة أن تشتعل في أنحاء مصر، ويقبل الزعماء الدخول في مفاوضات ويقع الخلاف في صفوف الوفد وتنقسم البلاد إلى «سعديين» هم الكثرة و«عدليين» هم القلة وينتقل هذا الانقسام بدوره إلى الحزب

---

(١) هيكل: مذكرات ج١، ص٨١.

(٢) نفس المرجع ص٨١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الديمقراطي فيكون من بينهم أنصار لسعد وأنصار لعدلي[١].

وما تلبث الأمور أن تؤدي إلى خلق حزبين سياسيين في مصر، الأول حزب الأحرار الدستوريين برياسة عدلي يكن، والثاني حزب الوفد برئاسة سعد زغلول.

ويتولى هيكل تحرير جريدة «السياسة» لسان حال حزب الأحرار الدستوريين من أول صدورها في ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٢[٢].

يمكن القول إذن أن لطفي السيد كان يهيئ تلميذه ليكون خليفته في الصحافة والسياسة، ويبدو أن الذي رشح هيكل لتولي رئاسة تحرير «السياسة» كان هو لطفي السيد، فقد كان أول من أسر إليه بهذا الخبر ولما يتكون الحزب ولما تصدر السياسة[٣].

وحمل هيكل أعباء تحرير السياسة ورصيفتها «السياسة الاسبوعية» حتى انتقل من منصب رئيس التحرير الى منصب الوزارة فكان وزيرا للدولة فوزيرا للمعارف في وزارة محمد محمود الثانية التي شكلت في ٣١ ديسمبر ١٩٣٧ وكان لطفي السيد من أعضائها وزيرا للدولة أيضًا[٤]. فاجتمع بذلك الاستاذ والتلميذ معا في وزارة واحدة كما اجتمعا من قبل في ميدان الصحافة.

على أن هيكل كان راضيا كل الرضى عما أحرز في الصحافة السياسية، يدلنا على ذلك أن عمله في الصحافة كان العمل الذي أرخه تأريخا مفصلا في مذكراته، وأن الجانب السياسي من التاريخ المعاصر كان الجانب الذي عني به حقا في مذكراته، وعنوانها «مذكرات في السياسة المصرية».

كما أننا نلمس في شخصية هيكل آثارا من العمل السياسي في الصحافة لا

---

(١) هيكل: مذكرات ج ١ ص ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥.

(٢، ٣) المرجع السابق ص١٤٩.

(٤) هيكل: مذكرات ج٢، ص٦١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نستطيع إلا أن نلحظها . يقول هيكل :

« وبين نظرة الصحفي وبين نظرة الوزير أو رئيس الشيوخ للحوادث فرق كبير يجعل النظرتين تختلفان اختلافا كبيرا ، فالصحفي ناقد يجلس في شرفات المتفرجين ليرى ما يقع على مسرح الحوادث ويبدي رأيه فيه معارضة أو تأييدا . أما الوزير ورئيس الحزب ورئيس الشيوخ فيقف على هذا المسرح ليكون موضع نقد الصحفي وحكمه ، وشتان بين الموقفين ، صحيح أن الصحفي كالناقد ، ليس أيهما متفرجا عاديا ، وليس أيهما لذلك متأثرا ذاتيا بما يقع على المسرح كسائر المتفرجين وكفى ، بل هما يؤثران بما يكتبان عن طريق الرأي العام في أعمال الوزراء والمسئولين على اختلاف اتجاهاتهم تأثيرا مباشرا ، وذلك ما جعل كثيرين من الكتاب الدستوريين يصفون الصحافة بأنها سلطة رابعة في الدولة لها من النفوذ في الشئون العامة ما للسلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية . والصحفي كالناقد في الأدب أو في العلم ، إلا أنه يتعرض للشئون العامة جميعها ، وهو كالناقد وكالمتفرج يقف دائما على مسافة من المسرح ، ولا يزج بنفسه في غمارها ، وهو إن قارب المسئولين ليؤيدهم فيما يقتنع بوجه الحق فيه أو ليصد عنهم صولة المعارضة إن هي بالغت أو تنكبت سبيل الرشاد ، فلن تبلغ مقاربته حد اشتراك في المسئولية ، ذلك بأنه غير مطالب بتأييد ما لا يقتنع به ما كان صحفيا نزيها جديرا باسم الصحفي النزيه . أما الذين يؤيدون خوفا أو طمعا ، فأولئك ليسوا جديرين بالانتساب إلى الصحافة . ونظرة الوزير تختلف عن نظرة الصحفي اختلافا كبيرا ، نظرة الصحفي النزيه مثالية تزن الحوادث لذاتها ، وقلما تعنى بملابساتها أما نظرة الوزير النزيه فواقعية تعبر ما يلابس الحوادث من ظروف عناية واعتبارا ، يزيدان في بعض الأحيان على اعتبار الحوادث لذاتها . وقد حرصت على وصف الصحفي والوزير بالنزاهة ، لأن من يتنكبها منهما لا يدخل في حسابي ، ولا أستطيع أن أعرف نظرته ولن يستطيع أحد أن يعرفها معرفة دقيقة ، لأنها تتلون بلون الشوائب كثيرة متشعبة ، ولكل شائبة منها منظارها الخاص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذي يسبغ على الحوادث لونها »[1].

هذا كلام هيكل عن الصحفي والسياسي، وهو كلام أكبر حجية من كلام رجل لم يكن في يوم من الأيام صحفيا أو سياسيا. ذلك أن عمل الصحفي يختلف عن عمل الوزير ويرجع الاختلاف كما يفهم من كلام هيكل الى أن الصحفي النزيه يخدم الرأي العام، يخدم القراء، والوزير النزيه يخدم مصالح حية تمس الجماهير التي تكون في مجموعها الرأي العام كذلك. على أن الملابسات التي تحيط بالحوادث ولا يستطيع الوزير النزيه أغفالها كثيرة لا سبيل إلى حصرها. فيذهب هيكل[2] إلى أنها في مصر وفي البلاد التي تشبه مصر في مركزها الدولي وفي أحوالها الداخلية أكثر منها في البلاد الناجزة الاستقلال والتي تملك كل أمرها بيدها، ولا سلطان لغيرها عليها. فالوزير في هذه البلاد ليس مقيدا بالسياسة العامة للوزارة التي هو فيها وكفى، وليس مطالبا بالدقة في ملاحظة تموجات الرأي العام إزاء سياسة الوزارة التي يتولى شئونها وإزاء السياسة العامة للوزارة كلها وكفى، بل هو مطالب كذلك بملاحظة اعتبارات لا ترد بخاطر الوزراء في الأمم التي تم استقلالها واستقر نظامها. ثم هو كان مطالبا في أخطر جانب من جانب الحياة المصرية بملاحظة أطوار الحرب العالمية الثانية وموقف مصر منها، وتأثر حوادث مصر الداخلية بها. هذا الى أنه كان مقيدا بسوابق دستورية وواقعية كان لها على تصرفاته سلطان بقتضيه التحايل لتفادي مآزق لا يشعر غيره بها، ولا يستطيع غيره تقديرها ».

ويمثل هيكل لذلك بأن نظام الحكم في مصر لما يستقر إلى قواعد ثابتة يؤمن بها الجميع، ويحترمها الجميع. فقد بقي الخلاف على تعيين الحدود بالدقة بين حقوق الملك بوصفه رئيسا للدولة، وبين حقوق الأمة بوصفها مصدر السلطات كلها قائما منذ أعلنت مصر استقلالها في ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ إلى

---

(١) هيكل: مذكرات ج٢، ص١٨.

(٢) المرجع نفسه ص١٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن تنازل الملك السابق فاروق عن العرش في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢. وكان لهذا الخلاف آثاره بعد إعلانه ونفاذه في سنة ١٩٢٤[١].

وحين يتولى هيكل الوزارة في ٣١ ديسمبر ١٩٣٧، نجده يختار وزارة المعارف لأنها أقرب إلى مشربه واستعداده، بعد أن كان في النية تعيينه وزيرا للداخلية وفي وزارة المعارف يضع هيكل أساس نظام اللامركزية بإنشاء المناطق التعليمية فهو يؤمن بهذا النظام ويعتقد «أن الخير كل الخير في أن تكون الإدارة الاقليمية والهيئات المحلية هي صاحبة الشأن في أمور الاقليم كله»[٢] وهي نفس الأفكار التي نادى بها إبان اشتغاله بالصحافة. وهكذا تلتقي نظرة الصحفي ونظرة الوزير معا في شخصية هيكل حين يحول الآراء إلى حيز التطبيق من أجل الصالح العام.

وما تلبث الوزارة أن تستقيل بعد نشوب الحرب العالمية الثانية، فيحن هيكل الى الصحافة، فنراه يكتب افتتاحيات «السياسة الاسبوعية» ويعود إلى ما بدأ من دراسة الحياة الإسلامية.

ولكن الأحرار الدستوريين يشتركون من بعد في وزارة حسن صبري التي تلت وزارة علي ماهر، ونجد هيكل يريد الاعتذار عن الوزارة، وذلك لأنه كما يقول: «أدرك أن قيود الوظيفة مهما سمت لا تلائم طبعه ولا تتفق مع تلك الحياة الحرة التي عاشها طوال حياته، وفوق ذلك كله كان يرى أن حياة الكاتب المجيد خير حياة وأكفلها ببقاء الذكر «لأن الكاتب المجيد فلذة من ضمير الإنسانية، وضمير الإنسانية باق على الدهر بقاء الدهر»[٣].

غير أن الحاح رئيس الوزارة عليه الحاحا سما إلى تذكيره بصحبة قديمة أيام كان طالبا في مدرسة الحقوق يختلف الى دار الجريدة، حمله على القبول[٤]،

---

(١) هيكل: مذكرات ج٢، ص١٩.

(٢، ٣) نفس المرجع ص٩٦.

(٤) المرجع السابق ص١٨٩.

ومن المعروف أن حسن صبري كان ممن يترددون على دار الجريدة ويحاضرون طلابها وتلاميذها في شتى ألوان المعرفة مما ينمي مواهبهم ويصقل ثقافتهم.

اختار هيكل وزارة المعارف أيضًا، يكمل فيها ما بدأ من قبل من إرساء سياسة التعليم على قواعد قومية ثابتة، سنوات أخر حتى استقالت وزارة حسين سري التي خلفت وزارة حسن صبري بعد وفاته وهو يلقي خطاب العرش في البرلمان، وجاء الوفديون إلى الحكم في فبراير عام ١٩٤٢، وظلوا يلونه حتى أقيلت وزارتهم في أكتوبر ١٩٤٤ ودعي أحمد ماهر ليؤلف الوزارة.

وفي وزارة أحمد ماهر تولى هيكل شئون وزارتي المعارف والشئون الاجتماعية معا حتى أجريت الانتخابات فاختار أن يكون رئيسًا لمجلس الشيوخ. ولعل اختياره لرئاسة مجلس الشيوخ دون الوزارة بعض ما كان يراود نفسه من رغبة عن الوزارة. وكان قد انتخب من قبل رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين.

وفي مجلس الشيوخ تتجلى مواهبه القانونية، فقد ظلت روح رجل القانون تسود نواحي تفكيره، كانت تسيطر عليه وهو يرأس تحرير «السياسة» ويكتب افتتاحياتها كل يوم، وتلم به وهو يشرع لوزارة المعارف نظمها التعليمية الجديدة، وبرزت في كمالها حين أصبح المشروع الأول للدولة، وتوهجت في سناها الباهر حين رأس وفد مصر في الجمعية العامة للأمم المتحدة وفي اجتماعات المؤتمر البرلماني الدولي.

ويبقى هيكل رئيسا لمجلس الشيوخ على كثرة ما توالى على البلاد من وزارات، حتى ولي الوفد الحكم مرة أخرى ودعي مصطفى النحاس لتأليف الوزارة بعد فوز حزبه بالأغلبية فأصدر بعد شهور من توليه الحكم مرسوما بتعيين زكي العرابي رئيسا للمجلس مع اسقاط العضوية عن آخرين في ١٧ يونية سنة ١٩٥٠.

وتمضي الأيام سراعا وحال البلاد تزداد سوءًا وارتباكًا، وتتوالى على الحكم وزارات عديدة بعد إقالة حكومة الوفد، تنتهي بثورة الجيش في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ لتفتح صفحة جديدة في تاريخ مصر الحديث.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثالث

الصحافة والتقدم القومي


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيد: رؤيا هيكل لرسالة الصحافة

قبل أن نتحدث عن الأدب القومي عند هيكل، وخصائصه، وأثر النظرية السياسية في فكره القومي بعامة، يجدر بنا أن نتحدث عن رسالة الصحافة عند هيكل والملابسات التي حول مفهوم هذه الرسالة، لنستطيع أن نقف بعد ذلك على مهمة هيكل في الصحافة.

والذي عرفناه من تراث هيكل الصحفي أن التقدم القومي «سواء في مظهره المادي أو الاجتماعي لا يمكن أن يعتبر تقدما صحيحا إلا إذا اختلط بنفس الأمة وأصبح بعض عقائدها التي تدافع عنها بقوة إيمان وحرارة يقين. فأما ما لم يقم بالنفس من مظاهر التقدم وما لم يصل من الأمة إلى موضع العقيدة فلا يعتبر تقدما موطدا ثابتا وإن أمكن اعتباره محاولة للتقدم. ولهذا كان كل تقدم يراد تحقيقه بقوة القانون ومن طريق التشريع مهددا بالتداعي إلى أن يثبت في نفس الأمة ويحل محل العقيدة منها»[1].

ويضرب هيكل لذلك الأمثال في مصر وفي غير مصر: فقد رأت القائمات بأمر الحركة النسوية في هذا العصر أن الزواج الباكر ضار بالفتاة واستصدرن تشريعا يحدد السن الدنيا للزواج بست عشرة سنة، وحذر التشريع على الموثق أن يعقد زواجا حتى يتثبت من بلوغ الزوجين السادسة عشرة للبنت والثامنة

---

(١) السياسة الاسبوعية: في ٢٩ مارس ١٩٣٠.

عشرة للولد[1].

ويرى هيكل أن هذا التشريع مع ما فيه من إصلاح وتقدم بالفعل فقد لوحظ أن أهل الريف الذين لا يعتقدون أنه إصلاح أو تقدم سارعوا قبل صدور التشريع بأيام فكانت القرية التي لا يعقد فيها عادة زواج في الشهر يعقد الموثق فيها عشرات العقود في اليوم الواحد تفاديا من القانون. فلما صدر ورأى المشرع أنه لا يتفق مع اعتياد الأمة اضطرت وزارة الحقانية إلى اصدار منشور للمأذونين الموثقين في عقود الزواج كي يكتفوا في إثبات سن الفتاة بشهادة الميلاد وعن الثابت في دفاتر المواليد. واضطرت وزارة الحقانية إلى قبول هذه الشهادات رغم مخالفتها للقانون، لأن هذا الإصلاح الاجتماعي الذي سن القانون به لم يصل بعد إلى مكان العقيدة من نفس الأمة فلتتحايل عليه وليصبح حبراعلى ورق حتى يجيء الوقت الذي تؤمن الأمة به ويقيم كل فرد من أفرادها نفسه جنديا لتنفيذه. هنالك يصبح التشريع على ما يجب أن يكون دائما، مظهرا لإرادة المجموع يحرص المجموع على تنفيذه، لأنه مظهر من مظاهر حياته وسبب من أسباب قوته وتماسك بنيانه »[2].

والمثل الآخر الذي يضربه هيكل في هذا الصدد: صدور التشريع الخاص بالنقابات الزراعية. « صدر هذا التشريع وحاولت الحكومة تعميمه لفائدة المزارعين. وها قد انقضى على صدوره أربع سنوات ومع ذلك فنجاح النقابات جزئي جدا ذلك لأن الجمهور لم يقنع بعد اقتناعا صحيحا بفائدة النقابات له... لذلك تسير حركة التعاون الزراعي ببطء شديد برغم التشريع لها واهتمام الحكومة بها. فإذا جاء اليوم الذي يقتنع الناس فيه اقتناعا صحيحا بأن التعاون الزراعي كمظهر من مظاهر التقدم القومي مفيد فائدة صحيحة، توطدت قواعد التعاون وتكونت النقابات من غير حاجة إلى تدخل الحكومة في تكوينها »[3].

---

(١) السياسة الاسبوعية: في ٢٩ مارس ١٩٣٠.

(٢، ٣) نفس المرجع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويخلص هيكل من هذين المثلين إلى أن التشريع لا يمكن أن يكون أساسا للتقدم ما لم تقترن به العقيدة العامة ولم يدعمه إيمان الأمة: « في الماضي أكره بطرس الأكبر أهل روسيا بقوة التشريع ايضا على حلق اللحى وارتداء ألوان معينة من الأزياء، فكان ذلك بدء حركة في روسيا، ولكنه لم يكون التقدم القومي فيها بمقدار ما كونه الدعاة إلى التقدم بالوسائل المشروعة ـ كما اعتدنا أن نقول »[1].

وإذا كانت الهيئات التي تملك القهر بقوة الجندي وهي السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية لا تقدر على بث العقيدة، وهي ملاك كل تقدم كما يقول هيكل، فإنه يقرر أن الصحافة « التي تعتبر اليوم سلطة رابعة لها من النفوذ ما لهذه السلطات الثلاث إن لم يكن أكثر، هي القديرة على القيام بهذا العمل، وهي التي تقوم به فعلا. وفي تأثرها بالرأي العام وتأثيرها فيه، وهي التي تكون العقائد في مظاهر التقدم وتثبته في النفوس وتحله منها محل الاقتناع فتدافع عنه، ويصبح بذلك جزءا متصلا بحياة الأمة، تعتبر واجبا عليها الدفاع عنه، وتعتبر القوانين التي تسن لهذه الغلبة مظاهر صحيحة لإرادتها »[2].

وتأسيسا على ذلك يصور هيكل رسالة الصحافة بإزاء التقدم القومي الذي تتجه مظاهره في ذلك الوقت ـ اتجاها جديدا غير اتجاهه الأول: « ذلك بأن الحضارة الغربية تغزو الشرق غزوا رائعا. ويرى بعض الشرقيين أن لا وسيلة للوقوف كتفا الى كتف بجانب أمم الغرب الا بقبول هذه الحضارة بكل أصولها، وكل مظاهرها واحلالها في بلاد الشرق محل حضارته القديمة واجتثاث تلك الحضارة القديمة من أسسها. كذلك يرى المصلحون الأتراك في الحركة التركية الأخيرة. وكذلك كان يرى أمان الله خان أيام حاول القيام بحركة الإصلاح في بلاد الأفغان. وكذلك يرى بعض المصريين أيضاً، لكن

(١) السياسة الاسبوعية في ٢٩ مارس ١٩٣٠.

(٢) نفس المرجع.

هؤلاء المصريين لا يملكون ما يملك رجال تركيا وما كان يملك أمان الله خان من قوة الجند وقوة القانون لإدخال أفكارهم إلى النفوس كرها فهم يحاولون اقناع الأمة بها. على أن هذه الفكرة تقابلها فكرة أخرى ترى أنه اذا لم يكن من الممكن مقاومة الحضارة الغربية في غزوها الشرق، فواجب العمل على أن يكون هذا الغزو وما يتركه من آثار منبها لقوى الحضارة الثابتة الأصول في الشرق كي تنشط من جديد، ليستعيد الشرق قوة الحياة ويجد المزيد فيها »[1].

وعندا هيكل أن القول باستعارة حضارة بحذافيرها لتنقل إلى أمة ذات حضارة تختلف عنها وهم باطل. ذلك بأن حضارة أية أمة من الأمم يجب أن تتفق مع طبيعتها ومع تاريخها ومع قوانين الوراثة فيها. ومن أجل ذلك كانت مظاهر الحضارة الغربية المتقاربة الأصول مختلفة اختلافا كبيرا جدا في انكلترا عنها في فرنسا عنها في ألمانيا. وكانت كل امة من هذه الأمم متأثرة في أصول حضارتها وفي مظاهر هذه الحضارة بطبيعة بلادها وبتاريخ قومها: « وإذا صح ذلك في أمم متجاورة في قارة كأوربا، فكيف يكون شأنه في أمم بعيدة عنها تريد أن تستعيد بعض مظاهر حضارتها؟! ثم كيف يكون شأنه في مصر بنوع خاص؟ إن طبيعة هذه البلاد تحيل كل دخيل عليها ليصبح جزءًا منها وتأبى أشد الاباء أن يظل فيها ما هو غريب عنها متحفظا بملكاته التي لا تلتئم وإياها. وكل شيء في حياتها الحاضرة وفي تاريخها يؤيد هذا الرأي تمام التأييد »[2].

ويذكر هيكل في تأييد رأيه هذا محاولة « زراعة البطاطس الفرنساوي في التربة المصرية فكانت الثمرة في السنة الأولى كالبطاطس الفرنسي تماما، حتى أخذت تقاوي زراعة السنة التالية منها. لكن ثمرة السنة التالية كانت وسطا بين البطاطس الفرنساوي والبطاطس المصري مما دل على أن الثمرة الأولى تأثرت بالتربة المصرية وإن لم يظهر ذلك في طعمها. ولما زرعت هذه البطاطس

(١) السياسة الاسبوعية: في ٢٩ مارس ١٩٣٠.

(٢) نفس المرجع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للمرة الثالثة كانت الثمرة كثمرة البطاطس البلدي سواء بسواء. وكلنا يعرف أن البطيخ المستطيل إذا لم تستورد له بذور من الخارج كل عدد من السنين تغير طعمه، وصار دون البطيخ البلدي بكثير، فإذا كانت تربة البلد تصنع هذا الصنيع بما يغرس فيها وتصنعه بهذه السرعة فكيف يمكن لإنسان أن يتوهم إقامة حضارة تختلف في كثير مع طبيعة مصر إقامة تنتهي بالقضاء على الماضي قضاء تاما »[1].

على أن هيكل لا يكتفي بما ذكر عن المزروعات وتأثرها بالبيئة الطبيعية. فمصر بطبيعة مركزها الجغرافي وسط القارات الثلاث الأوربية والآسيوية والأفريقية « ولذلك وبحكم تاريخها السياسي تخلف فيها من أهل هذه القارات كثيرون جدا: من أهل الشام والعرب والترك والجراكسة و الاناءوود واليونان وغيرهم. وشأن هؤلاء شأن الزراعة سواء. فلا تنقضي عليهم في مصر ثلاثة أجيال حتى يصبحوا مصريين مثلنا نحن العريقين في المصرية. ولولا هذا لكانت مصر بابل هذا الزمن وعصبة أجناس لا اتصال بينها قط »[2].

ويخلص هيكل من ذلك الى أن قوة الاقليم تمثل في الذين يحلون أرضه ويشربون ماءه ويستظلون بسمائه تجعل الجنس المصري ذا وحدة تامة التماسك على الزمان: « وبرغم ما توالى على مصر من ألوان الحضارة الفرعونية والرومانية والإسلامية والتركية، فإن كثيرا من الطقوس والعادات والعقائد ما تزال متصلة أوثق اتصال بالماضي القديم أيام الفراعنة. أليس مسلمو الأقصر الذين يحيون مولد سيدي أبي الحجاج فيها ما يزالون يجعلون من طقوس المولد قارب آمون اله الفراعنة وما يزالون يذكرون اسمه أثناء سير الموكب. فهذه الوقائع وغيرها من مثلها مما يعد بالمئات تجعل ما يذهب البعض إليه من الدعوة إلى طمس أعلام الماضي وهما باطلا لا يمكن أن يتحقق، فضلا عما فيه من أنكار لفضائل حضارتنا المصرية، فضائل لا تقل عما للحضارة الغربية من فضل، وان امتازت الحضارة الغربية في عصرنا الحاضر بالنشاط في تزيين

(١) السياسة الاسبوعية: في ٢٩ مارس ١٩٣٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مظاهرها لتأخذ بها أمم الأرض كلها بإزاء اكتساح مظاهر الحضارة الغربية بقوة لا سبيل إلى مقاومتها، وضرورة التوفيق بين هذه المظاهر والحضارة المصرية في مختلف العصور »[1].

وتأسيسا على ذلك يؤكد على رسالة الصحافة « الملقى على عاتقها عبء التوجيه لهذه الحركة الجديدة ».

ويرى هيكل ان الصحافة المصرية برغم كل ما يقال عنها عملت وتعمل لتعبيد الطريق لهذه الغاية السامية « غاية تطعيم الحضارة المصرية الراكدة بعوامل النشاط التي تحتوي المدنية الغربية عليها لترد الى حضارتنا نشاطها وتجعل ما يكون من مظاهر حضارة الغرب في مصر بحيث لا يتعارض مع الغاية التي ننشدها والتي لا يمكن مقاومتها لأنه لا يستطيع أحد مقاومة سلطان الطبيعة. وسلطان الطبيعة المصرية من القوة والسلطان بما وصفناه »[2].

على أن هذا التقدم في سبيل إحياء الحضارة لا يقف، ويجب ألا يقف أمره، كما يقول هيكل، عند المثقفين والمتعلمين الذين يجدون من أوقات فراغهم ما يوجههم إلى التماس المثل الأعلى.بل يجب أن يتناول التقدم كل طوائف الأمة التي لم تنل التثقيف الواجب لكيما يفكر المرء لنفسه، ويجب أن يتناول هذه الطوائف لتصل شيئا فشيئا، إلى الاقتناع بمظاهر التقدم اقتناعا يحل محل الإيمان الذي يدافع صاحبه عنه بكل ما أوتي من قوة. هذا الواجب المتعلق بمن لم ينالوا ذلك التثقيف الواجب يقع على كاهل الصحافة دون أية سلطة سواها. فهؤلاء الذين لا سبيل إليهم لقراءة الكتب والتفكير فيما تحتوي، وهؤلاء الذين لا يترك لهم عملهم من الوقت ما يمكنهم من التفكير، والآخرون الذين لا يقرأون وإنما يستمعون إلى ما يتلى عليهم ـ هؤلاء وأولئك تقوم الصحافة بخلق الصلة بين مختلف طوائفهم. وتخلق الصلة بينهم وبين غيرهم من الطوائف المثقفة. فلقد تعود كل واحد من هؤلاء يستطيع

(١، ٢) السياسة الاسبوعية: في ٢٩ مارس ١٩٣٠.

الحصول على جريدة أن يأخذ في الصباح وفي المساء الجريدة التي تتفق مع ميوله. وهو لا يقف من هذه الجريدة على ما يلقي به محررها من آراء، بل يرى فيها من مختلف الأخبار ما يكوّن في حدود المستطاع شخصيته. وينقل «هذه الشخصية إلى حدود الوطن كله، بل إلى أوسع من حدود الوطن. واتصال أبناء الوطن في التفكير عامل من أجل عوامل التقدم القومي خطرا فإن أجدادنا الذين كانوا لا يقفون على أكثر مما في قريتهم أو مديريتهم على الأكثر كانوا يشعرون أن القرية أو المديرية غاية ما تتسع الأرض له، وأن القرية أوالمديرية هي كل ما في الحياة، وأن العاصمة شيء عظيم لا يحيط به الخيال ولا يتعلق به أكثر من تعلقه بالأوهام المخيفة. أما اليوم فقد أصبح اتصال العامل والفلاح في براري الغربية وفي أقاصي الصعيد ممهدا وطيدا يخلق بين الكل معارف وأفكارا وآمالا مشتركة هي التي تسير بالتقدم القومي في طريق سوي، وهي التي تجعل الآمال القومية في التقدم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي قريبة المنال، بل ازدادت هذه الطوائف اتصالا فيما بينها أن ازدادت بالعالم الخارجي اتصالا »[١].

ومرجع هذا الاتصال، كما يقول هيكل، إلى الصحافة التي أصبحت تضم أمام أنظار قرائها والمستمعين إليها من كل الطبقات أخبار العالم على أثر حدوثها، لأن الصحافة استفادت من كل ما أبدع العلم تسهيلا للمواصلات وتقريبا للأخبار بالتلغراف والتليفون واللاسلكي[٢].

« وطبيعي أن يهتم الإنسان بالأخبار ما دامت تصل إليه ساعة حدوثها، وما دامت أخبار العالم تصله في وقتها، فهو بطبيعة الحال يود أن يكوّن لنفسه رأيا ولو تقريبيا عما يقع »[٣].

وتأسيسا على هذا الفهم يذهب هيكل إلى أن من التقدم القومي ازدياد الصلة بين الأمة كمجتمع والأمم الأخرى كمجتمعات. كما أن من التقدم

(١، ٢، ٣) السياسة الاسبوعية: في ٢٩ مارس ١٩٣٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القومي ازدياد الصلة بين طوائف الأمة الواحدة على اختلاف درجاتهم من الثقافة. وكذلك من التقدم القومي ربط الهيئات والطوائف بعضها ببعض بروابط التقدير الذي ينتهي إلى الاعتقاد والصحافة هي التي تقوم بهذه الواجبات كلها وتقوم بها من طريق الاطلاع والاقناع[1].

ويخلص هيكل من ذلك إلى أن الصحافة المصرية قد أدت من ذلك ما يجعل رجالها يقدرون أنهم أدوا لبلادهم بعض الواجب عليهم أداؤه[2].

ويفهم مما سبق أن هيكل يعتبر الصحافة قوة حضارية: تعمل بالمشاركة مع القوى الحضارية الأخرى، كالتعليم والتنمية الاجتماعية، من أجل التقدم القومي. وهو بذلك يتفق مع ما يذهب إليه علماء الاتصال بالجماهير من أن الصحافة تساعد على خلق اتفاق عام بين فئات الأمة الواحدة، مع تقريب وجهات النظر نحو القضايا الهامة، والمشاركة في بناء المجتمع العصري الجديد[3]. ولا شك أن جهود الاعلاميين في الشرح والتفسير وتبسيط المعلومات و تقديمها للجماهير بطريقة مفهومة وجذابة تجعل البعيد قريبا، والغريب مألوفا، وبذلك تسري الأفكار التقدمية والاتجاهات العصرية، بين الريف والحضر، وتترابط أجزاء الأمة، وتمضي كتلة واحدة في طريق التقدم والمدنية[4].

ولعلنا نخلص من ذلك إلى أن الرؤيا عند هيكل لرسالة الصحافة كانت واضحة ومتفقة مع ما يذهب إليه علماء الاتصال، فهيكل يرى إن الصحافة يجب أن تقوم برسالة التقدم القومي، ومن أجل ذلك يمكن القول أن اشتغاله بالصحافة السياسية بعدالحرب الأولى اقترن بمهامه الأصيلة في الدعوة إلى الوحدة القومية، وتنشيط الوعي القومي بشرح وتفسير مشكلات السياسة

---

(١) السياسة الاسبوعية: في ٢٩ مارس ١٩٣٠.

(٢) نفس المرجع.

(٣، ٤) إمام: الاعلام والاتصال بالجماهير ص٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتبسيط مفاهيم الحركة الحزبية، وتقديمها للجماهير.

ومن أجل ذلك وجدنا هيكل لا يطيق العمل في المحاماة طويلا رغم استعداده العلمي وتحقيقه لدرجة الدكتوراه في القانون، وتستهويه الصحافة اليومية لقربها من مزاجه ومواهبه واستعداده في: التوجيه والإرشاد والتبسيط والنزال. بل كانت طبيعته أميل إلى المشاركة في مهام السياسة قوميا وعالميا إلى جانب تجاوبه مع مهنة التعليق على الأحداث الخارجية والمحلية.

وذلك ما يؤكده هيكل عبر السنوات التي تولى فيها توجيه جرائد الأحرار الدستوريين وكان خلالها الناطق بلسانهم. يقول:

«وأحب قراء الصحف يشعرون بأثر الصحافة كما يشعر به محرروها وهم أقوى بهذا الشعور إحساسا وأدق تقديرا ما اطمأنوا إلى إيمان الكاتب بما يطالعهم به وما وثقوا بأنه يقصد منه إلى الخير العام. وطمأنينتهم الى صدق الكاتب في إيمانه إنما مصدرها شعورهم بأنه يعبر عما في دخيلة نفوسهم، وان خالف في كثير من الأحيان اتجاهاتهم الظاهرة ومنافعهم العاجلة، ففي كل نفس إنسانية قبس من نور الحق يهديها سبيله ويدلها عليه. وهي قد تتنكب طريق هذا الحق وتغمض بصيرتها عن هذا النور خضوعا لأهوائها أو جريا وراء منافعها. لكن الضمير الإنساني لا يلبث حين يسطع عليه هذا النور أن يخز النفس الأمارة بالسوء، وأن عجز عن ردها إلى الصراط المستقيم.

«وذلك ما يجعل بعض الحكومات تضيق في كثير من الأحيان بالصحف المعارضة وتكيل لها الضربات، ولا تكتفي بأن تقارعها الصحف المؤيدة الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، ولا بأن يشرح الوزراء والمسئولون أسباب تصرفاتهم، لأن هذا الشرح وهذه المقارعة يقصران عن حجب ضياء الحق وستر نوره[1].

---

(١) هيكل: مذكرات ج١، ص٦.

وتأسيسا على هذا الفهم لرسالة الصحافة وأثرها بدأ هيكل حياته الصحفية قبل الحرب الأولى وحمل القلم ولم يبلغ العشرين، وعاصر مدارس متباينة من مدارس التحرير الصحفي، ولكنه تطور معها دون ان يقصر في شروط الجديد ومقتضياته، وخرج من هذا التطور بأن اللغة بحاجة «إلى مجهودات صالحة يقوم بها المئات والألوف من أبنائها في مثابرة وجد لاجتناء ثمرات مجهودات الأمم الأخرى وبثها في جو البلاد العربية. وسيجد هؤلاء المئات والألوف من مجهودهم مشقة وعنتا، وسيقع بعضهم أعياء ويفر آخرون يأسًا، لكن الحضارة شجرة من الأشجار الضخمة العظيمة الجذع التي لا تستسرع إلى الظهور والنمو ولكنها تسير في سبيله مقاومة كل صعب متغلبة على كل عقبة، وتبدو أول ظهورها ضئيلة لا يطمئن من لا يعرفها إلى أنها بالغة ما يبلغه أمثالها من ضخامة وعظمة، ولذلك يصدر عنها ولا يعنى بتعهدها. وهذا هو شأن الكثيرين من أهل الشرق اليوم، أولئك يريدون العاجلة فيهيمون باقتطاف زهر النبات الضعيفة سوقه السريع انقضاء أجله. وهم يكتفون بتفيء ظلال جذوع سقطت أوراقها وجفت غصونها. أما ذوو العلم فلا يثنيهم عن تعهدها عجز ولا طمع. فإذا هي أورقت كان من ثمرها قطاف النابغة الهادئ»[1].

على أن رسالة الصحافة وارتباطها بالتقدم القومي، يرتبط أوثق ارتباط بالرؤيا المصرية التي صدر عنها هيكل في أفكاره وآرائه، فهي التي صدر عنها في الدعوة للأدب القومي، وهي التي صدر عنها في رسالة الصحافة كما رأينا. لأن الصحافة هي التي تمهد لهذا الأدب القومي «بنشر العلم والثقافة القومية»[2]. ومن شأن ذلك أن ينقل المعركة من ميدان القديم والحديث إلى التنافس حول الكمال والقرب منه والابتعاد عنه «ويومئذٍ يتشعب الكمال إلى ما يريد النوابغ من صور، ويومئذٍ يسلس قياد اللغة ويسرع تيارها الفياض الى حيث يحتاج إليه الذهن. ثم يكون التعاون الصادق بين ثمرات الفكر وتكون

(١، ٢) هيكل: ي أوقات الفراغ ص٣٦٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه الثمرات لذاتها هي الغاية إن أصبحت اللغة منهلا عذبا كثير الزحام. ويومئذٍ ترى هؤلاء المقتتلين من «الأقدمين» و«المحدثين» قد انصرفوا عن نضالهم الحاضر الى ما هو خير وأبقى، ونرى اللغة اتصل ماضيها بحاضرها دائمة الأهبة لتمثل ما تخلقه الحضارة من كل حديث»[1].

وقد استطاع هيكل أن يوجه هذه المعركة بين القديم والحديث لتحقيق غاية التقدم القومي، وأن يعبر الفوارق بينهما في سهولة ويسر لما كان يتمتع به كصحفي منذ مطلع حياته من الاسلوب المتميز الجميل والذوق المتطور والتبويب الصحفي على أحدث الأنماط، جاعلا للصورة مكانتها وأهميتها. بل كان هيكل يطالع أحدث المؤلفات الصحفية الغربية فيعرف مدار صناعة الخبر واسلوب النزال وطرق التشويق والتقريب وسبل النفاذ الى نفسية القارئ وكيفية الاقناع والتنويع في المادة المحتواة.

ونذكر من هذه المؤلفات كتاب ستيفن لوزان رئيس تحرير الماتان الفرنسية الذي جعل عنوانه «صاحبة الجلالة الصحافة» وتناوله هيكل ولخصه في جريدة السياسة[2] ويذكر هيكل أنه اعتز بهذا الكتاب «لأنه تعبير عما في نفسي فمنذ كنت طالبا في مدرسة الحقوق المصرية وفي كلية الحقوق الفرنسية بباريس وكنت منذ عودتي إلى مصر أمارس الصحافة من حين إلى حين»[3].

هيكل والتأهيل الصحفي:

وعن هذه الرؤيا المصرية لرسالة الصحافة، حدد هيكل كذلك في دعوته إلى تدريس الصحافة في مصر وإنشاء معهد للصحافة بها، ذلك أن أول صيحة للدعوة إلى إقامة معهد للصحافة في مصر كانت في أعقاب ثورة ١٩١٩. وكانت هذه الصيحة للدكتور محمود عزمي الرئيس السابق لمعهد

---

(١) هيكل: في أوقات الفراغ ص ٣٦٦.
(٢) السياسة في ١٠ ديسمبر ١٩٢٩.
(٣) السياسة الاسبوعية في ٢١ مايو ١٩٤٩.

الصحافة. فقد نشر أحاديثه في السياسة سنة ١٩٢٣ يدعو فيها هذه الدعوة. ويدلل عليها ويقول: إن الصحافة بحاجة الى الدراسة حتى تخرج جيلا من الصحفيين ملما بفن الصحافة. وكان لهذا الحديث صدى كبير في الصحف إذذاك. ولكنه بقي سرا مكتوما إلى أن كانت سنة ١٩٣٢. وكان عميد كلية الآداب هو الدكتور طه حسين وتداول مع زملائه ومنهم الدكتور هيكل، بالفكرة التي نادى بها محمود عزمي سنة ١٩٢٣ واتفق الرجلان. وكان ان كتب الدكتور طه حسين كلمة في جريدة المقطم يدعو فيها إلى إنشاء معهد للصحافة. وكان أن كتب هيكل في اليوم الثاني مقالا طويلا يدعو فيه بحرارة عظيمة إلى وجوب إنشاء مثل هذا المعهد لتهيئة بيئة صحفية صالحة للمستقبل[1]. وأخذت جريدة السياسة بلسان الدكتور هيكل بالدعوة إلى إنشاء هذا المعهد، وبأن له رسالة كبيرة، وأخذت تدعو إلى تحقيق هذه الفكرة، التي لم تبدأ في خطوات التنفيذ إلا في سنة ١٩٣٩[2].

وأيا كان الأمر، فان رسالة التأهيل الصحفي كما رسمها هيكل، تشغل حيزًا أساسيًا في رسالة الصحافة وارتباطها بالتقدم القومي لديه، فهو يتحدث في مؤتمر الصحافة الدولي بكولونيا في أغسطس ١٩٢٨ متسائلا عما هو عليه علم الصحافة عند «أهل بلاد الفراعنة وما هي التربية العلمية الصحفية لدى الصحفيين المصريين». ويقول:

«يستطيع الإنسان أن يتساءل في هاتين المسألتين وغيرهما ثم يدهش مما يجاب عليه حينما يعلم أن مصر ليست بها مدرسة للصحافة تدرس فيها علومها ثم يتلقى فيها الصحافيون تعليمهم الفني.

على أن هيكل يقرر أمام المؤتمر أن حالة الصحافة المصرية والصحفيين

---

(١) من كلمة الدكتور حسين فوزي النجار في حفل قسم الصحافة - كتاب «الدكتور محمد حسين هيكل» ص١٤٦.

(٢) نفس المرجع.

المصريين من جهة الفن والعلم الصحفي توازي مثل هذه الحالة في كثير من الأمم الأوربية « ولقد يبدو غريبا على حين لا غرابة فيه. وسبب ذلك أن كثيرين من أبناء عالم الصحافة في مصر تلقوا دروسهم بمدارس الصحافة في المانيا وفرنسا وانجلترا.. كما أن كثيرين غيرهم قد درسوا في مصر وفي أوربا الحقوق والآداب والاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع. وقد استطاع هؤلاء الصحافيون ان يخلقوا في مصر فنا صحفيا يقرب من الكمال كما استطاعوا أن يثبتوا أسس الصحافة كعلم لا في الناحية القضائية وحدها ولكن في النواحي الاجتماعية والعقلية. ولم يحدث هذا التطور إلا في الأربعين السنة الأخيرة كما أنه لم يتم الا حديثا. وقد تم ذلك بنوع خاص منذ اشتركت مصر كدولة مستقلة في جماعة الأمم وكذلك ترمي الصحافة المصرية في الحاضر كغاية لها إلى التقدم الإنساني بأوسع معانيه وذلك بجانب مراميها القومية البحتة. ولتحقيق ذلك استخدمت أحدث الطرق الصحافية. فأخبارها وتلغرافها ومراسلاتها مع الغرب والشرق في نواحي السياسة والتجارة والفن والعلم تسمح لها بالنجاح فيما جعلته غاية لها من تقدم الإنسانية نجاحا كبيرا »[1].

ويرجع هيكل الفضل في هذا النجاح الى أن الصحافة المصرية خطت خطوة واسعة من جهة أن الصحفي المصري قد أحرز من المؤهلات العلمية ما يسمح له بتوجيه الصحافة نحو هذه الغاية العليا « فهو لم يعد من طفيليات المجتمع لا يدري ماذا يصنع ولذلك يشتغل بالصحافة. بل هو صحافي بمعنى الصحفي صحفي كما أن الطبيب طبيب والمحامي محامي أصاب ما يجب له من الدراسة الفنية الخاصة. ومما تجدر ملاحظته في هذا الباب إن لم يكن في الصحافة المصرية قبل الحرب الا خمسة أشخاص درسوا دراسة عليا، أما بعد الحرب فلم يبق الا قليل من الصحفيين لم يدرسوا دراسات خاصة. وحملة شهادات الكليات الخاصة في مصر وفي أوروبا يكادون يحتلون أغلبية أماكن

---

(١) السياسة الاسبوعية في ١٥ سبتمبر ١٩٢٨.

الصحفيين الذين يشغلون مراكز ذات أهمية في الصحف المصرية »[1]. على أن هيكل يخرج من هذا المؤتمر الدولي للصحافة بضرورة إنشاء معهد للتأهيل الصحفي، وهو يذهب إلى ذلك لأن « الصحفيين ما يزالون إلى اليوم لا ينتمون إلى طائفة معينة من الناس، وبأنهم إنما درجوا إلى الصحافة لميل خاص من أحدهم لها، أو بحكم الضرورة التي قضت على آخر بأن ينضم إلى سلكها. وقليل منهم من عرف الصحافة من غير هذا الطريق[2]. وهو لذلك يدعو إلى أن تكون « الصحافة كالحقوق والطب والهندسة والتجارة مهنة تستحق دراسة خاصة، وأنها يجب بذلك أن تنشأ لها مدارس، أو على الأقل مدرسة خاصة »[3].

ويرد هيكل على مذهب الذين يقولون إن « الصحافة هبة من المواهب لا يصح أن تقيد » بالدراسة، ويرى أن هذا المذهب كان طرف خلاف قديم على كل ما يدرس اليوم على أنه علم من العلوم، وأنهم لذلك يتجادلون: هل الصحافة فن أو علم؟ يقول هيكل: « طرح مثل هذا السؤال من قبل في شأن الاقتصاد السياسي: أهو فن أم علم؟ وفي شأن السياسة: أهي فن أم علم؟ ومرجع الخلاف بين الفن والعلم أن العلم خاضع لقوانين ثابتة لا تتغير كقانون الجاذبية وكدوران الأرض وكالقوانين الرياضية والفلكية المختلفة بينما يتسع الفن لعبقريات رجال الفن. فلقد كان الاجتماع وبحوث النفس والاخلاق والاقتصاد والسياسة معتبرة إلى زمن غير بعيد فنونا لا تخضع لقوانين معينة ولكنها ترجع الى كفايات النوابغ من أهلها. لكن العلماء انتهوا من بحوثهم إلى اثبات أن هذه التي كانت تسمى فنونا تخضع هي الأخرى لقواعد العلم وأنها يجب أن تسمى علوما، وأن تدرس على أنها علوم[4].

ويخلص هيكل من ذلك إلى أنه كما يكون الطبيب والسياسي والاقتصادي

---

(١) السياسة الاسبوعية في ١٥ سبتمبر ١٩٢٨.

(٢) نفس المرجع.

(٣، ٤) نفس المرجع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رجل فن إذا امتاز بمواهب خاصة، ولكنه لا يكون رجل فن إلا إذا وقف من قبل على قواعد العلم الذي ينبغ فيه، كذلك لا يصح أن يكون الصحفي رجل فن في الصحافة إلا إذا وقف من قبل على قواعد علم الصحافة[١].

ويذهب هيكل إلى أن الصحافة كمهنة أصبحت موضع تفكير الصحفيين أنفسهم - «ذلك بأن الصحافة المصرية تقدمت خطوات واسعة جعلتها حاجة من الحاجات التي لا يمكن الاستغناء عنها أو إنكار سلطاتها»[٢]. وتأسيسها على ذلك يرى هيكل ضرورة التأهيل الصحفي لترقية المهنة وتنقيتها. وذلك حتى يمكن التفريق بين الحزبية السياسية والهيئات التي يعبر الصحفيون عن رأيها وبين طائفتهم الصحفية كطائفة لها حقوقها وعليها واجباتها بعيدة هذه وتلك عن منازعات السياسة ونضال الأحزاب[٣].

ويرى هيكل أن التشريع وحده لا يكفي «للارتفاع بالصحافة إلى المستوى السامي الذي يجب أن يكون لها والذي يمكنها من أداء الرسالة العظيمة الملقاة على عاتقها. فإلى أن تكون في البلاد مدرسة تدرس فيها الصحافة وفنونها سيظل الأكثرون من الناس مزورين عن الاشتغال بها تهيبا إياها خيفة من مجهودها المضني من ناحية، ولأن البيئة الصحفية على ما وصلت إليه من رفعة في الأزمان الأخيرة ما تزال بعيدة عن أن تغري ذوي المواهب بالاندماج فيها بسبب قلة محصولها المادي أو بسبب عدم تنظيمها على نحو ما نظمت المهن الأخرى التي يحتاج الالتحاق بها إلى شهادة خاصة»[٤].

ويقترح في هذا المقال على أحمد لطفي السيد وزير المعارف آنذاك إنشاء «مدرسة صحافة عليا يلتحق بها الحاصلون على شهادة الدراسة الثانوية ووضع برنامج لها يشتمل العلوم السياسية والاقتصادية ويتناول الحقوق وخلاصات ما يدرس في كليات الحقوق والآداب والعلوم من منطق وفلسفة وتاريخ، وتاريخ طبيعي واجتماع وطبيعة وما إلى ذلك من فنون لا غنى عنها لمن تقضي عليه

(١، ٢، ٣، ٤) السياسة الاسبوعية: في ١٥ سبتمبر ١٩٢٨.

مهنته أن يكون محيطا بأوسع ما تستطاع الإحاطة به من المعرفة بمختلف جوانب الحياة، هذا إلى جانب فنون الصحافة المختلفة من نواحيها الاخبارية والتحريرية ومن العلم بما تحتاج إليه طباعة الصحيفة ونظامها، إذا أنشئت هذه المدرسة ووضع لها مثل هذه البرامج كانت جديرة بتخريج أشخاص يحصلون بعد دراسة تستغرق زمنا كالذي تستغرقه الدراسات العالية الأخرى، على شهادة عالية تؤهل حاملها للاشتغال المنتج بالصحافة وبغير الصحافة أيضا، وتجعله في عداد الأشخاص الذين يستطيعون أن يقوموا لبلادهم بخدمة كبيرة»[1].

ويناقش هيكل اعتراضا له وجاهته على هذا الاقتراح «فهذه المدرسة إذا أنشئت سيلتحق بها عدد عظيم بسبب ما نرى من اقفال الكليات والمدارس الفنية أبوابها دون عدد عظيم من حملة الشهادة الثانوية، ومهما ترتقي الصحافة كمهنة فان عدد الصحف سيبقى ابدا محصورا، وستبقى الحاجة للصحفيين ضيقة الدائرة، فإذا زاد المتخرجون من هذه المدرسة عن الحاجة اليهم خلقنا طائفة من العاطلين او شبه العاطلين، وهؤلاء هم في كل بلد من البلاد الساخطون المتمردون، فهل من أجل تخريج ثلاثين أو خمسين أو مائة صحفي نعرض البلاد إلى مثل هذا الخطر؟»[2].

ويرى هيكل أن دحض هذا الاعتراض يكمن فيما قدم من أن شهادة مدرسة الصحافة تؤهل لدراسة العلوم التي تجيز لحاملها الاشتغال بالصحافة وبغير الصحافة أيضًا: «هي تؤهله للاشتغال بالسلك السياسي كما تؤهله لمعاونة كبار المحامين وتنظيم أعمالهم معاونة تقوم مقام عمل الأفوكه ـ L'avoca وهي تؤهله للاشتغال في الأعمال التجارية. هي تخلق منه رجلا مسلحا للحياة في كل ما تحتاج إليه الحياة، رجل يخرج إلى ميدان العمل غير مقيد بشهادته على غير ما يشعر حامل شهادة الحقوق أو الطب أو الهندسة، بل قوى بهذه

(١، ٢) السياسة الاسبوعية: في ١٥ سبتمبر ١٩٢٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشهادة على مواجهة الحياة وماف بها جميعا وعلى الكفاح والجلاد فيها كفاحا وجلادا يمكنه من التغلب عليها وإحراز مراتب التعليم التي تؤهله لها كفاياته ومواهبه[1].

كما يناقش هيكل اعتراضا آخر قد يكون أرجح من الاعتراض السابق وزنا ما دمت تريد بالصحفي أن يكون حاصلا على قسط وفير من المعلومات العامة، وما دام الصحفيون يختص كل منهم في ناحية من نواحي الصحافة، وفي فرع من فروعها، ثم ما دامت المدارس العليا كلها تؤهل لقسط من المعلومات العامة وفير، فمالك لا تكتفي بشهادات هذه المدارس العليا سواء في ذلك كليات الجامعة والمدارس الفنية والخصوصية، ليشتغل الميالون بالصحافة وليجدوا في ميدان العمل نفسه ما يكفل وقوفهم على وسائله، بذلك توفر على الحكومة إنشاء مدرسة جديدة، وتكفل بما تقنع من تشريع للصحافة، الرقي بالمهنة إلى المكانة التي تليق بها، والتي تيسر لها أن تقوم بالرسالة العظيمة الملقاة على عاتقها ؟[2].

ويرى هيكل أن هذا الاعتراض مع رجحانه اعتراض ناقص لأنه يرى فنون الصحافة المتفرعة المختلفة في غير حاجة إلى دراسة خاصة في حين أصبحت كل الحرف والفنون في حاجة إلى مثل هذه الدراسة. فالنجارة والحدادة والبرادة وغيرها من الصنائع اليدوية تدرس، ويصل تدريسها في بعض الأحايين ليعتبر فنيا أو خاصا في مثل مدارس الزخرفة وغيرها « فكيف يمكن وهذه الحال أن تكون فنون الصحافة وفيها الطباعة وفيها التصوير وفيها الرسم وفيها الكاريكاتور وفيها الفكاهة وفيها تنظيم الصحيفة بحيث تترك لمجرد المصادفة في تجارب من يشتغل بالعمل الصحفي كما كانت تترك هذه الحرف اليدوية لتدريب وتجارب من يشتغل بها مع أحد الحرفيين الأقدمين. ولو أن هذا الاعتراض أكمل باقتراح جديد لدعاني ذلك إلى التردد بين

(١، ٢) السياسة الاسبوعية: في ١٥ سبتمبر ١٩٢٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاقتراح الأول والاقتراح الجديد. لو أنه أكمل بالاكتفاء بإنشاء مدرسة خاصة يلتحق بها حامل الشهادة العليا من أي من الكليات أو المدارس العليا يدرس فيها تاريخ الصحافة، وتدرس فيها فنونها المختلفة من أخبار وتحرير وتصوير وطباعة وغير ذلك مما يتصل بالصحافة لكان هذا الاقتراح شبيها باقتراح الذين يريدون أن تقتصر مدارس المعلمين على تدريس فنون التعليم والبيداجوجيا تلقى إلى متخرجي كليتي الآداب والعلوم، ولأمكن في هذا الاقتراح أن تتم الدراسة لفنون الصحافة في سنة أو سنتين. وقد يكون لهذا الاقتراح الأخير فضل عملي في أكثر من ناحية. فالذين يلتحقون بمدرسة التخصص للصحافة هذه يكونون أكثر نضجا وأدق تقديرا لمواهبهم من متخرجي المدارس القانوية. ويكونون لذلك أجدى على الصحافة وأكثر فائدة لها »[1].

على أن هيكل يرى في ذلك الاقتراح أنه لا يثمر للمستقبل الثمرة التي يثمرها سابقه. فالصحافة « تخطو بلا نزاع لتكون علما من بين علوم الاجتماع. والصحفي يقدم على اليوم الذي لا نجاح له فيه إلا أن يكون عالما بالصحافة. وقد رأت مصر أن المدارس وحدها لم تخلق طائفة العلماء التي تحتاج كل أمة لها والتي تمد رجال الفن بالغذاء المثمر الواجب لتجدد عبقرياتهم. لهذا رأت نفسها مضطرة إلى أن تخلق قسم الدكتوراه في الحقوق وسترى نفسها مضطرة لخلق مثل هذا القسم في الطب والآداب. فلن تستطيع أمة تخطو في سبيل التقدم ما تخطو مصر أن تعيش عالة على غيرها في شئونها العلمية. ذلك بأن العلم إذا لم يكن له وطن فهو يتأثر بالوطن الذي ينبت فيه تأثرا خاصا. فإذا هو انتقل إلى وطن آخر عاجز عن أن يسبغ عليه صبغته ظل عارية يخشى مستعيرها سوء استعمالها، فهو يفيد منها بمقدار ما تؤهله له معارفه. وما دمنا في سبيل إقامة علوم الحقوق والطب وغيرها في مصر والسعي لنجعل لتجارب

---

(١) السياسة الاسبوعية: في ١٥ سبتمبر ١٩٢٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصر ومقارناتها واستنتاجاتها نصيبا في هذه العلوم فإنا عما قريب مواجهون مشكلة علم الصحافة وإقامته في مصر[1].

« وحل هذه المشكلة يكون يسيرا إذا كانت لدينا مدرسة عالية للصحافة مستكملة النظام، من هذه المدرسة والبحوث التي تكون فيها والتي ننظر إليها جميعا من وجهة اتصالها بالصحافة واستفادة الصحافة منها، يمكن أن نقيم عندنا هذا العلم الصحفي الذي اختلف اعضاء مؤتمر كولونيا في شأنه وإن اتفق العلماء جميعا على إمكانه وضرورته »[2].

ويرى هيكل إلى جانب إنشاء المدرسة العليا للصحافة، أن الصحافة لا تقف أعمالها عند الوظائف الرئيسية فيها. بل هي تتناول وظائف ثانوية « يشغلها في الظرف الحاضر أشخاص وقفوا عند التعليم الابتدائي أو الثانوي وظهرت لبعضهم فيها كفايات ممتازة « وهؤلاء لا بد أن تشملهم نظرية التأهيل الصحفي »[3].

ويخلص هيكل إلى أن « التأهيل الصحفي سيخلق للصحافة رجالا يكونون اليد القوية في قيامها برسالتها الخطيرة. وهذه الرسالة المرتبطة بالتقدم القومي أوثق ارتباط »[4].

تضامن الصحفيين:

ويرى هيكل أن رسالة التأهيل الصحفي، ستمتد لتجعل من الصحفيين طائفة شأنها شأن الطوائف الأخرى، الأمر الذي يجعل إسهام الصحافة في التقدم القومي أمرا فعالا.

ولذلك يعتبر نقابة الصحفيين مظهرا من مظاهر التضامن الصحافي في مصر « ذلك التضامن الذي ارتفع فوق منازعات الأحزاب وربط بين الصحفيين على

(١، ٢، ٣، ٤) السياسة الاسبوعية: في ١٥ سبتمبر ١٩٢٨.

اختلاف منازعهم وألوانهم. هذا التضامن الذي جعل منهم تلك القوة الكبيرة »[1].

ويذكر هيكل في هذا الصدد « مظهرا رائعا من مظاهر تضامن الصحفيين في سنة ١٩٢٤ حين حرمت جريدة السياسة من حضور حفلة افتتاح البرلمان.

ولقد لجأت يومئذٍ إلى زملائنا الصحفيين الوفديين وقلت لهم: إننا صحفيون وإن اختلفت آراؤنا فإننا أسرة واحدة لا يجوز أن يتخلف واحد منها عن نصرة أعضائها، ولقد نصروني وعززوا هذا الرأي »[2].

تلك ملامح سريعة للرؤيا الصحفية عند هيكل، كما استخلصناها من آرائه وكتاباته التي يعالج فيها مهام الكاتب وواجب الصحفي ووسائل إصلاح الصحافة، ومن قبل وجدناه يدافع عن الحريات ويسهم في التشريع الذي يؤكد حرية الصحافة.

على أن هذه الرؤيا ترتبط أساسا بمفهوم هيكل لرسالة الصحافة، كما سبق لأنه يعتبر الصحافة « موجهة للرأي العام ومستودع وحيه. والرأي العام قوة محسوسة ليس كمثلها قوة ما صدرت عن إيمان وعقيدة. وهي كذلك بنوع خاص ما اعتقدت نفسها تدافع عن قضية حق وتدفع اعتداء وقع عليها »[3].

ذلك أن « الصحافة الحرة هي وحدها القوة التي تستطيع أن تزعزع ركن الظلم مع بقائها في حدود القانون لا تملك حكومة أن تمسها من طريق العدالة بسوء. والصحافة الحرة وحدها هي التي تستطيع أن تلقي على ظلمات البغي ضياء يكشف سترها »[4].

وفحوى هذه الرسالة أن تقوم بأداء واجب التقدم القومي، الذي كما

(١، ٢) من محاضرة للدكتور هيكل في نقابة الصحفيين ـ السياسة الاسبوعية في ٢١ مايو ١٩٤٩.

(٣) هيكل وآخرون: السياسة المصرية ص٣٢.

(٤) نفس المرجع ص٣٤.

رأيناه يرتبط بمفهوم هيكل للشخصية المصرية التي صدر عنها في أفكاره وآرائه، فصدر عنها في دعوة الأدب القومي، كما صدر عنها في تحديد رسالة الصحافة، التي قضى فيها يحاول تأكيد جوانبها، سياسيا واجتماعيا وأدبيا، كما رأينا في اتجاهات مقالاته التي عرضنا لها في ثنايا هذا البحث.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الرابع

جريدة « السياسة » اليومية


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نشأة « السياسة » :

نتحدث في هذا الباب عن « الجو السياسي لصحيفة السياسة اليومية، وموقف هيكل منه » فنتحدث عن نشأة السياسة ثم بعد ذلك عن « الجو السياسي » باعتباره كاشفا لمواقف هيكل في « السياسة » وللقضايا الوطنية التي عاشت الصحيفة في كنفها وحددت مواقفها منها.

وقد صدرت جريدة السياسة بعد اختلاف الوفد المصري على تفاصيل الحركة الوطنية، واشتداد الخلاف حين صدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢. وانتفى كل رجاء في الوفاق حين نفت السلطات البريطانية سعد زغلول وبعض صحبه إلى جزيرة سيشل وتجري الانتخابات ويصبح في مصر حزبان سياسيان. حزب الوفد برئاسة سعد زغلول وحزب الأحرار الدستوريين برئاسة عدلي يكن. وتصدر السياسة لسانا لحزب الأحرار الدستوريين ويرأس تحريرها الدكتور هيكل منذ أول صدورها في ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٢٢.

وربما يمكن القول إن هذا التنظيم الحزبي قد أدى إلى تنظيم الاشتغال بالسياسة من حيث البرامج ومن حيث العمل. وذلك لأن التنظيم الحزبي كانت له اتجاهات ومثل، فاتجه الوفد في العهد البرلماني من تاريخنا المعاصر نحو نظام وأهداف « الحزب الواحد » الذي عرفته بعض الأمم في الطور من تاريخ العالم الذي تلا الحرب العالمية الأولى[1]. وتألف حزب الأحرار الدستوريين قبل

---

(١) غربال: تاريخ المفاوضات ج١، ص١١٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صدور الدستور للدفاع عنه كما وضعته اللجنة التي نيط بها وضعه[1]. وللحزب أشباه في الأحزاب السياسية الفرنسية من حيث فلسفة برنامجه، ومن حيث اضطراره ـ في أثناء هذه الفترة من تاريخنا ـ للعمل في الحكم أو في المعارضة مشتركا مع غيره، وكان على العموم حزب موازنة وتلطيف ـ على حد تعبير الاستاذ شفيق غربال[2]ـ وقد سلخت السياسة اليومية في الحياة الحزبية ما ينيف على العشر السنوات من تاريخ مصر منذ صدورها إلى أن احتجبت عن الظهور، وعدم صدورها بانتظام من بعد.

على أن هذه السنوات القلائل التي عاشتها «السياسة» كانت من أحفل السنوات في تاريخ مصر بالأحداث والأفكار الجديدة التي تركت أعمق آثارها فيما بعد في سير التاريخ المصري الحديث وفي تطور الوعي القومي والسياسي والاجتماعي في مصر الحديثة.

وسنقصر هذا الجزء على الأحداث التي مرت بمصر خلال تلك الفترة، وكيف كان موقف هيكل منها.

الجو السياسي للسياسة اليومية:

وعلينا أن نستعرض تلك الأحداث بترتيبها التاريخي أولا.

ففي ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٢ صدرت (السياسة) وفي ١٩ من أبريل سنة ١٩٢٣ صدر الدستور محذوفا من المشروع الذي وضعته لجنة الدستور النصوص الخاصة بالسودان. وصدر في مائة وسبعين مادة بنيت على أساس (أن الأمة مصدر جميع السلطات) وذلك بعد نضال عنيف اشتركت فيه صحف الوفد والأحرار الدستوريون معا.

---

١) هيكل: مذكرات ج١، ص١٤٥.

١) ناريخ المفاوضات ص١١٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ - إعلان الدستور: ابريل سنة ١٩٢٣

وكان من الطبيعي بعد صدور الدستور «أن يبدأ المسئولون هذه المرحلة بتنظيم صفوف الأمة ومرافقها وفق الأوضاع الجديدة التي انتهى إليها جهادها»[١]. فبدأت الحكومة في اتخاذ الاجراءات المعتادة للانتخابات وتهيأت الأحزاب القائمة حينئذٍ لخوض المعركة، وهي: الوفد والأحرار الدستوريون والحزب الوطني. وكان الوفد قد عارض تصريح ٢٨ فبراير وحمل عليه حملة قاسية، وكان من مفهوم هذه الحملة ان يستمر على استنكار التصريح وما ترتب عليه، وخاصة أنه حمل حملة شديدة على لجنة الثلاثين التي أعدت الدستور ووصفها بأنها «لجنة الأشقياء»[٢].

وكانت نظرية الوفد أن الدستور هو أب القوانين وحامي الحقوق والحريات يجب أن تضعه جمعية تأسيسية منتخبة انتخابا حرا، وبذلك لا يكون منحة من أحد أو عرضة للعبث والتعديل. ولما صدر الدستور انتقده الكثيرون في مواضع متعددة، ولكن هذه الانتقادات لم تتجاوز النشر في الصحف أو الخطابة في المجتمعات، وفهم أن الوفد سيشترك في الانتخابات. وكان هذا الموقف من جانبه سببا في حملة من الأحرار الدستوريين عليه، إذ قالوا كيف يستنكر الوفد التصريح والدستور، ثم يشترك في تنفيذهما؟ وقد رد سعد زغلول على ذلك رده المشهور «أن الاستنكار شيء والتنفيذ شيء آخر»[٣].

وقد بدأ هيكل غداة صدور الدستور، يقارن بين نصوصه ونصوص المشروع الذي وضعته اللجنة[٤]. ثم ظهرت صحيفة «الأخبار» وفيها مقال بقلم صاحبها أمين الرافعي[٥]. يظهر فيه هذه الفروق ويتناولها بالتعليق، ويذكر أنه

---

(١) هيكل: مذكرات ج٢، ص١٤.
(٢) هيكل: مذكرات ج١، ص١٦٣.
(٣) زكي عبد القادر: محنة الدستور ص٤٧.
(٤) هيكل: مذكرات ج١، ص١٦٤.
(٥) الأخبار: في ٢٠ ابريل ١٩٢٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أريد بها التضييق من سلطة الأمة، واستبقاء نظم قديمة لا تتفق والحياة البرلمانية الصحيحة التي تجعل مسئولية الوزارة كاملة أمام نواب الأمة، وتحقق المبدأ الأساسي الذي قام عليه الدستور، وهو أن « جميع السلطات مصدرها الأمة ».

يذكر هيكل أن هذا المقال دعاه للتفكير في الطريقة التي يتناول بها التعليق على ما عدلت به بعض مواد الدستور. أيبين أنها سلبت سلطة الأمة؟ أم يفسرها تفسيرا يجعلها، رغم تعديلها تخضع للنظام البرلماني السديد؟ من ذلك أن مشروع الدستور، كما وضعته اللجنة، كان يجعل تعيين الوزراء المفوضين والسفراء من عمل الوزارة، تحمل مسئوليته كما تحمل مسئولية أي تصرف آخر، فعدل النص بأن تعيين السفراء يكون باقتراح وزير الخارجية وموافقة الملك[1]. ومن ذلك أنه أضيفت إلى الدستور مادة تستبقي المعاهد الدينية والتصرف في شئونها، كما كانت عليه قبل صدور الدستور، إلى أن يصدر قانون ينظمها[2].

فذهب هيكل إلى أن التسليم بالرأي الأول يؤدي في نهاية الأمر إلى ما يكاد يكون فصلا بين وزير الخارجية وزملائه الوزراء، من حيث التضامن في المسئولية الوزارية[3]. ورأى كذلك أن النص على بقاء المعاهد الدينية على حالها يقتضي الحكومة والبرلمان الاسراع في إصدار هذا القانون الذي يكمل الدستور، ويزيل من التعارض الذي ينجم عن مخالفة أساس الدستور هيمنة مجلس الوزراء على شئون الدولة جميعا. ويرفع عن الملك مسئولية لا يجوز أن تبقى ملقاة عليه « وإذا كانت وزارة المعارف في فرنسا تسمي وزارة المعارف والأديان، ففي الإمكان اتباع المعاهد الدينية في مصر لوزير المعارف أو لغيره من الوزراء، ليتيسر إجراء حكم الدستور في المسئولية الوزارية على ما يقع في هذه المعاهدة »[4]. ويذهب هيكل إلى أن هذا التعديل لذاته ينطوي على نوايا

(١، ٢) هيكل: مذكرات ج١، ص١٦٥.

٣) السياسة: في ٢١ ابريل، ٢٢، ٢٣ ابريل ١٩٢٣.

٤) السياسة: في ٢١ ابريل، ٢٢، ٢٣ ابريل ١٩٢٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لعل الانجليز ليسوا بعيدين عنها. فهم يريدون أن تكون السياسة الخارجية، وأن يكون الجيش وأن تكون المعاهد الدينية بمنأى عن سلطة الأمة المباشرة لأغراض في نفوسهم. وهم يريدون أن يلصقوا هذه الأغراض بالملك ليقع الخلاف بين المصريين وصاحب العرش، فيستفيدوا هم من هذا الخلاف »[١].

ويتفق هيكل مع الرافعي[٢] في المسألة الخاصة بالتعديل الذي أدخل على النص الخاص بحرية الصحافة. كانت لجنة الدستور قد نصت في مشروعها على أن الصحافة حرة في حدود القانون، وأن الرقابة على الصحف محظورة، وانذارها أو تعطيلها بالطريق الإداري محظور كذلك، فأضيف إلى هذا الحظر فقرة نصها: « الا إذا كان ذلك ضروريا لوقاية النظام الاجتماعي » وقيل في المذكرة التفسيرية، إن القصد بهذه الإضافة حماية البلاد من أخطار الشيوعية. وكان اعتراض هيكل على هذا التعديل أن « تعطيل الصحف ليس هو الأداة الناجعة لحماية البلاد من الشيوعية، وأن هذه الإضافة تغري بسوء استعمال الحق والالتجاء إلى تعطيل الصحف في غير ما وضع النص له »[٣].

٢ ـ إجراء الانتخابات وفوز الوفد:

وتولت وزارة يحيي ابراهيم إجراء الانتخابات ودخلتها الأحزاب الثلاثة: الوفد والأحرار الدستوريون والحزب الوطني وفريق كبير من المستقلين. وقبل إجراء الانتخابات كان لا بد من إلغاء الأحكام العرفية التي كانت قائمة يومئذٍ حتى تنظم الحكومة إجراء الانتخابات في جو من الحرية، وفي ذلك يتساءل هيكل: « كيف يبقى سعد باشا ومن معه في المنفى بعيدين عن مصر؟ لقد قبض عليهم ونفوا بسلطة الأحكام العرفية التي زالت ولهم حق الانتخاب كغيرهم من سائر المصريين، فلا مفر من عودتهم لوطنهم تحقيقا لما كفله

---

(١) السياسة: في ٢١ ابريل، ٢٢، ٢٣ ابريل ١٩٢٣.
(٢) هيكل: مذكرات، ج١ ص١٦٧.
(٣) نفس المرجع ص١٦٧، ١٦٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدستور من أنه لا يجوز نفي مصري من مصر، وليكون لهم أن يشتركوا في المعركة الانتخابية»[1].

وعاد سعد من المنفى في مارس ١٩٢٣ واستقبلته البلاد بحفاوة كبيرة، جعلت الأحرار الدستوريين يفكرون في أثر ذلك على مجرى الانتخاب. وكانوا واثقين من قبل من حصولهم على أغلبية في مجلس النواب الأول[2]، بحكم أنهم الذين وضعوا الدستور، وبحكم أنهم الذين حصلوا على تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، وهو التصريح الذي نقل مصر إلى حالتها الجديدة.

ثم ظهرت نتائج الانتخاب فإذا الوفد يفوز بمائة وخمسة وتسعين مقعدا في البرلمان تاركا للحزب الوطني وحزب الأحرار الدستوريين تسعة عشر مقعدا فقط.

ولم يكن شك منذ ظهرت النتائج الأخيرة في أن الأحرار الدستوريين قد صدمتهم هذه النتيجة صدمة قاسية، على حد تعبير هيكل[3]. فكتب في السياسة يبرز الفرق بين عدد نواب المعارضة، وعدد الأصوات التي نالوها في الانتخاب، وما يدل عليه ذلك من أن التمثيل في البرلمان لا يرسم الصورة الصحيحة لرأي الأمة، وأن الأمة وهي الأصل لا بد متنبهة لذلك مقدرة له، وأن المعارضة خارج البرلمان سيكون لها أثرها الفعال، كما أن قلة عدد المعارضين لا تدل على عجزهم عن تقويم المعوج. «فبرلمان الأمبراطورية الثانية في فرنسا كان فيه خمسة من الجمهوريين فقط، لكن هؤلاء الخمسة هم الذين أوصلوا فرنسا إلى النظام الجمهوري». وردت صحف الوفد على ذلك بعبارات التهكم اللاذع. فمن العناوين التي وضعتها لمقالاتها: «قل موتوا بغيظكم» و«كان هنا حزب وكانت هنا جريدة»[4].

---

(١) هيكل: مذكرات، ج ١ ص ١٦٧، ١٦٩.

(٢، ٣) نفس المرجع ص١٦٩، ١٧٧.

(٤) هيكل: مذكرات ج١، ١٧٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ - صحف الوفد والأحزاب الأخرى:

وإذا كانت «السياسة» هي جريدة الأحرار الدستوريين ولسانهم المعبر عنهم، فإن الوفد لم تكن له صحف رسمية بل كانت له صحف وفدية من أهمها جريدة (البلاغ) لصاحبها عبد القادر حمزة، وقد صدرت في سنة ١٩٢٣ «جريدة يومية سياسية أدبية تجارية» تتمثل بكلمات لسعد زغلول وتحمل على السياسة الانجليزية في مصر وتمثل التطرف السياسي[١]. ثم صدرت جريدة «كوكب الشرق» صحيفة وفدية في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٤ فآخت البلاغ في اتجاهها الحزبي وأعلن صاحبها أحمد حافظ عوض يوم صدورها خطة صحيفته، بأن شعارها سيكون «كما كان شعار الصحف التي سعدت بتحريرها والانتساب إليها، العمل المتواصل لتحقيق هذه الأمنية الوطنية العظمى، ألا وهي استقلال مصر والسودان استقلالا تاما صحيحا»[٢].

ومنذ صدور الدستور المصري في سنة ١٩٢٣ انقسم المصريون شيعًا وأحزابًا، فهناك الوفد وصحافته: «البلاغ» و«كوكب الشرق» وهناك الأحرار الدستوريون وصحيفتهم «السياسة»، ثم تألف حزب جديد عقب مقتل السردار في سنة ١٩٢٤ وهو حزب الاتحاد الذي أنشأ صحيفة لم يؤثر عنها فضل بنشر أو خطر يذكر ثم وجد حزب الشعب في سنة ١٩٣٠ وأصدر صحيفة الشعب وزاملت في الخمول جريدة الاتحاد مع أن هذه الصحيفة كانت تضم أقلاما غنية على علم وفهم إذ كان يحرر فيها ابراهيم عبد القادر المازني[٣].

٤ - وزارة سعد زغلول: ٢٨ يناير ١٩٢٤:

واستقالت وزارة يحيي ابراهيم، وألف سعد الوزارة، فكتبت السياسة ترجو للوزارة الدستورية الأولى التوفيق في المهام الجسيمة التي تنتظرها[٤]. ولكنها

---

(١) ابراهيم عبده: تطور الصحافة ص٢٠٦.

(٢،٣) نفس المرجع ص٢٠٩، ٢١٢.

(٤) السياسة: في ٢٩ يناير ١٩٢٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أخذت على الوزارة أنها ضمت اثنين من الأقباط بينما المألوف أن يكون فيها وزير واحد قبطي، وقالت: «إن الوزارة يمكن أن تكون كلها من الأقباط أو من المسلمين، وإن رئيس الوزراة حر في اختيار زملائه»[١].

ويذكر هيكل أن هذا الاعتدال أثار أنصار الحزب أشد ثورة. وكانت حجتهم أنهم حاربوا الوفد أثناء الانتخابات، فكيف يقابلون وزارته هذه المقابلة، وحاول هيكل «عبثًا أن يقنعهم بأنا يجب أن ننتظر الوزارة لنحاسبها عليها. فلما رأيت حدتهم كتبت في اليوم التالي مقالا عنوانه «يتساءلون» عرضت فيه لسياسة سعد باشا قبل الانتخابات، وتساءلت عما سيكون من عمل الوزراء تنفيذا لهذه السياسة. لقد قال إن تصريح ٢٨ فبراير نكبة وطنية كبرى، فهل هو مستعد للمفاوضة على أساس هذه النكبة الوطنية الكبرى، أم أنه لا يتفاوض قبل التخلص منها[٢] وقد قال إن الدستور من عمل الأشقياء، فهل تراه يبقى الدستور الذي وضعه الأشقياء على حاله أم يعدله؟ وهل يعيده إلى مثل ما كان عليه يوم وضعته لجنة الأشقياء، أم يزيد في تعديله ليجعله أكثر ديمقراطية وتحقيقا لمبدأ: جميع السلطات مصدرها الأمة؟[٣] وهل تراه يسارع إلى مفاوضة الانجليز، أم أنه يحاول كسب الوقت مخافة فشل المفاوضة، وماذا سيكون موقفه بإزاء السودان في المفاوضة وفي الدستور، وهو الذي كرر عبارة شريف باشا: إن السودان ألزم لمصر من الاسكندرية؟[٤] وجرى المقال كله على هذا النحو من التساؤل في غير عنف ومن غير ضعف.

---

(١) السياسة: في ٢٩ يناير ١٩٢٤.

(٢) وكانت السياسة إبان المعركة الانتخابية قد كتبت عدة مقالات ضد سعد وحزبه من خلال تصويره «متناقضا» مع نفسه وآرائه، وخاصة رأيه في تصريح ٢٨ فبراير. السياسة في ٧ أكتوبر ١٩٢٣ والأعداد التالية، أنظر الجزء الخاص «بالدكتور هيكل والأحزاب في الفصل التالي.

(٣) كذلك كتبت السياسة في ٧ أكتوبر ١٩٢٣ مقالا بعنوان «سعد باشا يطعن على الدستور لأن لجنة الدستور وضعته».

(٤) هيكل: مذكرات جـ١، ص١٨١.

٥ ـ البرلمان الأول:

افتتح البرلمان في ١٥ مارس سنة ١٩٢٤، ولأول مرة في تاريخ مصر منذ عهد الاحتلال يكتسب الحكم في مظهره مظهرًا برلمانيا. وتمتعت الصحافة بحريتها، فكان منها صحف معارضة وصحف مؤيدة. وكانت الصحف المعارضة تعالج ما ترى معالجته من موضوعات في حرية كاملة، وكانت تمثل حزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطني وبعض المستقلين، وعلى الرغم من أن هذه المعارضة أخذت على سعد ضيقه بالمناقشة فقد شهد أصحابها للبرلمان الأول بأنه سار سيرة حسنة وكتب لنفسه صفحة بيضاء لم يأخذ عليها عبد الرحمن الرافعي ـ وكان عضوا في البرلمان عن الحزب الوطني ـ أكثر من تصرفه بإزاء قانون الاجتماعات والمظاهرات. وهو القانون الذي صدر في ٣٠ مايو سنة ١٩٢٣ أي قبل افتتاح البرلمان بنحو سنة، وقد أحيل هذا القانون على البرلمان ضمن قوانين أخرى صدرت قبل انعقاده.

على أن هيكل يذكر بأن الأحرار الدستوريين ومحرري السياسة خاصة شعروا بعداوة السعديين لهم و« كانت قراءة جريدة السياسة معتبرة إثما محرما على الوفديين، وكان سعد يقول علنا إنه يقرأ السياسة بالنيابة عن جميع المصريين وإنه يجب ألا يقرأها منهم أحد. رغم ذلك كانوا يتناولونها ويقرأونها خلسة كأنها بعض المحرمات. بهذا أصبحت السياسة وهي الجريدة الوحيدة العنيفة في معارضة الحكومة موضع تقدير الكثيرين تقديرًا كان يزيد سعد مقتا لها وغضبا عليها وبلغ من غضبه اذذاك أن الحكومة حددت يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ لحفلة افتتاح الدورة البرلمانية الأولى وحلف الملك اليمين الدستورية. ودعت لهذه الحفلة التاريخية جميع الصحف المصرية والأجنبية وجميع المراسلين الأجانب وحرمت السياسة من حضور هذه الحفلة[١].

ولما ألقى سعد خطاب العرش الأول، وجدت السياسة فيه مادة للمعارضة

(١) هيكل: مذكرات ج١، ص١٨٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زادت الهوة بينها وبين الحكومة، فقد وصف الخطاب الدستور الذي وضعته «لجنة الأشقياء» وهي اللجنة التي أسست حزب الأحرار الدستوريين، بأنه وضع على أحدث المبادئ العصرية، يقول هيكل: «عندئذٍ صحنا بسعد: أن خطاب العرش تضعه الحكومة على لسان الملك تصور به سياستها. فإذا كان الدستور على أحدث المبادئ العصرية فكيف طوع لنفسه أن يصف واضعيه بأنهم الأشقياء؟ أم أصبح الدستور على أحدث المبادئ العصرية حين أدى به وبحزبه إلى الظفر بمقاعد البرلمان ومناصب الوزارة؟ ولم يتحدث خطاب العرش عن استقلال مصر، بل عن الأماني القومية، فصحنا بسعد مرة أخرى: ألم تكن تعبر خصومك حين يقولون الاستقلال الذي لا شك فيه، فتقول إنك تريد لمصر الاستقلال التام، أو تلقى في سبيل ذلك الموت الزؤام؟»[١].

٦ - مقتل السردار: ١٩ نوفمبر ١٩٢٤:

وقع في ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ حادث الاعتداء على سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام، فتولت «الدهشة المصريين جميعا لهذا الحادث المروع الذي وقع في قلب القاهرة، وبعد أسابيع معدودة من فشل المحادثات بين سعد وماكدونالد بسبب السودان[٢]. «وثارت سلطات الاحتلال ووجهت إنذارا حمله لورد اللنبي في مظاهرة عسكرية كبيرة إلى سعد زغلول».

ومهما يكن من فظاعة الحادث، فإن الانذار بدا منقطع الصلة به ووضح أنه اتخذ وسيلة لإحراج القوة الشعبية وإجبارها على إخلاء مراكزها[٣] وأدى الانذار إلى غايته واضطرت الحكومة الشعبية إلى تقديم استقالتها، بعد أن احتلت قوة من الجيش البريطاني الجمارك ووضح أن هناك اجراءات تعسفية

---

(١) هيكل: مذكرات ج ١ ص ١٨٦.
(٢) هيكل: مذكرات ج١، ص٩.
(٣) زكي عبد القادر: محنة الدستور ص٥٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تنوي الأقدام عليها[1].

ولم يكن أمام « السياسة » بد بعد أن قتل السردار، وبعد أن حمل اللورد اللنبي انذاره العنيف إلى رئيس الوزارة المصرية من أن تقف حملة المعارضة ضد الوزارة »[2].

٧ - وزارة أحمد زيور: ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤:

تسلمت الحكم بعد استعفاء الوزارة الوفدية وزارة ألفها أحمد زيور رئيس مجلس الشيوخ. وكان المفهوم والمنتظر أن تنحصر مهمتها في تسوية الموقف المترتب على الانذارات البريطانية على وجه يقي البلاد بعض شرها ولكن وزارة زيور سلمت تسليما مطلقا، وكان هذا التسليم وسيلة لكسب حياد انجلترا في معركة الدستور التي نشبت في مصر[3].

والواقع أن البرلمان الأول لم يكن مسئولا عن نكبة الانذارات والمطالب الانجليزية بعد قتل السردار. وإنما يرجع الاعتداء على الحياة النيابية إلى دافعين:

أما الدافع الأول فهو كره امتلاك الوفد للأغلبية الساحقة في المجلسين، واجتماع الزعامة الشعبية ورياسة الحكومة في يدي رجل واحد.

وأما الدافع الثاني: فهو ضيق أصحاب المناصب الحكومية والسياسيين الذين تربوا في مدرسة الوظائف بالحياة النيابية[4].

وكان واضحا أن وزارة زيور جاءت للتسليم على طول الخط، أو لانقاذ « ما يمكن إنقاذه » على نحو ما جاء في كلمات رئيسها. وتم تنفيذ الانذار -

---

(١، ٢) هيكل: مذكرات ج١، ص٢٠٩.

(٣) غربال: تاريخ المفاوضات ج١، ص١٦١.

(٤) العقاد: سعد زغلول ص٤٨٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البريطاني بكل ما تضمنه، فأعيد الجيش المصري من السودان، وزيدت المساحة المزروعة قطنا في أرض الجزيرة، وأطلقت يد حكومة السودان في مياه النيل. وسعت الوزارة ـ للقضاء على الروح الدستورية بصدور المرسوم الخاص بتأجيل البرلمان شهرا وذلك في يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٢٤. وقبل نهاية الشهر بيوم واحد صدر المرسوم الملكي بحله. على أن القصد حينما عين زيور رئيسا للوزارة لم يتجه في تشكيل وزارته إلى الانتفاع بالأحرار الدستوريين، مما يدل على أنها كانت تريد أن تكون مطلقة اليد[١]. ولكنها اضطرت حينما انتوت إجراء انتخابات جديدة إلى تعيين اسماعيل صدقي وزيرا للداخلية، وهو حينئذٍ من أقطاب الأحرار الدستوريين أو من أصدقائهم المقربين على أضعف تقدير[٢].

ويذكر هيكل أنه رأى اشتراك صدقي في الوزارة مقدمة لا تبشر بخير[٣]، «على أنني لم أجد كثيرين يشاركونني في هذا التصور. بل رأيت على النقيض من ذلك ابتهاجًا في صفوف الأحرار الدستوريين، يكاد يكون ابتهاج النصر على خصومهم»[٤]، ويرجع ذلك عند هيكل إلى أن الخصومة لا تكون الا بمعارضة برلمانية حرة: «إما أن ينزع الحكم من سعد عن طريق الانجليز، وإما ان يرضى خصوم سعد بذلك، وأن ينتهزها فرصة للوثوب إلى الحكم ـ فذلك ما يجعلني في ريب من أننا سنحقق للبلاد ما تطمع في تحقيقه»[٥].

ولم تغير المناقشات بين هيكل والأحرار الدستوريين من رأي كل منها، وبقي هيكل عند رأيه[٦].

٨ ـ حزب الاتحاد:

ولعل في إنشاء هذا الحزب ما يدعو إلى فهم أن القصر لم يطمئن إلى الأحرار الدستوريين، فأوعز في يناير ١٩٢٥ بإنشاء هذا الحزب الجديد.

(١، ٢) زكي عبد القادر: محنة الدستور ص٥٥.

(٣، ٤) هيكل: مذكرات ج١، ص٢١٣.

(٥، ٦) نفس المرجع ص٢١٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويذكر هيكل في مذكراته[١] بأن « الصحف أعلنت أن جريدة الاتحاد ستظهر لسانا لحزب الاتحاد وأن المسئولين عن هذه الحركة قد اختاروا صديقي وزميلي في تحرير السياسة، الدكتور طه حسين، رئيس تحرير لجريدتهم كما عين يحيي باشا ابراهيم رئيسا للحزب، وعلي ماهر باشا وكيلا له. وظهرت الجريدة الجديدة، فهاجمها الوفديون وهاجموا الحزب الذي تنطق باسمه وردت الجريدة هجومهم، وبدأ محرروها ينهضون بالعبء الملقى على كواهلهم.

على أن هذا الحزب لم يلق استجابة من الرأي العام، بل وجد على النقيض من ذلك انصرافا مرا[٢].

٩ - انتخابات سنة ١٩٢٥:

وأجريت الانتخابات الجديدة ودخلها الوفد والأحرار الدستوريون والحزب الوطني وحزب الاتحاد الجديد. وكان، صدقي « يبذل الجهد غاية الجهد ليصل إلى أغلبية في مجلس النواب الجديد »[٣]. وتدخلت فيها الإدارة جهد ما استطاعت، وعلى الرغم من هذا فقد ظهرت النتائج فإذا الوفد يحصل على ١١٦ مقعدا وتحصل الأحزاب الأخرى على ٨٧ مقعداً[٤].

ولم تجد الحكومة الزيورية بدا من حل هذا المجلس الثاني كما سبق أن حلت المجلس الأول. ويعجب هيكل من هذا القرار: « فالدستور صريح في أن مجلس النواب لا يمكن أن يحل مرتين في دور واحدة للسبب عينه. فكيف سوغت الوزارة لنفسها إذن أن تحل المجلس الجديد يوم انعقاده؟ »[٥].

ويذكر هيكل أن صدقي خشي من أن يمنع هيكل هذا الاعتبار

---

(١) هيكل: مذكرات ج ١ ص ٢٢٧.
(٢) زكي عبد القادر: محنة الدستور ص٥٦.
(٣) هيكل: مذكرات ج١، ص٢٢٤.
(٤) زكي عبد القادر: محنة الدستور ص٥٦.
(٥) هيكل، مذكرات ج١، ص٢٢٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدستوري من تأييد ما حدث، فحرص على أن يقنعه باسم مصلحة الدولة وسلامتها ولكن هيكل تمسك بحكم الدستور[١].

« فهذا الدستور، الذي وضعناه ودافعنا عنه حتى صدر، والذي لم يمض على تنفيذه غير عام وعشرة أيام، يتعرض لما تعرض له. وهذا الطغيان البرلماني الذي ساد البلاد طيلة عهد الوزارة الدستورية الأولى، والذي حاربناه أشد الحرب وأهولها، قد انقضى عهده، ولعله قد انقضى إلى زمن غير قصير. وهذا الحزب الجديد الناشئ في كنف رئيس الديوان الملكي بالنيابة، ما عسى أن يكون مغزى إنشائه، وهل تتعرض البلاد في ظل الفكرة التي أنشأته إلى طغيان جديد؟ »[٢].

١٠ - اجتماع البرلمان من تلقاء نفسه: نوفمبر ١٩٢٥:

وقررت الأحزاب عقد البرلمان في موعده الدستوري وهو يوم السبت ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥: واجتمع أعضاء البرلمان بفندق الكونتننتال، تنفيذا لأحكام المادة ٩٦ من الدستور. واحتجوا على تصرفات الوزارة المخالفة للدستور، وعلى منع الأعضاء من الاجتماع بدار البرلمان، وقرروا عدم الثقة بالوزارة واعتبار دور الانعقاد قائما قانونا، واستمرار اجتماعات المجلسين في المواعيد والأمكنة التي يتفق عليها الأعضاء[٣].

وقعت وزارة زيور في حرج شديد. وخاصة حين انضم أمراء البيت المالك إلى هذه الحركة بعواطفهم وعقولهم وطلبوا إلى الملك إعادة النظام الدستوري، ولم تجد الوزارة أمامها إذذاك إلا طريقا واحدا هو الإعلان عن إجراء انتخابات جديدة. فاستصدرت لذلك مرسوما في ٨ ديسمبر ١٩٢٥[٤].

---

(١) هيكل، مذكرات ج١، ص٢٢٦.

(٢) نفس المرجع ص٢٢٦

(٣) غربال: تاريخ المفاوضات ج١، ص١٦٧.

(٤) نفس المرجع ص١٦٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١١ - الوزارة الائتلافية الأولى: ١٩٢٦:

واتفقت كلمة الأحزاب المعارضة للحكومة على تنظيم معركة الانتخابات بتقسيم الدوائر فيما بينها. وفاز الوفديون بمائة وخمسة وستين مقعدا والدستوريون بتسعة وعشرين ورجال الحزب الوطني بخمسة مقاعد. وعين حسين رشدي رئيسا لمجلس الشيوخ واستقالت وزارة زيور في ٧ يونية. وكان من الطبيعي أن يدعى سعد زغلول زعيم الأغلبية البرلمانية لتأليف الوزارة الجديدة. لكن تدخل لورد لويد منع ذلك[١]. فألف عدلي يكن وزارة ائتلافية، واجتمع البرلمان الجديد يوم ١٠ يونية سنة ١٩٢٦، وانتهى عهد وبدأ عهد آخر، فيه تدخل العلاقات المصرية البريطانية مرحلة جديدة مثقلة بما خلفته الانذارات الانجليزية، وبخطة لورد لويد في تطبيق تحفظات تصريح ٢٨ فبراير. وفي العهد الجديد زاد ضيق مصر بالقيود الدولية والبريطانية، تلك القيود التي شلت حركتها، وأعجزتها أينما تلفتت عن مطاوعة عوامل النهوض[٢].

ويذكر هيكل أنه بهذا العهد انطوت صفحة حزب الاتحاد، وإن بقيت صحيفته تؤيد سياسة محتضرة. وبدأت البلاد تنظر كلها إلى العهد الجديد مملوءة أملا ورجاء، وصارت (السياسة) وكأنها لسان حال هذا العهد الجديد تؤازره وتؤيده، وتجد بذلك انصارا وقراء في كل مكان[٣].

١٢ - وفاة سعد زغلول: ٢٣ اغسطس ١٩٢٧:

« كان الارتياع أشبه الأشياء بوصف ما أصاب الناس من ذلك النبأ الهائل لأن الأذهان لم تتمهد لسماعه بل تمهدت لسماع نقيضه، وكان كل نبأ منظورًا

---

(١) غربال: تاريخ المفاوضات ج ١ ص ١٦٨ - هيكل: مذكرات ج ١ ص ٢٥٢.
(٢) نفس المرجع ص٢٥٢.
(٣) هيكل: مذكرات ج١، ص٢٦١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في تلك المرحلة من مراحل السياسة المصرية الا موت سعد زغلول باشا: الدستور قائم لا يعلم ما مصيره، والمفاوضات على القضية المصرية ماضية لا يعلم ما مصيرها، والمساعي كثيرة، والفروض أكثر وسعد وحده هو ميزان الأمور بين ذلك البحر اللجيّ من المساعي والفروض. على أن الناس بغتوا بالروعة في غير تفكير ولا انتباه لحقيقة ما يروع، يستوي منهم من يكترث للسياسة ومن لا يكترث لها أقل اكتراث »[1].

تلك أبلغ صورة رسمها العقاد لأثر وفاة سعد زغلول في الأمة المصرية فإذا شاركت (السياسة) في مأتم مصر فان مشاركتها لا تعد خروجا على المألوف. لذلك كتب هيكل يرثي للناس سعدا في مقال السياسة الرئيسي[2] كما كتب بعنوان: « مأتم الوطن »[3] يقول: « مات سعد زغلول يا لهول الموقف ويا لقوة المقادير ويا ما أشد حزن مصر على فاجعة لم تترك قلبا إلا أدمته ولا فؤادا إلا سلبته، ولا نفسا الا اهتزت لها فرقا، ولا عقلا الا زلزلت أعصابه زلزالا ». وليس لهذا من تفسير إلا أن الشعور بفداحة هذه الكارثة كان عاما فسما بالعواطف فوق اعتبارات الخصومة الحزبية والخلاف السياسي. كما أن النزعة الأخلاقية التي اكتسبها هيكل من استاذه لطفي السيد، كانت أقوى بكثير من النزعة الحزبية[4].

وزارة مصطفى النحاس الأولى: ١٧ مارس ١٩٢٨:

وبعد استقالة عبد الخالق ثروت، خلفه مصطفى النحاس رئيسا للوزارة في عهد الائتلاف ايضا، اشترك فيها من الدستوريين محمد محمود وجعفر ولي.

---

(١) العقاد: سعد زغلول ص٥٩٥.

(٢) السياسة في ٢٤ اغسطس ١٩٢٧.

(٣) السياسة في ٢٧ اغسطس ١٩٢٧.

(٤) نذكر من ذلك الموقف المشابه الذي وقفه لطفي السيد إزاء وفاة مصطفى كامل، وكان من أول الداعين لإقامة تمثال له ـ هيكل: مذكرات ج١، ص٣٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وواجهت الوزارة الجديدة أول ما واجهت مذكرة من دار المندوب السامي لرئيس الوزارة السابق تاريخها ٤ مارس ولم يتسع الوقت لوزارة ثروت لكي تبت في موضوعها فتركت ذلك للوزارة اللاحقة[١].

وقد واجهت وزارة النحاس المذكرة البريطانية وتولت الرد عليها. ثم تطور الأمر فقدمت دار المندوب السامي إنذارا للحكومة المصرية تطلب فيه منع مشروع قانون الاجتماعات المعروض على البرلمان، وقد أرسل النحاس ردًا قويا على هذا رفض فيه أن يسلم بما تدعيه الحكومة الانجليزية[٢].

وتلا هذه الازمة أزمة داخلية، بدأت باستقالة محمد محمود من الوزارة، ثم استقال الوزير الدستوري جعفر ولي، والوزير الوفدي (إذذاك) أحمد خشبة، والوزير المستقل ابراهيم فهمي كريم، وعلى ذلك تصدع الائتلاف وأقيلت الوزارة في ٢٥ يونية ١٩٢٨[٣].

واتجهت (السياسة) تؤيد موقف محمد محمود والذين معه[٤].

١٤ - وزارة محمد محمود: ٢٧ يونيو ١٩٢٨:

ثم قام محمد محمود بتأليف الوزارة الجديدة من الأحرار الدستوريين والاتحاديين. وبدأ عمله بتأجيل انعقاد البرلمان شهرا. ثم استصدر في ١٩ يوليه سنة ١٩٢٨ أمرا ملكيا بحل مجلس النواب والشيوخ وايقاف تطبيق بعض مواد الدستور[٤]. وغالى محمد محمود في سياسته فقال إنه سيحكم البلاد «بيد من

---

(١) غربال: تاريخ المفاوضات ج١، ص١٩٣.

(٢) تضمنت المذكرة الانجليزية: «لاحظت حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية بعين القلق بعض الأعمال التشريعية التي أقرها البرلمان، والتي إذا عمل بها أضعفت أضعافا جديا من سلطة الهيئات الإدارية المسئولة عن حفظ الأمن وحماية الأشخاص والأموال» - غربال: تاريخ المفاوضات ص١٩٣.

(٣) نفس المرجع ص١٩٦.

(٤) غربال: تاريخ المفاوضات ص١٩٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حديد ، وكان من مظاهر هذه السياسة أنها أعادت العمل بقانون المطبوعات الصادر في سنة ١٨٨١ واستندت عليه في تعطيل عدد من الصحف المعارضة يقرب من المائة ومنها: البلاغ وروز اليوسف وكوكب الشرق، ووادي النيل والأهرام والوطن والأفكار، ولا باتري الفرنسية وغيرها[١].

وفي غيبة البرلمان، بدأ محمد محمود محادثات مع الحكومة البريطانية وانتهى الى مشروع معاهدة، وعرضه على الشعب، فأصر الوفد على أنه لن يقول كلمته الا تحت قبة البرلمان. وظهر أن مقترحات هندرسون التي جاء بها محمد محمود لم تكن مقصودة أن تعرض على الحكومة أو الأحزاب التي تؤيدها وإنما كان مقصودا بها أن تعرض على الشعب والكتلة التي تؤيده[٢].

واستقال محمد محمود في ٢ أكتوبر سنة ١٩٢٩ ، واختير عدلي يكن رئيسا للوزارة، وكان واضحا أن وزارته ليست إلا وزارة انتقال لإجراء انتخابات حرة.

١٥ ـ وزارة النحاس الثانية: يناير ١٩٣٠:

وأجريت الانتخابات في عهد وزارة عدلي يكن، وفاز فيها الوفد الفوز الساحق كعادته، وتألفت الوزارة برياسة مصطفى النحاس في أول يناير ١٩٣٠.

وبدأت المفاوضات الرسمية بين النحاس وهندرسون وزير الخارجية البريطانية وبعد أن أوشكت هذه المفاوضات على النجاح، اصطدمت في آخر لحظة بالنص الخاص بالسودان[٣].

وعاد المفاوضون المصريون من أوربا ، وأحس الجميع أن الوزارة لن تستمر

---

(١) حمزة: أدب المقالة جـ٨ ، ص١٩٤.

(٢) زكي عبد القادر: محنة الدستور ص٨.

(٣) غربال: تاريخ المفاوضات ص٢٢٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طويلا في الحكم، وهذا ما حدث فعلا فقد استقال النحاس في ١٧ يونيو من السنة نفسها، وعهد إلى اسماعيل صدقي بتأليف الوزارة، وقال العارفون حينئذٍ إن التجربة التي قام بها محمد محمود لم تنجح، فلعل صدقي وهو أوسع حيلة وأكثر جرأة يكون أدنى الى التوفيق من سابقه. فاعتمد أولا على الأحرار الدستوريين، ولكن سرعان ما تخلوا عنه حينما أعلن الغاء دستور ١٩٢٣ والبدء في وضع دستور جديد[١]. وقد وقفت السياسة موقف حزبها فأيدت صدقي أول الأمر، ثم انقلب التاييد هجوما صريحا حينما ألغى الدستور.

فلما يئس صدقي من تأييد حزب الأحرار الدستوريين ولم يوفق إلى ما كان يريده، أنشأ حزب الشعب، الذي لم يكن أفضل حالا من سابقه. حزب الاتحاد »[٢].

(١) زكي عبد القادر: محنة الدستور ص٦٩.

(٢) نفس المرجع ص٧٢.



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الخامس

هيكل والقضية الوطنية


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(أ) الدكتور هيكل والاحتلال:

ظلت مصر إلى سنة ١٩١٤، ولاية عثمانية لها استقلالها الداخلي، وكانت انجلترا تحتل كل أراضيها وتصرف كل شئونها الداخلية والخارجية منذ سنة ١٨٨٢.

وكان من نتيجة هذا الوضع، كما يذكر هيكل[١] أن قنصل انجلترا أو العميد البريطاني، كان هو المتصرف المطلق النافذ الكلمة في جميع هذه الشئون. وكان يعاونه وينفذ سياسته طائفة من الموظفين الانجليز متغلغلة في مرافق الدولة جميعا. وكان المستشار الانجليزي في كل وزارة هو الوزير بالفعل. لكن هذا السكون لم يدم طويلا، على حد تعبير هيكل[٢]، فقد أدرك الشعب في أقل من عشرين سنة أن الحرية التي «يمنحها الحاكم المطلق لا قيمة لها ما لم يستطع الشعب الدفاع عنها والاحتفاظ بها، وما قدر الحاكم المطلق على أن يزيد فيها أو ينقص منها حسب هواه. وإدراك الشعب هذه الحقيقة الأولية هو الذي أيقظه ودفعه ليجاهد في سبيل حريته واستقلاله».

ويؤكد هيكل ان الساسة المصريين الأحرار كان لهم حظ عظيم في إيقاظ الشعب وتنبيهه للدفاع عن حريته حتى تكون ملكه ولا تكون منحة يستطيع مانحها أن يستردها: «كان لمصطفى كامل رئيس الحزب الوطني، ولأحمد

(١، ٢) هيكل: مذكرات ج ١، ص ١٠، ١١.

لطفي السيد لسان حزب الأمة، وللشيخ علي يوسف رئيس حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية - كان لهؤلاء ولأصدقائهم وأنصارهم ومعاونيهم أثر بالغ في تحريك الشعور القومي ودفع الشعب نحو الحرية الصحيحة يتمتع بها على أنها ثمرة مجهوده، وليست منحة جادت بها عليه أريحية الحاكمين »[1].

على أن هيكل تلميذ الجريدة، وخطتها في الاعتدال والقول بأن الإصلاح الداخلي بالتعاون مع الاحتلال هو أقوم السبل إلى تحقيق الاستقلال، لم ينصرف عن التيارات الوطنية الأخرى، فهو يرى أن أقطابها أعانوا على « إيقاظ الإدراك القومي وما شهده الشعب بعيني رأسه من ذلة وطنه لا تغني الحرية الفردية الممنوحة عنها شيئًا »[2].

وتأسيسًا على ذلك كان موقف هيكل من ثورة ١٩١٩، هو موقف الوطنيين جميعا، حيث التقت هذه التيارات الوطنية في تيار شعبي جارف. وذلك لأن الفترة السابقة على الثورة كانت بمثابة فترة « الحمل الثوري » بما فيها من تعبئة فكرية وروحية اشتركت فيها جميع التيارات الوطنية. وكان الانجليز أنفسهم - كما وصف هيكل - يفرضون على المصريين ألوانا من البطش والظلم « تشعر المصريين بالذلة وتملأ نفوسهم بثورة الألم »[3] وكانت الامتيازات الأجنبية التي ورثتها مصر عن الدولة العثمانية « تبعث إلى نفوسهم مثل هذا الشعور »[4].

هيكل وثورة ١٩١٩:

وكان من نتيجة الثورة في قاع المجتمع المصري أن اندفع الشعب، والساسة والأحزاب المصرية يجاهدون في سبيل الخلاص من قيودهم ولتحقيق حريتهم واستقلالهم.

---

(١) هيكل: مذكرات ج ١ ص ١١.

(٢) نفس المرجع ص١٢.

(٣، ٤) هيكل: مذكرات ج٢، ص١٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان هيكل في سنة ١٩١٩ قد اكتمل نضجه الفكري واتضحت شخصيته تمام الوضوح، فلم يتردد في اختيار طريقه، لأنه كان قد اختاره من قبل في مدرسة الجريدة، وحين منعت السلطة أعضاء الوفد من السفر إلى باريس، يرى هيكل أن تصرف انجلترا يومئذٍ «لم تمله الحكمة السياسية على الإطلاق، بل أملاه كبرياء الامبراطورية البريطانية الظافرة في الحرب والتي كانت إلى يومئذٍ صاحبة القدح المعلى في الدبلوماسية الدولية. فقد كبر عليها أن يقدم شعب أعزل كمصر، وهو بعد شعب شرقي إسلامي لا تزال بينه وبين مدارج الحضارة الغربية مراحل.. الخ»[1].

ومن هنا قامت معركة الاستقلال المصري ابتداء بعمل حكومي وشعبي معا وابتدأت بالعملين منفصلين ولكنهما متفاهمان، إلى أن بلغا مرحلة المحادثات بين الوفد ولجنة ملنر. ثم جاءت مرحلة المفاوضات الرسمية فعجز الزعماء عن تنظيم العملين من جديد[2].

على أن هيكل كانت له إسهاماته الصحفية في هذه الفترة التي امتدت على طريق ثورة ١٩١٩، وحتى صدرت جريدة السياسة في أكتوبر ١٩٢٢، ولم يجد أمامه غير صحيفة الأهرام التي كانت ملتقى الأقلام الوطنية في هذه الفترة الحاسمة.

ومن تلك المقالات التي تكشفت عن فهم عميق للطبيعة الانجليزية في شخصيتها وسياستها، ما كتبه هيكل بعنوان: «أما بعد فماذا يريد الانجليز»[3] يشير فيها إلى رسالة رئيس الوفد المصري التي تبين رأي الوفد، ويذكر أنها «جاءت أكثر اعتدالا من كل الآراء التي ابداها الوطنيون المصريون إلى الآن، وأشد حرارة في قصد التوفيق بين استقلال مصر التام ومصالح انكلترا

---

(١) هيكل: مذكرات ج١ ص٨٤.
(٢) غربال: تاريخ المفاوضات ص٨٧.
(٣) الأهرام: في ٤ فبراير ١٩٢٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التي لا تتعارض مع الاستقلال التام». ويقول أيضاً:

«.. لم يرد سعد باشا زغلول أن يظهر أمام العالم بمظهر المتعنت في طلبه فرسم أقرب الخطط العملية وأكثرها ملاءمة لكرامة الدولة الانجليزية حتى لا يقال إنه يكره الانجليز على الاعتراف بالهزيمة والعجز بل طلب إليهم أن يبقى الحال كما هو من الجهة المادية عدا ما يختص برفع الأحكام العرفية التي لم يبق من مبرر لوجودها إلا بطش الجبروت وكبرياء القوة»[١].

ويختم المقال بقوله: «..ثم لعل العالم بعد أن يرى ذلك التعنت وبعد أن رأى الضحايا التي تدفعها مصر لحرية العالم إبان الحرب ولحريتها هي من بعد الحرب، يقدر مبلغ ما حاق بمصر من الظلم على يد مؤتمر الصلح الذي كان من مبادئه حق الشعوب في تقرير مصيرها. بل لعله يرى ذلك ويومئذٍ يقدر المصريين على تشبثهم بحقهم تشبث المستيئس بل ويعجب بهم لذلك أيما إعجاب وربما دفعه ضميره لينضم إليهم كما انضم الحلفاء من قبل»[٢].

على أن هيكل يكتب عن القصة المصرية بتفهم وكشف «لنيات الانجليز ومقاصدهم»[٣]، ويرجع «صعوبة ما يرمي إليه الانكليز إلى ما عرفوا به من زمن بعيد من الدقة في المخادعة السياسية، ومن القول بشيء مع قصد شيء آخر ومن أخذ الأشياء على غير ظاهرها. كما أنك ترى رجال السياسة منهم يقولون شيئا وتقول الصحافة المعتبرة لسان حال هؤلاء الرجال أنفسهم شيئا آخر. ثم هم لا يكرهون شيئا أكثر من كراهتهم الصراحة في السياسة. ولا أدل على ذلك من فشل الرئيس ولسن في جعله مفاوضات الصلح علنية كما كان قد ذكر في مبادئه».

ويرى هيكل أن الانجليز «قوم عباد مصلحة ودينهم السياسي أن الغاية تبرر الواسطة. وفكرة المصلحة عندهم هي المتسلطة على كل شيء على نظاماتهم

(١، ٢) الأهرام: في ٤ فبراير ١٩٢٠.
(٣) الأهرام: في ١٩ فبراير ١٩٢٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السياسية والاقتصادية والتعليمية. بل على المبادئ الفلسفية التي يقررها كبار كتابهم وفلاسفتهم فهم يخضعون كل شيء في الوجود لفكرة المصلحة، فالعاطفة والخلق والحق كلهافي نظرهم ألفاظ لا مدلول لها في ذاتها إلا بمقدار ما تخدم المصلحة »[1].

وتأسيسا على هذا الفهم لنيات الانجليز وطبيعتهم يذهب هيكل إلى أن انجلترا « لو استطاعت أن تبتلع مصر وتضمها لها لقمة سائغة فلن يردها عن ذلك أحد » ولكن العوامل الدولية والمصالح العالمية المشتبكة في مصر حالت دون ذلك فنزلت انكلترا إلى الدرجة الثانية بعد الضم وهي درجة الحماية على اعتبار أن المصالح الدولية لا يتنافى وجودها مع هذه الحماية. ولما كانت سياستها سياسة فرص كما قدمنا لم تنتظر أن يكون العالم في سلام وطمأنينة لتستطيع كل دولة أن تنافسها على انفراد بل انتهزت فرصة الحرب وانشغال الدول بها وإيقاف الهيئة النيابية المصرية عن العمل وأعلنت هذه الحماية من تلقاء نفسها معتمدة على وداعة الشعب المصري وسكينته مقتنعة أنه يوم يخرج من الحرب منهوكا كما تخرج كل شعوب أوربا يود يومئذٍ الإخلاد إلى السكينة »[2]. ولكن « الشعب المصري الوديع خيب ظن الانجليز فيه وقام كله رجلا واحدا محتجا على هذه الحماية طالبا الاستقلال التام ». وملأ هذا الشعب المجيد العالم كله بمطلبه والتظلم من الظلم الذي أوقعه العالم به »[3].

ويتابع هيكل سير القضية الوطنية، من خلال هذه الرؤيا للطبيعة الانجليزية في سياستها، ويؤيد الوفد المصري بكل قوته، وحججه القائمة على الفهم العميق للسياسة الانجليزية، ويؤكد أن « الثقة المتبادلة بين هيئة الوفد المحترمة وبين الشعب المجيد الذي أناب الوفد عنه تقتضي تضامنهم جميعا تضامنا تاما باستناد الوفد إلى إرادة الشعب في كل حركة من حركاته واعتماده على مصادقته لكل أمر يتم على يديه وبتأييد الشعب للوفد تأييدًا مخلصًا متينًا يجعل

(١، ٢، ٣) الأهرام: في ٤ فبراير ١٩٢٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للوفد الحجة القوية والكلمة العليا أثناء مفاوضاته واتفاقاته »[1].

ويطالب هيكل بتكوين جمعية وطنية ـ بناء على تصريح رئيس الوفد بانتخاب هيئة نيابية للموافقة على الحل الذي يتم الاتفاق عليه ـ على أن يقوم الانتخاب « على أساس المساواة التامة بين أفراد الشعب سواء كمنتخبين (بالكسر) وكمنتخَبين (بالفتح) ».. ما دامت طبقات الشعب كلها قد اشتركت في المطالبة بالاستقلال وفي توكيل الوفد. وما دام قد انقضى الزمن الذي كان الحكم القديم يضع فيه الامتيازات لبعض الطوائف بقصد استمرار النظام « وما دمنا على أبواب العصر الجديد نريد تحقيق أكبر قسط ممكن من العدالة واشتراك الشعب في الحكم اشتراكا صحيحا حتى تكون المجهودات المشتركة أكثر ما تكون فائدة وجدوى »[2].

ويذهب هيكل إلى أن تحقيق هذا النظام النيابي يحقق من مصر قوة تكفل حفظ النظام والتوازن لفائدة السلام العام في العالم. « وخليق بالأمة التي قامت بالمجهودات العظيمة وهي متضامنة تمام التضامن للوصول إلى استقلالها أن تحتفظ بهذا التضامن الذي سيصل بها حتما إلى غايتها[3] وحين يعود المندوبون الأربعة إلى مصر لاستفتاء الشعب في مشروع الاتفاق بين الوفد والانجليز يدعو هيكل إلى « الحزم » لأنه « يومئذٍ ألزم لنا منه اليوم ألف مرة. فحزم اليوم صبر وثبات وعدم تسرع في إبداء الرأي قبل الوقوف على الخبر اليقين. أما حزم الغد فأناة وتفكير طويلين دقيقن شاملين لمجموع المشروع وتفاصيله منصبين على شكله وموضوعه معنيين بالألفاظ عنايتها بالمعاني »[4].

ويصف هيكل استقبال الأمة لمندوبي الوفد[5] بأنه « مظهر بديع وسيكون

---

(١) الأهرام: في ٢٢ يونيو ١٩٢٠ ـ بعنوان: نظرة للمستقبل.

(٢، ٣) نفس المرجع.

(٤) الأهرام: في ٢ سبتمبر ١٩٢٠ (بعنوان: بأي روح نبحث المعاهدة).

(٥) الأهرام: في ١٠ سبتمبر ١٩٢٠ (بعنوان: استقبال مندوبي الوفد).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اسنى جلالا وأبدع وأبهى حين يصل الشعب إلى تحقيق أمله بالفعل».

على أن هيكل يسجل للحركة التي بحثت بها الأمة المصرية مشروع الاتفاق والتي تناولت عناصر الشعب كله: أن الوعي السياسي يسير مسرعا إلى النضج ودقة الإدراك للحياة السياسية العامة. وأن مصر تريد الاتفاق مع انجلترا على معاهدة ومحالفة وتؤثر هذا الاتفاق على ما سواه»[1].

هيكل وانقسام الوفد:

وحين يقع الخلاف في صفوف الوفد يقف هيكل من ذلك الانقسام موقفا خاصا، فهو يرى أن «قوة مصر في وحدتها، وفي قوة تمثيل الوفد لهذه الوحدة. فإذا ما أصاب أصرة الوفد وهن، تسرب هذا الوهن من الوفد إلى الأمة»[2].

فيكتب هيكل في الأهرام منبهًا إلى ما في هذا الخلاف من جناية على قضية البلاد ومؤكدًا على أن «الوحدة القومية المصرية كانت في هذين العامين مثلا من الأمثال الفذة في التاريخ» وهذه «الوحدة المقدسة بإيمانها القومي لا يمكن أن تعرف خلافا بين الأشخاص، وهي بالأخص لا تريد أن تعرف خلافًا بين العاملين. فإن هؤلاء إنما ينفذون إرادة الأمة ومشيئتها»[3]. و« يواصل الكتابة مؤكدًا على أن الأمة في «حاجة إلى جهد سعد، حاجتها إلى جهد عدلي، وقد كان سعد رجل الثورة، قادها بقوة وحكمة، وكان عدلي في المحادثات مثال الحكمة والأناة والدقة في المفاوضة»[4].

ويدعو هيكل إلى ألا ننشغل عن قضية الاحتلال بأية خلافات بين العاملين

---

(١) الأهرام: في ١١ سبتمبر ١٩٢٠ (بعنوان: ما يطلب من الأمة بشأن الاتفاق).

(٢) هيكل: مذكرات ج١، ص١١٣.

(٣) الأهرام: في ١٨ نوفمبر ١٩٢٠.

(٤) الأهرام: في ٢٥، ٢٧ أكتوبر، ٣، ١٤، ٢٨ نوفمبر ١٩٢٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في قضية الوطن[١].

ولم تلبث انجلترا أن أرسلت التبليغ الخاص بالمفاوضة في إلغاء الحماية[٢] ويقول هيكل إن هذا التبليغ هو الوثيقة الأولى التي أعلنتها انجلترا إلى مصر بعد إعلانها الحماية عليها[٣]. على أن التبليغ في ذاته ـ وثيقة سياسية سقيمة، كما وصفه الاستاذ غربال[٤]. تبرعت في المقدمة بإبداء الأسف على عدم قبول الوفد الرسمي برئاسة عدلي يكن للمقترحات البريطانية[٥]. وقد ناقش هيكل هذا التبليغ، في الأهرام، في مقال جعل عنوانه: «مصر وانجلترا.. قوة الحق وحق القوة»[٦]. يقول في هذا المقال: «وخير وجه مشروع لجهاد القول ابتعاد الحق عنها وتقززه منها. يكفي القوة الظالمة شعاع بسيط من نور الحق ليهديها سبيل الظلم والعسف وليمهد لها خنق الحق في مهده. أما أن تجنب الحق القوة فابتعد عنها ولم يعرها يد معاونة فإنها ترتبك من غير شك في دياجير ظلمها وتضطرب فيما يحيط بها من حالك السواد».

ويدعو هيكل إلى الجهاد: «ولن يكون منا من يتصل بالانجليز إلا نازل عن مصريته لابس لوطنه ثوب الغدر. لن يعرض أحد منا للانجليز بخير ولا بشر. بل ولنلبس حقنا رداءنا: لنخلع هذه المدنية الغربية الشرهة للدم شرهها للمال. ولنرجع إلى شرقيتنا المتقشفة الزاهدة. إنما هي المادة الثقيلة الكثيفة أغرق بها الغرب أرواحنا الشرقية الطاهرة فأذلها واستعبدها. بل إن كسرة من قديم في ملكوت الحرية خير من هذه الطنافس وتلك الطعوم في حكم المذلة»[٧].

---

(١) الأهرام: في ١٤، ١٧، ٣٠ سبتمبر، ٦، ٢٧ أكتوبر ١٩٢٠.
(٢) هيكل: مذكرات ج١، ص١١٥.
(٣) نفس المرجع ص١١٥.
(٤، ٥) تاريخ المفاوضات ص١٠٧.
(٦) الأهرام في ٦ يناير ١٩٢٢.
(٧) نفس المرجع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وما يلبث الانجليز أن يقبضوا على سعد زغلول وفتح الله بركات وعاطف بركات ومصطفى النحاس ومكرم عبيد وسينوت حنا، ويبعثون بهم إلى عدن. عند ذلك ألح عدلي يكن مستعجلا استقالته، وقبلت الاستقالة وبقيت البلاد بغير وزارة[1].

على أن القبض على سعد قد أدى إلى مزيد من تضامن الصفوف في البلاد كما يذكر هيكل، وإلى حركة مقاطعة التجارة البريطانية. وأيقن اللنبي، أن سياسة القوة والبطش لن يكون لها من أثر إلا أن تزيد الموقف بين مصر وانجلترا حرجا ودقة[2].

ويذهب هيكل إلى أن سياسة «الاغتصاب والعسف التي أعلنتها انجلترا ـ كان أهم مظاهرها ـ ما أعلنه المصريون من جانبهم من ضرورة عدم تعاون أحد أبناء مصر مع غاصبي حقوق بلاده المقدسة. وهذه السياسة السلمية السلبية هي التي دفعت بالمصريين جميعا ليعلنوا عدم الرضا عن تأليف وزارة في جو تلك السياسة الظالمة»[3].

ويؤكد أن «إرادة الأمة حينما عرض عليها مشروع ملنر ظاهرة في الشروط التي اشترطها عبد الخالق ثروت إلى حد كبير، فهي ترمي إلى تحقيق كل تحفظات الأمة على المشروع قبل الدخول في أي مفاوضة مع الانجليز. ويكفي أن يكون أهم التحفظات ويقصد به إلغاء الحماية إلغاء صريحا قبل الدخول في أي مفاوضة في مقدمة الشروط المذكورة»[4].

---

(١) هيكل: مذكرات جـ١، ص١٢٧.

(٢) نفس المرجع ص١٢٧.

(٣، ٤) الأهرام: في ٣١ يناير ١٩٢٢.

يذكر هيكل أن ثروت وصدقي كانا على اتصال باللنبي، لوضع صيغة تخرج بمصر وانجلترا من مأزق اللجوء إلى القوة المسلحة، وقيل في ذلك الوقت إن جماعة من المصريين خافوا أن تنجح هذه المساعي، وأنهم دبروا مؤامرة لاغتيال ثروت (المذكرات جـ١ ص١٢٩).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أن اللنبي في الاسبوع الأخير من ديسمبر ١٩٢١ والأول من يناير ١٩٢٢ تحقق له بوساطة أحد معاونيه من الشروط التي يستطيع المعتدلون من السياسيين المصريين وعلى رأس هؤلاء عدلي وثروت[١]ـ أن يقبلوا تأليف الوزارة إذا ما قبلت شروطهم. ورأى اللنبي الغاء الحماية والاعتراف بمصر دولة مستقلة مع الاحتفاظ بما اصطلح عليه « بالتحفظات »[٢]. وطال الأخذ والرد بين اللنبي وحكومته، وفي وقت ما همت الحكومة بعزله من منصبه، ولكنها عدلت بسبب نفوذه، وأخيرا استدعته إلى لندرة وسلمت بمقترحاته[٣].

ويكتب هيكل عن « السياسة المقبلة » يدعو إلى « وحدة الكلمة » و« وحدة الروح القومية » ويقول: « لقد سافر لورد اللنبي إلى لندرة والناس في شك من عودته إلى مصر لاعتقادهم بعدم إمكان التوفيق بين آرائه وآراء حكومته » ويؤسس على ذلك ضرورة وضع المبادئ فوق الأشخاص لتحقيق « شيء من الثقة بين البلدين يجعل تكوين الوزارة ممكنًا ». وحتى يمكن « تكوين برلمان تام السلطة فإذا تكون هذا البرلمان بعد أن يحصل الانتخاب في جو خال من كل شيء اسمه الحكم العرفي، ومن كل قيد استثنائي، وبعد أن يتمتع كل مصري له الحق في الانتخاب بحقه يومئذٍ تكون الحكومة تحت رحمة ثقة الهيئة النائبة عن البلاد نيابة قانونية لا سبيل للطعن عليها »[٤].

العلاقات المصرية البريطانية بعد تصريح ٢٨ فبراير:

والفترة مابين تصريح ٢٨ فبراير وتأليف وزارة الشعب في يناير ١٩٢٤ كانت على حد تعبير شفيق غربال[٥]، فترة بناء للنظام المصري وما أدى إليه من اختلافات أساسية، وكانت أيضا عهد تسوية لبعض العلاقات المصرية

(١، ٢، ٣) غربال: تاريخ المفاوضات ص١٠٩، الماريشال ويفل: اللنبي في مصر ص٦٩.

(٤) الأهرام في ١٨ فبراير ١٩٢٢.

(٥) تاريخ المفاوضات ص١٦٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البريطانية، ومن هذه المسائل ما مس النظام المصري الأساسي في أثناء تحضيره ومن أهمها: التنظيم الحزبي الذي أدى إلى تنظيم الاشتغال بالسياسة من حيث البرامج ومن حيث العمل.

وحدث عقب إعلان التصريح، أن تألفت وزارة عبد الخالق ثروت، وكان طبيعيًا أن يعود الانقسام إلى معسكرين: سعديين وعدليين. ولم يلبث هذا الإنقسام أن زاد حدة حين جاءت الأنباء برأي سعد زغلول من المنفى في تصريح ٢٨ فبراير، وقد عده نكبة وطنية كبرى ونفخت الصحف يومئذٍ في بوق هذا الخلاف[١].

على أن هيكل لا يبدي في هذه الفترة تحيزًا لأي من المعسكرين ويؤكد في سلسلة مقالات بعنوان: «حقيقة موقفنا»[٢] أن ذهنه «لا يعرف التعصب» بل كل فكرة تلقى إليه وكل مسألة تطرح عليه يصح أن تكون عنده «موضعا للجدل ويصح أن تكون ذات أثر في تكوين رأيه إذا هو اقتنع بها». ويقول:

«إن هذا التعصب ليؤذي الموضع الحساس من ذهني لأن معناه فناء شخصية المتعصب فيمن يتعصب له. وأنا أشد إجلالا للشخصية الإنسانية أن ينالها الفناء.

«وأنا أفرق بين الغاية والوسيلة. الغاية هي أقصى مدى ما تريد. هي النصر النهائي على ما كان يسميه الحلفاء. وأما الوسيلة لهذه الغاية فكل عمل يؤدي إليه.

ويحدد موقفه قياسا على هذا المنطق فيقول:

«غايتنا نحن جميعا الاستقلال التام ووسيلتنا إليه حقنا فيه وعدم معاونة

---

(١) هيكل، مذكرات ج١ ص١٣٠.

(٢) الأهرام في ١٣ مارس و٢٠ و٢٧ مارس و٤ ابريل ١٩٢٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الانجليز على سلب هذا الحق. هذا ما فعلناه سنة ١٩١٩ حينما استقالت وزارة رشدي باشا الأولى وأضرب المحامون والموظفون وعمال المواصلات إلى زمن أقنع الانجليز اقناعا صريحا بأنهم لا يستطيعون حكم البلد بسلام الا بمعاونة المصريين إياهم. وذلك ما فعلناه حينما حضرت لجنة ملنر لتنظيم الحماية على مصر فقاطعناها ولم نتقدم إليها.. الخ »[1].

وبالنسبة لتصريح ٢٨ فبراير، فان هيكل قياسا على منطقه كذلك، يرى أن « الواجب الذي نبحث فيه ليس هو قيمة تحقيق التصريح الانجليزي بعد إقرار البرلمان اياه لأمانينا، فلم يقل الانجليز ولم يقل أحد إن هذا التصريح حققها. وإنما الذي يجب البحث فيه بدقة وروية وإمعان وفوق ذلك بتمام الذمة والإخلاص هو الموقف الذي يوقفنا فيه هذا التصريح بإزاء الانجليز »[2].

وفي مقال آخر بعنوان « الحكومة الحاضرة بين المصريين والانجليز »[3]- يناقش وضع وزارة ثروت ورأى السعديين في التصريح ووصفهم اياه بأنه « نكبة وطنية كبرى » وكيف تابعت الوزارة عملها وسط ظروف صعبة، فألّفت إلى جانب لجنة الدستور هيئة من رجال القانون والفقه، كان هيكل أحدهم، تقوم بأعمال أمانتها العامة.

واستعدت مصر لمرحلة أخرى من تاريخها، بعد عودة سعد زغلول من المنفى، واحتفاء الأمة به الاحتفاء الواجب له، وعودة زملائه والإفراج عن المعتقلين.

على أن المرحلة التي عرضنا لها، والتي شارك فيها هيكل بقلمه منذ قامت الثورة في سنة ١٩١٩ وحتى سنة ١٩٢٢، تهدأ أحيانا وتشتعل أحيانا، ولكنها لم تتوقف على الإطلاق، كانت مرحلة الصراع مع الانجليز وخلال هذه

(١، ٢) الأهرام: في ١٣ و٢٠ و٢٧ مارس و٤ أبريل ١٩٢٢.

(٣) الأهرام: في ٢٢ يونيو ١٩٢٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المرحلة كان هيكل سافر الحرب، دائما، على الاحتلال، وان كان ميله بدا واضحا إلى «المعتدلين» من تلاميذ لطفي السيد، وإن كان يجنح إلى التطرف أحيانا كثيرة في هذه المرحلة تجعله مع السعديين على وفاق وربما يرجع ذلك إلى طبيعة الثورة التي تلاقت فيها آراء المعتدلين والمتطرفين حول «غاية» الاستقلال، وما لبثت هذه الآراء أن اختلفت من بعد على «وسيلة» هذا الاستقلال. وحين يرتبط هيكل مع الأحرار الدستوريين في حزب، ويصبح وجها من الوجوه البارزة فيه، يكون قد اتفق معهم في الوسيلة التي تؤدي إلى الاستقلال. فحين كان الصراع في هذه الفترة قائما بين القوى الوطنية بقيادة الوفد وبين الانجليز. لم يكن هناك ـ في البداية ـ معركة أخرى غير هذه المعركة الرئيسية، ولكن سرعان ما حدث ـ الانشقاق عن الوفد. حيث تركه «المعتدلون» الذين تحالفوا مع الثورة في مرحلتها الأولى. ومنذ ذلك الحين انتقلت مصر إلى مرحلة جديدة نتيجة تعدد جبهات الصراع، فبدلا من أن يكون الصراع بين القوى الوطنية والانجليز أصبحت هناك معركة بين القوى الوطنية وبين الانجليز من ناحية، ومعركة أخرى بين هذه القوى وبعضها البعض من ناحية أخرى، وهي الفترة التي يصورها الدكتور طه حسين[1] أبلغ تصوير حين قال إن هذه الفترة كانت «فترة خطيرة في تاريخ الحياة المصرية. كانت فترة الصراع بين المصريين حول وسائل هذا الصراع وحول وسائل التخلص من الانجليز. وكنا نخاصم الانجليز أحيانا. ولكنا كنا نخاصم المصريين في تلك الأيام أكثر مما كنا نخاصم الانجليز».

وعن هذا الصراع يدور الجزء التالي من هذا الباب.

(ب) الدكتور هيكل والأحزاب

كان هيكل يرى أن الاختلاف الحزبي على مسائل بعينها لا يجوز بحال أن يجني على الوحدة القومية في المسائل التي تتفق الأحزاب رأيا عندها[2]. وكان

(١) من كلمته بكتاب «الدكتور محمد حسين هيكل».

(٢) هيكل: مذكرات ج١ ص٢٥٢، ٢٦٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لذلك ـ كما سبق ـ من أشد الناس دعوة إلى الوحدة القومية، ومن أكثرهم اقتناعا بأن هذه الوحدة هي التي تحقق للبلاد أغراضها[1]. وقد وضح إيمانه بهذه الفكرة من وراء وقوفه منذ اللحظة الأولى وراء الوفد، ولذلك نراه من بعد في مقدمة الداعين إلى الائتلاف بين الأحزاب في سنة ١٩٢٦، وإلى تأليف الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٥.

هذا الاتجاه في التفكير السياسي كان عظيم الأثر في سياسة حزب الأحرار الدستوريين، وكان لشخصية هيكل تأثيرها القوي فيما ينصح به من آراء، وما يدلي به من توجيه، نتيجة ما عرف عن هيكل من نزاهة ارتفعت فوق الشبهات. ولقد كانت هذه الصفة تعطي لمقالاته وتوجيهاته احتراما خاصا من القراء والمسئولين، فهي كما رأينا من آثار خلائقه الخاصة، التي أضحت أكثر بروزا ووضوحا في حياته الصحفية، فهيكل يرى الجريمة كل الجريمة في أن يستغل رجل منصبا عاما يتولاه لتحقيق فائدة خاصة لنفسه أو لذويه[2].

من أجل ذلك وجدنا هيكل يواصل في «السياسة» الدعوة إلى الوحدة القومية ذلك أن سياسة العنف والبطش مع المصريين لم تنجح «وصفوفهم متراصة وقلوبهم متحدة، ففتقت الحيلة للساسة البريطانيين، وفي مقدمتهم لورد ملنر، فاعترفت انجلترا بمصر دولة مستقلة ذات سيادة، مع احتفاظها في صورة مطلقة بالحالة الراهنة في الشئون التي تعنيها»[3].

على أن الثورة أسفرت عن مكسب الدستور الذي صدر في سنة ١٩٢٣، ومنذ ذلك اليوم أصبح الهدف الوطني لدى المصريين هو المحافظة على الدستور وتدعيم الديمقراطية، وكانت هناك محاولات من الأحزاب بين الحين والحين للانقضاض على الدستور وتعطيله، وفي هذه المرحلة كان هيكل أمام

---

(١) هيكل: مذكرات ج١ ص٢٥٢، ٢٦٣.

(٢) السياسة الاسبوعية: في ٣ فبراير ١٩٤٠.

(٣) هيكل: مذكرات ج١، ص١٤٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضرورتين لا بد من التوفيق بينهما. الحفاظ على الدستور كأهم مكاسب الثورة المصرية، والالتزام بخطة حزبه، الذي يعبر عنه في « السياسة » وكثيرا ما كانت تختلف الخطة بين الضرورتين. وفي هذه المرحلة يمثل هيكل فترة من أخطر فترات مصر.

ذلك لأن القوى الوطنية كانت تعمل في المرحلة الأولى من الثورة على الغاء الحماية البريطانية والمطالبة بالاستقلال وإقامة حكم دستوري ديمقراطي، وقد ظل المصريون يناضلون بلا هوادة من أجل تحقيق هذه الأهداف التي كانت من أهم ما تطمع إليه مصر آنذاك. واستطاعت القوى الوطنية بالفعل أن تلغي الحماية الانجليزية وتحصل على استقلال « شكلي » تمثل في تصريح ٢٨ فبراير « ويوم أبلغت انجلترا الدول هذا الاعتراف، أبلغتها في الوقت نفسه أنها تعتبر تدخل أية دولة غيرها في شئون مصر عملا غير ودي بالنسبة لها »[١]. كما استطاع النضال المصري أن يحصل على دستور ١٩٢٣، وحمل المصريون من يومئذٍ عبء سياستهم الداخلية، وأعادوا مظاهر سيادتهم الخارجية. ثم أنهم وضعوا دستورهم وأجروا انتخاباتهم، واجتمع برلمانهم وتناحرت أحزابهم، ووقفت انجلترا منهم موقف المتفرج.

ولعلها ذكرت، وهي في موقفها هذا، كلمة السيد جمال الدين الأفغاني « اتفق المصريون على ألا يتفقوا »[٢].

وقد ارتبط هيكل بهذه الأهداف التي أسفرت عنها الثورة، سواء في مرحلتها الأولى كما سبق، أو في المرحلة الثانية. وفي هذه الأخيرة سنجد هيكل يحكم « المنطق » المكتسب من مدرسة الجريدة لعلاج الاصطدام بين اختلاف خطة الحزب، وخطة حماية هذه الأهداف، والذي لم يهدأ منذ إعلان الدستور.

ومن ثم كانت مواقفه حول الوحدة القومية لا تحول السياسة الحزبية دونها

(١، ٢) هيكل: مذكرات ج ١ ص ١٤٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فما كان تأليف حزب الدستوريين ولا التهم التي كيلت له أو اتهام رئيس الحزب من قبل ومن بعد بالخيانة الوطنية[1] ليثنيه عن ذلك، أو ليذهب به مذهب الخصومة الحادة التي تفتت وحدة الأمة[2].

بين هيكل وحزب الوفد:

ويمضي هيكل في تحرير السياسة وفي الدفاع عن سياسة حزبها بذلك الاعتدال فيطمع في السياسة خصومها وتشتد حملتهم عليها وعلى رجال الحزب الذي تنطق بلسانه، فنجد «البلاغ» صحيفة الوفد تعبر عن كراهيتها لحزب الأحرار في مقالات عدة جاء بعضها بعنوان «عدوتنا قديمة»[3] وعنوان «صورتهم الحقيقة»[4] وغيرها وإلى جانب ذلك نجد البلاغ ينشر مجموعات من المقالات الحزبية، ثم يرد على ادعاء الأحرار الدستوريين - كما يقول الدكتور حمزة - بأنهم زعماء الرأي في مصر في أعداد كثيرة. ووقر في نفس البلاغ حينذاك أن هناك دسيسة بين العرش والأمة، وأن حزب الأحرار يكيد للوفد عن طريق هذه الدسيسة. فأراد أن يفضحها على حد قوله[5].

كما نجد العقاد يشن حملة عنيفة ضد الأحرار الدستوريين في البلاغ، ويقول «إن العدليين متهمون في أشياء كثيرة ولكنهم لم يتهمهم أحد بالجنون ولا قال عنهم أحد أنهم من رجال الخيال الجامح والأحلام المتطلعة إلى السحاب... أنهم يجهلون أن حزبهم أقلية صغيرة جدا وأنهم يعترفون بقتله ولكنهم يتعزون أمام الناس بأنهم قلة من المفكرين وأصحاب المصالح لا من غوغاء الشعب ودهمائه[6] ومن مقالات كاتب الوفد الأول أيضا قوله: «ذلك اعتدال القوم وذلك تطرفهم. ذلك معنى صخبهم بأسماء المعتقلين وذلك غرضهم من ضجة

(١، ٢) هيكل: مذكرات ج ١ ص ١٧٠.

(٣، ٤، ٥) الأعداد ١٠٦، ١٠٩، حمزة: أدب المقالة ج٨، ص٢٣٣.

(٦) البلاغ في ٩ فبراير ١٩٢٣ - شرف: عباس العقاد صحفيا (مخطوط).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السودان. ثم يقول القائلون هلموا فاتحدوا.. نتحد مع من يرحمكم الله؟ أتجهلون أنكم تدعون إلى اتحاد مع الانجليز؟ وإلا فما هي السياسة الانجليزية ثم ما هي السياسة العدلية؟ فرقوا بينهما إن كنتم قادرين»[1].

ويتساءل هيكل في مذكراته[2]: «أفكان بين أنصار سعد وبين الأحرار الدستوريين يومئذٍ من الخلاف في المبادئ ما يقتضي هذه الحملات العنيفة من جانب ومن آخر؟».

ويوضح هيكل أنهم كانوا جميعا إلى سنتين قبل هذا التاريخ، يؤلفون هيئة واحدة تسعى لغرض واحد. وكانت وسائلهم في السعي واحدة: الدعاية لاستقلال مصر، والسعي لاتفاق يعقدونه بين انجلترا ومصر المستقلة. لكن التطورات التي حدثت قد أدت إلى هذه الحدة وهذا العنف مع بقاء الجوهر غير مختلف عليه[3]. ويعترف هيكل بأن المزايدات الحزبية التي وقعت نتيجة الخلاف «كانت بالغة الضرر بكل ناحية من نواحي الحياة في مصر: بالناحية السياسية وبالناحية الخلقية، وبالناحية الاجتماعية. فقد صرفت المصريين إلى التناحر بعد أن كانوا كلمة واحدة، فأضعفت موقفهم إزاء انجلترا.. وبلغ من أمر ذلك أن لم يعد في البلد من يصغي إلى نصيحة خالصة أو رأي صادق»[4].

على أن هيكل لم يقف من هذه الصراعات الحزبية موقف المتفرج، فحين تشتد حملة الصحف الوفدية، يقارع الحملة بحملة أشد منها والعنف بعنف أقوى منه فيكتب مقاله المشهور: «اذن فاسمعوا ـ من ذا أضر بمصر» حمل فيه على صحف الوفد وعلى القائمين بتوجيه سياسته من غير نبو في اللفظ أو مقابلة الاتهام باتهام من نوعه، بل الحجة تتلوها الحجة في التدليل على خطل

(١) البلاغ في ١٤ فبراير ١٩٢٣ ـ نفس المرجع.

(٢) هيكل: مذكرات ج ١، ص ١٧٥.

(٣، ٤) المرجع السابق ص٧٥، ١٥١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السياسة الوفدية وما جلبت من ضرر بالقضية الوطنية، على حد ما ذهب إليه هيكل[1].

وتعنف مقالات هيكل النزالية في مواجهة الوفد، فيكتب عن «سر هذه الخصومة»[2] يقول: «...لكن لماذا يبغض سعد الأحرار الدستوريين كل هذا البغض ولماذا يفني في الحملة عليهم كل جهوده اليومية ويكد شيخوخته في الكيد لهم بكل سلاح غير شريف؟. الجواب سهل: أن سعدا بطبيعته رجل مفتون بالسلطان والنفوذ وحب السيطرة. فلما مكنته الظروف من ذلك في صدر الحركة أولع به وازداد افتتانا بالأثرة والسلطان. فعدوه اللدود إذن ليس من يفرط في حقوق الوطن من أشباه نسيم، وإنما عدوه اللدود من يعارض له رأيا أو يلقي عليه سؤالا أو يرفع في وجهه صوتا مهما يكن حقا ومهما يكن واجبا.. الخ».

ويعمر «حديث اليوم» لهيكل بمقالات نزالية ضد الوفد، ترسم في مجموعها حدة الصراع الذي شهدته مصر في هذه الفترة بين الأحزاب وبعضها البعض. فيكتب هيكل بعنوان: «الملك، الدستور، الوفد، سعد زغلول»[3] يقول:

«.. نحن نرى ونجهر بما نرى، نرى أن هذا الدستور في جملته خير يحقق سلطة الأمة وأن تنفيذه وحده هو الذي سيمكن من ظهور ما فيه من عيوب يمكن تعديلها، هذا رأينا في الدستور فنحن لا ننكره ولا نطالب بتعديله الآن ولكن سعدا ينكر الدستور ويطالب بتعديل الدستور ونسيم يصفق لهذا الإنكار وهذا التعديل وهما يضمران فيما بينهما وبين أنفسهما ألا ينكرا ولا يطالبا بالتعديل ولكن الناس لا يقرأون الضمائر وإنما يأخذون رجال السياسة بما يكتبون وما يخطبون» ويبين هيكل حقيقة موقفه من هذا الصراع الحزبي، بأنه

---

(١) هيكل: مذكرات ج ١ ص ١٥١.
(٢) السياسة في ١ أكتوبر ١٩٢٣.
(٣) السياسة في ٢ أكتوبر ١٩٢٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لجأ إلى الحدة نتيجة لما قوبل هو وحزبه من الوفديين من اتهام « بالخيانة وبالمروق من الوطنية »[1]. فلم يكن بد من أن نكيل لهم الصاع صاعين، من غير أن ندفع تهمة بتهمة أو باطلا بباطل كنا نصيح بهم: أن من اتهم مصريا بالخيانة فهو الخائن، لأنه يزعزع عقيدة الأمة في أكرم بنيها، فيفشي فيها أسباب الضعف والهزيمة »[2].

المعركة الانتخابية ضد الوفد:

وفي المعركة الانتخابية الأولى التي اسفرت عن فوز الوفد بأغلبية ساحقة ظهرت حدة الصراع بوضوح بين صحف الوفد من جهة، وبين صحيفة السياسة من جهة أخرى. ونجد هيكل يجند الصحيفة للمعركة الانتخابية، في مواجهة شعبية الوفد. فما هي الطرق التي اتبعها هيكل في هذه الحملة في مواجهة حملات الوفد وصحفه؟

لعل هذه الطرق تنحصر فيما يلي:

أولا: المقال الافتتاحي الذي يكتبه هيكل بعنوانه الثابت « حديث اليوم » والذي خصصه في هذه الحملة لتوجيه النقد إلى تصرفات الدوائر وجهات الإدارة، وتوجيه النقد لتصرفات الخصوم.

ثانيا: العناية بإبراز خطب زعماء الحزب وأحاديث الأعضاء البارزين فيه، والخطب الانتخابية التي كان يلقيها هؤلاء في الأقاليم. ومن ذلك إبراز الخطاب الانتخابي الأول الذي افتتح به محمد محمود وكيل الحزب هذه الحملة الانتخابية، ويذكر هيكل[3] أن هذا الخطاب « كان يترفع عن مقابلة الاتهام بمثله. لكنه فند التهم التي كانت تكال جزافا للأحرار الدستوريين، وجرح السياسة التي يجري عليها الوفد، سياسة الهدم ومحاولة القضاء على الحرية ». ومن

(١، ٢) هيكل: مذكرات ج١، ص١٧٥.

(٣) المرجع نفسه ص ١٧٢.

هذه الخطب التي عنيت السياسة بنشرها خطاب « محمد علي علوبة » سكرتير الحزب ، والذي كان قبل ذلك أمين صندوق الوفد حين كان بباريس ، وأخذ يردد : « اني أتهم سعد زغلول باشا علنا » .

ثالثا : الرد على ادعاءات الصحف الوفدية ، والاهتمام المتواصل بتأكيد أن أكفاء البلاد جميعا في جانب الدستوريين ، وأن هؤلاء الاكفاء هم الذين يستطيعون أن يخدموا بلادهم بإصلاح شئونها في الداخل وتحقيق أغراضها السياسية ، فكان خصومهم يقولون : لكم أن تدعوا من الكفاءة ما شئتم ، فالوطن لا يخدم بالكفاءة بل بالإخلاص ، والإخلاص محصور في سعد وفي الوفد ، ولذلك وجب أن ينتخب من يرشحه الوفد ولو كان حجرا[1] . يقول هيكل : « وكنا نتهكم بهذا القول ، فيفسر تهكمنا على أنه تهكم بالإخلاص وأن مرجع هذا التهكم إلى أننا لسنا المخلصين ، وأن الأمة يجب أن تقاطعنا ، أو أن تحاربنا ، وأن ترى فينا خوارج عليها وعلى عقيدتها وأن تعلم أنا حين نتحدث عن الإصلاح الداخلي فإنما ذلك لنصرفها عن التعلق باستقلالها »[2] .

سلك هيكل كل هذه الطرق في « السياسة » سعيا وراء النجاح في معركة الانتخاب ، وهو مقتنع بأن الدستوريين ، إذا لم يفوزوا بأغلبية فستكون لهم أقلية محترمة : « نستطيع بها أن نعيد الأمور إلى نصابها »[3] .

وندع الطريقتين الأخيرتين ، وننظر فقط في الطريقة الأولى ، وهي التي كان يحررها هيكل بنفسه ، ونعني بها مقالته الافتتاحية : « حديث اليوم » . ومن هذه المقالات التي كتبها في حديث اليوم ، مقالة بعنوان « اقدام واحجام »[4] : « سعى سعد إلى الفوز فسلك إليه كل سبيل وما زال يسعى إلى الفوز ويسلك إليه كل سبيل فهو يهوش وهو ينذر وهو يغري وهو يبث الاتباع والأذناب ،

(١ ، ٢) هيكل : مذكرات ج ١ ص ١٧٤ ، ١٧٦ .

(٣) نفس المرجع ص١٧٦ .

(٤) السياسة : في ٣ اكتوبر ١٩٢٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهو يسرف في الوعد والوعيد، وهو يحمل الناس على أن يقسموا بما يباح وما لا يباح وهو يضع حياة الأسرة وحياة الزوجية موضع المساومات الانتخابية. هو يريد الفوز ويسلك إليه كل سبيل.

« ... ليس أمام سعد الا مذهبان: أحدهما دستوري والآخر استبدادي. ونحن نحب أن نعرف أي المذهبين يختار ولكن على أن يختاره صراحة دون لبس ولا إبهام، ونستطيع أن نؤكد له مخلصين في غير لبس ولا إبهام أننا سنؤيده التأييد كله إن آثر أول المذهبين وسنجاهده الجهاد كله إن آثر المذهب الآخر». ومن ذلك أيضا ما كتبه هيكل في « حديث اليوم » يحمل فيه بسخرية على سعد ويدفع ما يوجه إلى الدستوريين من تهم الخيانة والمروق، فيقول[1]:

« الاحتقار هو العقوبة الوحيدة التي ضربها سعد على الخونة المارقين الذين يخونون الأمة ويموتون من الوطنية. فسعد لا يدعو إلى أن يقتل هؤلاء الخونة أينما وجدوا وحيثما ثقفوا، وسعد لا يدعو إلى أن ينفى هؤلاء الخونة من الأرض، ولا إلى أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ولا إلى أن يصلبوا ولا إلى أن يعذبوا، وإنما يدعو إلى أن يحتقروا.

« ... كلمة، تعمَّد سعد باشا أن يلقيها في غير تحديد ولا توضيح فهي تدل على كل شيء وتشمل كل شيء. ومثلها كلمة الخيانة، بل كلمة الخيانة أوضح وأشد تحديدًا، فالخيانة في رأي سعد هي مخالفة سعد، يلقي سعد هذه الألفاظ مستجمعا حين يلقيها بين القسوة الشديدة جدا والضعف الشديد جدا يبيح كل شيء ولا يبيح شيئًا، يحظر كل شيء ولا يحظر شيئًا ».

كما استخدم هيكل في مقاله الافتتاحي طريقة جديدة في الحملة الانتخابية تأخذ شكل « الاستفتاء » فهو يوجه المقال كله على شكل أسئلة استثنائية في خطاب مفتوح لجماعة من أهل الرأي، ويقصد من وراء الاستفهام فيها

---

(١) السياسة: في ٤ اكتوبر ١٩٢٣ بعنوان: « احتقار ».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« انكار » مزاعم الخصوم أمام الرأي العام. ومن هذه المقالات ما وجهه: « إلى حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأكبر شيخ الجامع الأزهر... » وإلى حضرة صاحب الفضيلة مفتي الديار المصرية.

« وإلى علماء الإسلام كـافـة مهما تختلـف مـذاهبهـم وتتبـايـن آراؤهـم وأهواؤهم[1] ثم يوجه إليهم « الاستفتاء » على هذا النحو، بعد أن يعدد الأشخاص الذين يوجه إليهم الاستفتاء، والذين هم على صلة بموضوعه.

« ما حكم الله عز وجل في قوم انتهزوا فرصة الخلاف السياسي القائم بين أفراد أمة من الأمم فترقوا في الأرض وانبثوا في أقطار البلاد يعينون فريقا على فريق وينصرون حزبا على حزب ويتخذون دين الله الحنيف وسيلة إلى هذه المعونة وسبيلا إلى هذا التأييد فيخلعون هذا الدين الحنيف على قوم وينزعونه من قوم يصفون هؤلاء بأنهم مسلمون بررة وبأنهم مؤمنون أتقياء، ويصفون هؤلاء بأنهم كفرة فجرة وبأنهم مارقون ملحدون، وهم في هذا كله لا يستبينون صوابا ولا يعتمدون على حق ولا يأتون بينة ولا ينطقون عن يقين »[2].

هيكل والوزارة الدستورية الأولى:

كان أمام سعد بعد فوزه طريقان له أن يسلك أيهما شاء ـ على حد تعبير هيكل ـ[3] فاما أن يكتفي بفوزه الحاسم في الانتخابات فيعلن باسم الأمة التي أولته ثقتها، أنه مستعد للتعاون مع خصومه السياسيين حرصا على مصلحة البلاد وأنه لذلك ينسى كل خصومة ماضية، وأما أن يديم الخصومة، ويرى في توليه الحكم وسيلة للقضاء الحاسم على هؤلاء الخصوم السياسيين. ويذكر

(١، ٢) السياسة: في ١٠ أكتوبر ١٩٢٣.

(٣) هيكل: مذكرات ج ١ ص١٨٢.

هيكل[1] أن سعداً قد اختار منذ اليوم الأول هذا الطريق الثاني.

وفي هذه الأثناء يواصل العقاد حملته العنيفة على الأحرار الدستوريين فيقول عنهم: « ... أحرج الأحرار الدستوريون صدور الناس بالعتو والغطرسة والظلم والجبروت أيام ولايتهم الأولى ثم جاءت الوزارة الدستورية فاكتفت من عقوبتهم بعزل بعض رؤسائهم الظاهرين بالصلف والعداوة الذين كان بقاؤهم في الحكم غصة للمحكومين ومخالفة صارخة للدستور »[2].

ويقول ايضا: « ...أترى أن الامهات تدفن أطفالها من اليأس لأن مدير السياسة ناقص من عداد الأربعة عشر مليونا الذين يقيمون في هذه البلاد[3]... الخ ».

ولم يلبث هيكل أن أخذ على سعد زغلول السبيل، ولكن بطريقة تختلف عن طريقة العقاد، ذلك أن هيكل لا يستخدم الألفاظ مثل هذا الاستخدام عند العقاد، وإنما يستخدم الحجة تتلوها الحجة على « خطل السياسة الوفدية فيأخذ على سعد مثلا تصريحه لجريدة « الليبرتيه »[4]: أنه آسف كل الأسف لأن أقاربه غير أكفاء والا لعين منهم في كل مكان، ولكان عنده حينئذٍ إدارة زغلولية بكل معنى الكلمة. فكتب هيكل مقالا بعنوان :« حكومة دستورية أم أسرة زغلولية؟ ».

يذهب فيه الى أن تصريح سعد « لليبرتيه » يعني أنه « لا ثقة له إلا بأقاربه فهو يسمع الآن من كل جانب أن الناس من أنصاره ومن غير أنصاره قلقون للتعيينات التي تمت وهو يعلم أن هذا القلق قد امتد إلى طوائف الأمة جميعا ».

ويكثف هيكل صورة الخصومة السياسية بين الوفد والدستوريين، ونوازع

---

(١) هيكل: مذكرات ج ١ ص١٨٣.
(٢) شرف: عباس العقاد صحفيا ص١٩٧.
(٣) شرف: عباس العقاد صحفيا ص١٩٧.
(٤) السياسة: في ٣ نوفمبر ١٩٢٤.

كل من الجانبين، يقول هيكل[1]: نريد نحن أن نقنع الناس بأننا كنا على حق يوم عارضنا الوفد ويوم ألفنا حزبنا، وأن ما وجه إلينا من التهم التي أدت إلى انتصار الوفد الحاسم في الانتخابات كان باطلا كله.

ويكتب هيكل مقالات « حزب الستمائة التي يقدم من أجلها للمحاكمة في عهدالوزارة الدستورية الأولى كما سيجيء[2] على أن هذه المحاكمة كان لها أثرها في استمرار عنف معارضة هيكل في (السياسة) للوزارة الوفدية.

فحين تفشل مفاوضات سعد ومكدونالد، يتخذ هيكل أسبابا جديدة ـ للمعارضة من خلال المقارنة بين أعمال الوزارة الوفدية في الحكم وأقوال رجالها قبل أن يتولوه.

ومن ذلك قوله في حديث اليوم[3]: « لقد أمضت البلاد ثلاث سنوات لا تسمع فيها من الكتاب ومن الخطباء إلا المطاعن الشخصية يهاجم بها فريق فريقا ويسعى كل من طريقها ليتهم خصومه بأنهم مسئولون عن كيت وكيت مما حصل في الماضي ثم لا يعرض أحد على الأمة خطة للنجاة ولا طريقة للخلاص من انجلترا مع بقاء وحدة الأمة سليمة.

ويكتب في حديث اليوم ايضا بعنوان: « لماذا رفض سعد باشا اليوم.. ما كان قد عرضه بالأمس[4] ذهب فيه إلى أن سعد هو « أول من أوحى للانجليز بفكرة (النقطة العسكرية البريطانية) » وأن سعد قال: « نحن متى ساعدتنا انجلترا على استقلالنا التام فإننا نعطيها ضمانة معقولة في طريقها إلى الهند.. الخ ».

وقد استخدم هيكل في معارضته طريقة « الحديث الصحفي في مقاله

---

(١) السياسة: في ٤ نوفمبر ١٩٢٤.

(٢) مذكرات جـ١ ص١٩٧.

(٣) في الفصل الخاص (هيكل والقضايا الصحفية) من هذا الباب الثاني.

(٤) السياسة في ٢٣ اكتوبر ١٩٢٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اليومي بالسياسة، وقد حدث ذلك بعد أن القى سعد زغلول في خلال المناقشات التي سبقت القرارات التي أصدرها مجلس النواب في جلسة ٩ يوليه ١٩٢٤ ، في موضوع الديون العثمانية المترتبة على الويركو والتي ألزمت مصر بها معاهدة لوزان.

قال سعد : « إن المسألة المطروحة أمام حضراتكم تنقسم إلى قسمين:

الأول: هل مصر ملزمة بالديون التي كانت مترتبة على الويركو أو لا ؟.

الثاني: هل اذا كانت مصر غير ملزمة بهذه الديون يجب عليها أن تتوقف عن الدفع حالا أو لا »[١].

وعلى أثر بيان سعد زغلول سافر هيكل ممثلا للسياسة، إلى الاسكندرية وقابل عبد الخالق ثروت، ونشر معه حديثا في السياسة تحت عنوان مقاله الافتتاحي « حديث اليوم »[٢] ليحقق للرأي العام ما ذكره سعد بأن ثروت تعهد للانجليز في وثيقة سرية بتحمل مصر لديون الجزية، ويلقي هذا الحديث الضوء على حديث كل من سعد وثروت في موضوع أعم من الديون. فكلام سعد حكم عام على سياسة تصريح ٢٨ فبراير برمتها، وكلام ثروت في حديثه مع هيكل دفاع عن تلك السياسة، بما فيها موضوع الديون المضمونة بالجزية المصرية[٣].

وقد استند هيكل على هذا الحديث في إجراء حملة صحفية على وزارة سعد، يهدف منها إلى إبراز أخطائها والتدليل على أن هذه الأخطاء ارتكبت فعلا وأن المسئولية فيها تقع على أفراد معينين في الوزارة الوفدية. ونلمح في حملة هيكل آثارا من عمله في المحاماة في إعداد الحملة التي جند لها مقاله الافتتاحي والمقالات الرئيسية بالصحيفة. والأخبار التي يحصل عليها مندوبو

---

(١) غربال: تاريخ المفاوضات ص١٤١ .

(٢) السياسة: في ١١ يوليو ١٩٢٤ .

(٣) غربال: تاريخ المفاوضات ص١٤١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(السياسة) كما لو كان يعد قضية لتقديمها إلى المحكمة. ولهذا نجد هيكل في الجزء الذي يشارك به في الحملة يقدم وقائع محدودة المعالم تؤيد صحة الاتهام الذي تتضمنه الحملة. وهو لذلك ضمن الحديث المشار إليه أقوال طرفي النزاع ـ وفي المقدمة الطرف المعارض، ولذلك نرى في هذا الحديث جدية يتميز بها هيكل بين كتاب جيله.

ومما كتبه هيكل في هذه الحملة في حديث اليوم مقالا بعنوان: «بين وزيرين»[1] نشره في اليوم التالي لإجراء الحديث مع ثروت مباشرة، وقال فيه ان الملك كلف ثروت بتأليف الوزارة على أثر استقالة عدلي في ٨ سبتمبر ١٩٢١ فرفض ثروت الوزارة، وكاد يقبلها نسيم، ثم قبل ثروت الوزارة بشرط إعلان تصريح ٢٨ فبراير، وفاوض الانجليز حتى قبلوا. ويذهب في نهاية المقال إلى أن «سعد لا يحب ثروت ويريد تلويث اسمه، ويحب نسيم باشا ويريد تبرئته، وهو يعلم أن ثروت بعد أن اقنع الدول بتمثيل مصر في لوزان، أضاع نسيم باشا على مصر هذه الفرصة لأسباب خاصة، بعضها تفسره الأقوال التي حامت حول الأسباب التي أدت إلى استقالة ثروت باشا، وبعضها يفسره عجز نسيم باشا السياسي عجزا أدى إلى كارثة نحو نصوص الدستور الخاصة بأن السودان جزء من مصر».

ولم تتوقف حملة هيكل على الوفد في السياسة، إلا بعد مقتل السردار، وبعد أن حمل اللنبي انذاره العنيف إلى رئيس الوزارة المصرية، وكان رأي هيكل أن تتألف الوزارة وفدية تعتمد على ثقة البرلمان القائم لتعالج الحالة الناجمة عن الجريمة وعن الانذار. وكان حريصا في السياسة على أن يتم الأمر على هذا النحو أشد الحرص. يقول هيكل[2]: «وكانت تساورنا الخشية، يتعجل أحد من أصدقائنا السياسيين اذ يدعى للحكم فيقبله، فنواجه موقفا

(١) السياسة في ١٢ يوليو ١٩٢٤.

(٢) مذكرات ج ، ص٢١١.

بالغا غاية الدقة ونتهم كذل بأننا إنما عارضنا وزارة سعد باشا لنصل نحن إلى الحكم و لو على حساب الحياة البرلمانية ».

هيكل ووزارة محمد محمود:

والموقف المقابل لموقف هيكل من الوفد هو الموقف الخاص إزاء حزبه، حين تولى الحكم بعد وزارة النحاس. ذلك أن محمد محمود قد أساء ببطشته بالدستور إلى الأحرار الدستوريين، بعد أن ائتلفوا مع الوفد لانقاذ الدستور، حتى ليذهب البعض في تفسير ذلك إلى ارتباطهم بالقصر في البطش بالدستور[1].

على أن تشكيل وزارة محمد محمود كان تفجيرا للمعارك الصحفية التي كانت قد هدأت قبل تشكيلها بعامين نتيجة الائتلاف بين الأحزاب الذي انفض بتشكيل هذه الوزارة، وكان من رأي الدستوريين أن الائتلاف لم يكن الا ستارا للأخطاء التي وقعت فيها الحكومة والبرلمان. وأن السياسة تقتضي حلها معا.. ولكي يتم هذا الحل لم يكن هناك طريق في نظر محمد محمود الا وقف الحياة البرلمانية التي كانت تغطي هذه الأخطاء في رأيه. وكان الموقف في رأي خصوم الأغلبية يحتاج الى رجل جريء يضرب بيد من حديد. ومن هنا وصفت جريدة السياسة محمد محمود بأنه صاحب « اليد الحديدية » كانت هذه التسمية مادة واسعة للصحف الاسبوعية الكاريكاتورية[2]. على أن هيكل يسافر قبل أن تبدأ الوزارة عملها إلى ألمانيا للاستشفاء ويحضر ممثلا للصحافة المصرية المؤتمر الدولي بكولونيا ويذكر أنه علم هناك بأن الوزارة اعتزمت إقالة ثلاثة عشر مستشارا بالاستئناف[3]، وقد تحدث في هذا الأمر مع لطفي السيد وحافظ عفيفي بعد عودته إلى الاسكندرية وجعل يدلل على رأيه بحجج أقواها

(١) زكي عبد القادر: محنة الدستور ص٦٧.

(٢) حافظ محمود: المعارك ص٢٤.

(٣) هيكل: مذكرات ج١، ص٢٩٧، ٢٩٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« أن المساس بقدس القضاء خطير النتائج »[1].

ويذكر هيكل أنه اعتزم في السياسة، ألا يدافع عن هذا الإجراء وألا ينشر دفاعا عنه أيا كان مصدره، إلا أن يكون بلاغا رسميا لا حيلة له في منعه. وبقي عند عزمه في ذلك[2].

على أن هيكل أخذ في تأييد سياسة الإصلاح الداخلي، التي سمتها السياسة (سياسة ترتيب البيت) أي أننا قبل أن ننشئ حياة برلمانية وقبل أن نضع اللمسات الأخيرة للسياسة الخارجية ينبغي أن يحصل الشعب على الخدمات التي يحتاجها[3]. وكانت صحف المعارضة تسخر من وزارة محمد محمود واصلاحاتها الداخلية[4].

ويوضح هيكل في مذكراته[5] موقفه من تعديل الدستور، فيرى أن التفكير في ذلك من شأنه أن يجني على مشروع المعاهدة الذي انتهى إليه محمد محمود. ويناشد محمد محمود بألا يفكر في أمر هذا التعديل وإن أدى إلى استقالة الوزارة.

ويقف هيكل موقف التأييد للمفاوضة التي بدأت بين محمد محمود وهندرسون وزير خارجية بريطانيا، ويرى أن أي « عقبات تحول دون نجاحها ستكون ضربة قاضية على سياسة الاتفاق بين مصر وانجلترا مع أنها هي وحدها السياسة التي تؤيد الأمن والنظام في أقطار الشرق الأدنى كلها »[6].

على أن الصحف المعارضة حملت على مشروع المعاهدة وانتقصت منه وقالت إن محمد محمود لم يبق لوزارته حظ من البقاء، بل لقد نشرت صحيفة

---

(١) هيكل: مذكرات ج١، ص٢٩٧، ٢٩٨.

(٢) نفس المرجع ص٢٩٨.

(٣، ٤) حافظ محمود: المعارك ص٢٤- هيكل: مذكرات ج١ ص٢٩٨.

(٥) نفس المرجع ص٣٠٤، ٣٠٥.

(٦) السياسة في ٨ ديسمبر ١٩٢٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البلاغ (مانشيت) بحروف ضخمة جاء فيه: (استقالة، فإلا تكن فإقالة!)[1].

ويقول هيكل إن الحوادث كانت تدل كل يوم على حرج الوزارة إزاء السياسة الانجليزية وإزاء صاحب العرش[2]. وكان رأي هيكل أن «كرامتنا أصبحت في كفة الميزان ما لم تستقل الوزارة» فكتب مقالا بعنوان: «أما لهذا الليل من آخر» طلب فيه إلى الوزارة أن تتخذ خطوة حاسمة تحدد موقفها من كل الظروف المحيطة بها[3].

بين هيكل وصدقي:

وفي عهد صدقي يتعرض الدستور لمحنة ثالثة، حين ألغى دستور ١٩٢٣ وأقام دستورا جديدا عرف بدستور سنة ١٩٣٠.

ويذكر هيكل أن السياسة لم تعارض وزارة صدقي في غداة تأليفها، لأن تلك خطتهم حتى مع الوزارات الوفدية» وحرصت السياسة على إبراز معنى تأييد الوزارة فيما يتفق وسياسة الحزب[4].

على أن هيكل ما يلبث بعد اتفاق صدقي مع الملك على اصدار الدستور أن يتخذ موقف معارضة صريحة قائمة على مبدأ سليم: «هو بعينه المبدأ الذي دافعنا عنه يوم أنشأنا جريدة السياسة، أقصد الدفاع عن الدستور - وعن حقوق الأمة فيه. بذلك فك قلمي من عقاله وانطلق يعبر عن آراء ومبادئ وعواطف انطوت عليها نفسي منذ نشأت، ومنذ عرفت شيئا اسمه الحرية وحقوق الشعب والأفراد في التمتع الصحيح بها[5].

ويوضح هيكل رأيه في دستور صدقي بأن الدافع الحقيقي لتعديل الدستور

(١، ٢) هيكل: مذكرات ج١، ص٣١٣، ٣١٥.
(٣) نفس المرجع ص٣١٥.
(٤) هيكل: مذكرات ج١ ص٣١٥.
(٥) نفس المرجع ص٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يكن فكرة إصلاح، بقدر ما كان تغليبا للسلطة التنفيذية على حقوق الشعب وممثليه في البرلمان[1].

وهكذا انضمت السياسة الى الصحف الأخرى في معارضة صدقي معارضة عنيفة، وكانت هذه المعارضة ـ كما يقول هيكل ـ تلقى سميعا، لأن خطة العنف التي سار هو عليها كانت تعتبر مثالا لما ينطوي عليه الدستور الذي وضعه من مبادئ[2].

وكانت السياسة تصدر كل صباح وفيها أكثر من مقال إلى جانب المقال الافتتاحي (حديث اليوم)، بالغ في المعارضة غاية الشدة. وفيها إلى جانب ذلك صورة كاريكاتورية تعبر عن معنى من المعاني القائمة بنفس الشعب تصويرا لهذا البطش وهذا الطغيان.

وفي إحدى هذه المقالات[3] التي كتبها هيكل سمى دستور سنة ١٩٢٣ دستور الأمة، وسمى دستور صدقي دستور الحكومة، وعقد المقارنة بين الدستورين، فإذا جميع الصحف تتحدث بعد ذلك عن دستور الحكومة ودستور الأمة.

ويذهب هيكل إلى أن الحكومة البريطانية كانت وراء دستور صدقي وأنها «أصرت على أن لا يحدث سوى تغيير يحفظ شكل الدستور؛ وإن ذهبت بالجوهر فيه. ويرى أن انجلترا خدعت في أمرين: الأول أن الأحرار الدستوريين يمكن أن يقبلوا هذه التعديلات على الرغم مما سبق لهم أن قرروه وأعلنوه من أن الدستور لا عيب فيه وإنما العيب عيب قانون الانتخاب. فلما رفض الدستوريون إقرار هذه التعديلات التي تتجاوز الشكل إلى الجوهر كان ذلك صدمة للحكومة البريطانية تلتها صدمة أخرى هي تقديرهم مقاطعة الانتخابات، وتلك هي الثانية التي لم تكن تتوقعها والتي خدعت فيها. فقد

(١، ٢) هيكل: مذكرات ج ١ ص ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٤.

(٣) السياسة: في ٧ نوفمبر ١٩٣٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان في نية الانجليز ـ حتى مع رفض الدستوريين للتعديلات الدستورية ـ أن يدخلوا الانتخاب وبذلك يتسنى إجراء التجربة إلى ختامها، فجاء إعلان المقاطعة من الدستوريين ومن الوفد أيضا محدثا لأزمة جديدة تجعل إجراء الانتخاب مهزلة ويتعذر معها إجراء التجربة مع ستر المظاهرة[1].

«لكن الوزارة الصدقية لم تكن مخدوعة ولا جاهلة بما يكون من الأحرار الدستوريين ما وسعتها المطاولة حتى يتم الاتفاق بينها وبين انجلترا فتكسب تأييدهم لها في حفظ النظام والأمن إلى أن يتيسر لها إصدار الدستور الجديد، وكان الدستوريون يحتملون هذا وفي مأمولهم أن يستطيعوا اقناعها بالعدول عن مس الدستور، فلما اتفقت الوزارة مع انجلترا وبلغت غايتها لم تتردد في التنكر للأحرار الدستوريين وأبت حتى أن تمضي في مناقشتهم»[2].

صدقي وحزب الشعب:

ولكي يؤيد صدقي سياسته بوسيلة تسترها، أنشأ حزب الشعب وجريدة الشعب. وكان رأي هيكل أن الحزب والجريدة من صنع الحكومة[3].

ويرجع إنشاء هذا الحزب ليدحض صدقي ما قيل بأن وزارته لا حزب لها لأنها تصف نفسها بأنها قومية وقد استقال الوزراء الذين كانوا أعضاء في الأحزاب السياسية ليخلصوا من الحزبية وليصبحوا قوميين، وبذلك صارت الوزارة عبارة عن جملة أفراد مستقلين، وما دام أنها قد أصدرت دستورا وقانون انتخاب جديدين فلا مفر من أن تكون لها هيئة سياسية تنتمي إليها في إبان الانتخابات لأن المفروض أن إصدار الدستور وقانون الانتخابات من عملها وأن النجاح في انفاذهما وتقرير نظامها بغيتها. وأنها تنشد البقاء في

(١، ٢) هيكل وآخرون: السياسة المصرية والانقلاب الدستوري ص١٧.

(٣) هيكل: مذكرات ج١، ص٣٤٧.

الحكم وتروم الاستمرار في توليه بعد ذلك »[1].

ولذلك رأت أن يكون لها حزب تخوض به معركة الانتخابات، فإذا فاز كان ذلك فوزا لها يمكنها من البقاء[2].

ويذهب هيكل[3] إلى أن هذا الحزب لا يجتمع حول برنامج سياسي ولا يقيد نفسه أمام الأمة بخطة أو بغاية معينة، ويعلل ذلك بأن الحزب اقترح إنشاءه الانجليز ليخدموا به التجربة التي رأوا في ذلك الظرف اجراءها[4]. ويؤيد هذا ما نشر في ١١ نوفمبر ١٩٣٠ من أن اللجنة التأسيسية للحزب وضعت في مبادئها « استقلال مصر استقلالا تاما والمحافظة على سيادة مصر على السودان، وحقوقها كاملة فيه »، وعدم ارتياح الدوائر الانجليزية إليه، لأن دعوى صدقي « أن خصومه تجار سياسيون، وأنهم لا يواجهون الحقائق ولا يعالجون الأمور بالوسائل العملية، وأن همهم الفوز بتصفيق الشعب »[5]. جعلت الانجليز يرون أن « فاتحته نوع من الدجل الذي يعيبه دولة صدقي باشا ويصفه بأنه اتجار سياسي وبخاصة فيما يتعلق بالسودان »[6]. لذلك لم يلبث حزب الشعب حين تجتمع جمعيته العمومية ويلقي صدقي رئيس الحزب خطاب الافتتاح لا يشير إلى البرنامج بحرف واحد، وينفض الاجتماع والبرنامج لا يوزع على الأعضاء ولا يؤخذ رأيهم فيه ولا تطلب موافقتهم عليه كما هي العادة « وقد كانت نتيجة ذلك أن ظهر حزب لا يعرف لنفسه برنامجا سياسيا »[7].

وقد تعرضت السياسة للتعطيل والإلغاء بسبب معارضتها لصدقي على النحو الذي سبق تفصيله[8]، على أن صدقي لم يجد من وسيلة مع هيكل غير

(١، ٢) السياسة المصرية والانقلاب الدستوري ص١٨.

(٣) مذكرات ج١ ص٣٤٧.

(٤) السياسة المصرية ص١٩.

(٥، ٦، ٧) نفس المرجع ص١٩.

(٨) في الباب الرابع من هذا البحث: « الحيز الزماني ».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إقصائه عن رئاسة تحرير السياسة، فأصدر قانونا للمطبوعات يحرم من رياسة التحرير من صدر ضده حكمان بالإدانة[1].

على أن حملات هيكل قد أسهمت مع غيرها من حملات الصحف الأخرى في اسقاط حكومة صدقي وعدم بلوغها ما كانت تطمح إليه، وقد صورت هذه الحملات صدقي «الذي يفاخر بأنه مصري فلاح» بأنه «يكاد يكون مصريا بالمولد والإقامة أكثر مما هو مصري بالروح والعاطفة، وكأنا بالسلطة والمال والجاه أعز عنده من الأمة التي يلهج أحيانا بالاعتزاز بالانتماء إليها ويخيل لمن يستعرض تصرفه كأن الأجانب ومصالحهم أولى عنده بالرعاية من مصر وحقوقها ومرافقها. فهو وزير لغير مصر وان كان يتولى وزارة مصر»[2].

ويكتب هيكل مودعا صدقي بعد استقالته من الحزب يقول[3] «لعله يذكر جحود هؤلاء الأعضاء الذين جمعهم مع كل فج وناحية، وما أسدى لهم من فضل وما أغدق عليهم من نعم، ولعله يذكر ما في إنكار الجميل من تدهور خلقي يهوي بالأمة التي تتفشى فيها وتحتاج السنين الطوال إلى مكافحته وعلاجه، ولعله يذكر انصراف هؤلاء الناس عنه بعد أن خلقهم خلقا لغير شيء الا الجري وراء منافعهم العاجلة ومصالحهم المادية، لعله يذكر هذا كله ويأسف لهذه الدعارة الخلقية التي هوت من النفوس فهلهلتها وجعلتها تعدو في ركاب كل من يلقي إليها من فتات مائدته بما يشبع بطونها ويسد نهمها إلى الفائدة العاجلة والثورة المجموعة يعلم الرجل ولا يعلم».

(ج) الدكتور هيكل والقصر

اتسم نظام الحكم في مصر - كما نعرف - بعدم الاستقرار طوال الفترة من

(١) هيكل: مذكرات ج١ ص٣٤٧ - أيضا الفصل الخاص بـ« هيكل والقضايا الصحفية».

(٢) السياسة: في ١٠ نوفمبر ١٩٣٠.

(٣) السياسة: في ٧ نوفمبر ١٩٣٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حكم محمد علي إلى حكم فاروق إلى قواعد ثابتة يؤمن بها الجميع ويحترمها الجميع.

وكان من نتائج ذلك أن بقي الخلاف على تعيين الحدود بالدقة بين حقوق الملك بوصفه رئيسا للدولة، وبين حقوق الامة بوصفها مصدر السلطات كلها، قائما منذ أعلنت مصر استقلالها (الشكلي) في ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ إلى أن تنازل الملك السابق فاروق عن العرش في ٢٦ يوليو ١٩٥٢[1]. وكان لهذا الخلاف آثاره في وضع الدستور، ثم كانت له آثاره في تطبيق الدستور بعد اعلانه ونفاذه في سنة ١٩٢٤.

وقد ظهر هذا الخلاف أول ما ظهر في اللجنة التي وضعت الدستور في تيارات مختلفة أشار إليها هيكل[2] أحد أعضاء هذه اللجنة - فهناك تيار كان «يرى أن البلاد - وهي لم تبلغ بعد من مراحل التعليم العام والثقافة البرلمانية مبلغ الدول الغربية - جدير بها أن يكون لصاحب العرش فيها من الحقوق ما يكبح من جماح الأهواء الحزبية، وبخاصة بعد الذي رأوه من انقسام الأمة واتجاه الكثرة إلى ناحية لا تقرها السياسة الواقعية بحال، والتيار الثاني «على العكس من ذلك يرى أن تطبيق المبدأ الاساسي الذي يقوم عليه الدستور، وهو أن مصدر السلطات كلها الامة تطبيقا لا هوادة ولا مساومة فيه على نحو ما هو حادث في انجلترا، هو وحده الكفيل بأن تبلغ الأمة في أقصر وقت نضجها الكامل بالاستفادة من أخطائها إذا وقعت أخطاء، أما التسليم بالرقابة على السلطات الدستورية لغير ممثلي الأمة فيعوق هذا النضج ويطيل - أمده»[3].

خولف الدستور أول ما خولف بعد سنة واحدة من نفاذه، وذلك حين حل مجلس النواب في الأيام الأخيرة من سنة ١٩٢٤، وأجريت الانتخابات

---

(١) هيكل: مذكرات، ج٢، ص١٩.

(٢، ٣) نفس المرجع ج١ ص١٣٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واجتمع البرلمان في مارس ١٩٢٥ ، وتبين يوم اجتماعه أن أغلبية المجلس الجديد في يوم اجتماعه[١] .

وخولف الدستور للمرة الثانية في سنة ١٩٢٨ مخالفة جعلت الملك، لا الأمة مصدر السلطات جميعها ، ذلك حين أقال الملك فؤاد أول وزارة ألفها مصطفى النحاس فقبلت تلك الوزارة هذه الإقالة كما يقبل الموظف قرار مجلس الوزراء بفصله أو بإحالته إلى المعاش[٢]. وتألفت على أثر هذه الإقالة وزارة جديدة صان تأليفها إقرار من جانب الملك في إقالة الوزارة بكلمة منه. بذلك اجتمعت - كما يقول هيكل - في يد الملك حقوق الأمة كلها فهو يقيل الوزارة يوم يشاء ، وهو يعين وزارة تحل مجلس النواب ، فإذا جاء المجلس الجديد على غير ما يريد ، حله[٣]. ويذهب هيكل إلى أن: الملك لم يكن في ذلك مطلق اليد دون رقيب. فقد دلت الحوادث خلال ثمان وعشرين سنة منذ صدور الدستور ، على أنه لم يلجأ لإقالة وزارة من الوزارات، ولا لحل مجلس النواب، إلا حين كانت علاقات مصر وانجلترا تضطرب أو يخشى اضطرابها ، مما يشهد بأن ما انتقل إلى يد الملك من حقوق الأمة قد كان قسمة بينه وبين انجلترا ، وكان لانجلترا منه نصيب الأسد، بل كان لها النصيب كله إلا ما تركته مختارا للملك جزاء له عن وفائه لها وصدق إخلاصه في احترام سياستها. وقد بدا ذلك صريحا أثناء الحرب العالمية الثانية ، لكنه كان الواقع دائما ، وإن بقي خفيًا مستورا. وكان لهذا أثره كذلك في كل رئيس وزارة تولى الحكم في مصر[٤] .

وقد اتسمت مواقف هيكل إزاء القصر بمواقف الدفاع عن الدستور ، ذلك أن مصر « إذا كانت قد ثارت مرة دفاعا عن حقوق الأمة التي جعلها

---

(١) هيكل: مذكرات ج ٢ ، ص ١٩ .
(٢، ٣) هيكل: مذكرات ج٢ ص١٩
(٤) نفس المرجع ص٢٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدستور وديعة في يد الوزارة فإنا نعتقد أنها تفعل مثل ما فعلت أمس دفاعا عن حقوق الأمة التي جعلها الدستور وديعة في يد صاحب العرش »[1].

ولذلك أيضا وجدنا هيكل يقف موقفه الشجاع حين أراد الملك فؤاد أن يكون خليفة للمسلمين، ويؤيد قضية كتاب « الإسلام وأصول الحكم » كما سنرى[2].

على أن القصر قد تمادى في عدوانه على التقاليد الدستورية، وخروجه عنها فأنشأ لنفسه حزبا أسماه حزب الاتحاد. وكان هدفه الأول والأخير هو مساندة الملك. كما كان هدف حزب الشعب هو مساندة صدقي. ويذكر هيكل أن حزب الاتحاد نشأ في أول أمره غريبا مريبا، فقد قيل إنه يتألف صديقا لحزب الأحرار الدستوريين. بل قيل أكثر من ذلك إن من زعماء الأحرار الدستوريين من ينصحون لبعض رجالهم بالانضمام لهذا الحزب الجديد[3]. ويشير هيكل إلى صلة الحزب بالقصر، ويذكر أنه اتصل بحسن نشأت ليقف منه على جلية الخبر فقال له: « ان بالبلد حزبين لا ثالث لهما: الوفد والأحرار الدستوريون. وقد تغلب الوفد في الانتخابات الأولى ووصل إلى مقاعد الحكم حتى لقد ظن البعض وقتئذٍ أن الأحرار الدستوريين قضي عليهم قضاء حاسما، لكنهم ما لبثوا حين ثبتوا للموقعة بعد الهزيمة، أن بدأوا يكسبون الرأي العام. ولو أنهم كسبوا المعركة الانتخابية من الوفد وتولوا هم الحكم، لاستأثروا بالأمر فيه كما استأثر به الوفد، ولبقي القصر ينظر إلى هذا كله وليس له من الأمر شيء.. فتأليف هذا الحزب الجديد يراد به أن يكون حزب موازنة في البرلمان يستطيع القصر به أن يغلب أحد الحزبين على الآخر فيما يرى فيه

(١) السياسة في ٢٥ اكتوبر ١٩٣٧ (بعنوان: حقوق الملك).

(٢) في الفصل الخاص « بالدكتور هيكل والقضايا الفكرية ».

(٣) هيكل: مذكرات ج١، ص٢٢٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصلحة البلاد من غير حاجة إلى حل مجلس النواب وإجراء انتخابات جديدة[1].

على أن رأي هيكل[2] يذهب إلى غير ذلك تأسيسا على أن النظام البرلماني أو النيابي السليم هو الذي يقوم على حزبين كما هي الحال في انجلترا وفي أمريكا. وقد «أثبتت التجارب صلاح هذا النظام، وفساد غيره من النظم التي تقوم على تعدد الأحزاب، وأن حقوق القصر الدستورية تقف عند ابداء الرأي - والنصيحة. فإذا أيقن الملك أن الحكومة لم تعد تمثل الأمة، حل مجلس النواب ورجع الأمر للأمة»[3].

وأيا كان الأمر فإن موقف حزب الأحرار الدستوريين من القصر، كان موقف تقارب بحكم الاتفاق على هدف واحد هو: محاربة الوفد. فبعد أن كان القصر يكره طبقة «الأعيان» في أول الاحتلال كراهية مطلقة، اضطر في بعض الأحيان إلى التحالف معهم ضد الكتلة الغالبة في الشعب»[4].

على أن تفسير ذلك الاقتراب الموسمي - على حد تعبير زكي عبد القادر[5] - بين القصر والدستوريين لم يكن أبدا دليلا على أنهما أصبحا قوة واحدة. فالواقع أن الافتراق القديم الذي بدأ بينهما جليا في حزب الأمة، ومنذ نشأت هذه الطبقة ظل كما هو وكل ما في الأمر أنه حينما كانت الموجة الشعبية تطغى، كان الأحرار الدستوريون يرون أن مصالحهم أصبحت في خطر، ومن ثم كانوا يلجأون إلى القصر الذي كان يرحب بهم، ويرى أنه يستطيع بمعاونتهم أن يبطش بالحركة الوطنية[6]، كما رأينا في عهد وزارة محمد محمود.

(١) هيكل: مذكرات ج ١ ص ٢٢٣.
(٢، ٣) نفس المرجع ص٢٢٤.
(٤) محنة الدستور ص٤٤.
(٥) محنة الدستور ص٤٤.
(٦) نفس المرجع ص٤٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أن ذلك لم يحل دون أن يكون لهيكل مواقفه إزاء القصر التي قد تتفق أو تختلف مع سياسة الحزب. ومن ذلك حملته الشديدة على حزب الاتحاد والتي لم تنقطع طوال فترة حكمهم بالاشتراك مع الأحرار الدستوريين، وازدياد الحملة عنفا بعد تخلي الدستوريين عن الاشتراك في الوزارة[1]. وكان فيها من التهكم بهذا الحزب الجديد ما جعله منذ مولده هزيلا ضعيفا غاية الضعف[2].

وما لبثت (السياسة) أن التقت مع صحف الوفد في هجومها على وزارة زيور التي ضمت رجال القصر من حزب الاتحاد، دفاعا عن الدستور، وعما تتعرض له الحياة النيابية نتيجة لسياسة القصر، كما اتحدت وجهة الأحزاب كلها لمقاومة هذه السياسة[3].

ويذكر هيكل أن لهجة صحف الوفد في حديثها عن الأحرار الدستوريين ولهجة السياسة في حديثها عن الوفد لم يبق فيهما شيء من المرارة والعنف اللذين ألفهما الناس منذ ظهرت جريدة السياسة، بل اتجه التيار صلة لمقاومة هذه النزعة الدكتاتورية التي كان حزب الاتحاد مظهرها ورمزها، والتي أدت إلى إقالة رئيس الأحرار الدستوريين[4].

وكان من نتيجة اتفاق الصحف، أن اتفقت الأحزاب درءًا للخطر الذي تواجهه البلاد في حياتها الدستورية. وكان رأي هيكل يومئذٍ[5] أن خير أساس لهذا التفاهم بين الأحزاب احترام الدستور نصا وروحا. ونتيجة لهذا التفاهم اتفقت كلمة الأحزاب ممثلة في جميع أحزابها، خلا حزب الاتحاد، على مقاومة السياسة التي يراد فرضها على البلاد، والتي تقوض ركن الدستور والحياة النيابية من أساسه[6]

(١، ٢) هيكل: مذكرات ج١ ص٢٢٦، ٢٤٥.

(٣) نفس المرجع ص٢٤٥- السياسة: في ٧، ٨، ٩ نوفمبر ١٩٢٥.

(٤) هيكل: مذكرات ج١ ص٢٤٨.

(٥) المرجع السابق ص ٢٤٩.

(٦) المرجع السابق ص٣٤٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن جهة أخرى فإن الملك فؤاد كان ينظر إلى الدستوريين ـ على ما يذكر هيكل ـ نظرة توجس وعدم رضا، وذلك لأن حزب الأحرار الدستوريين تألف في سنة ١٩٢٢ من أعضاء لجنة الدستور التي حرصت على توسيع حقوق الأمة وتضييق حقوق العرش[١]. ثم كان لصحيفة السياسة قسطها الكبير في معارضة الدستور الذي صدر به الأمر الملكي في سنة ١٩٣٠، معارضة انتهت إلى الغاء الدستور وإعادة دستور ١٩٢٣.

على أن هيكل يبقى عند موقفه حينما تتجه النية لحرمان الأغلبية من الحكم، فيؤكد أن «الدستور وحدة متماسكة تقوم كلها معا أو لا تقوم. وهذا هو معنى القسم الذي أوجبه الدستور على الملك وعلى الوزراء، وعلى أعضاء البرلمان جميعا أن يحترموا الدستور وقوانين البلاد. والدساتير يوم وضعت لم يكن القصد منها أن تتولى الأغلبية أو الأقلية أو أن يتولى الملك الحكم، وإنما كان الغرض الأول منها احترام الحريات لأفراد الشعب جميعا واقرار المساواة بينهم. وهذا ما كفله الدستور المصري في أول باب من أبوابه إشارة إلى جلال خطره. ولهذا قرر الدستور إمكان تعديل أحكامه جميعا خلا هذه الحقوق الاساسية التي قررها للشعب وكفلها كفالة خاصة: فإذا لم تحترم السلطة التنفيذية أو لم تحترم الأغلبية هذه الأحكام، كانت ثائرة بالدستور حانثة بقسمها أن تحترمه وتحترم قوانين البلاد. وإذا ثارت السلطة التنفيذية بالدستور وأحكامه، كان من حق الشعب ومن حق كل طائفة من طوائفه أن تثور بها وأن تعمل على إجلائها عن الحكم. أما أن يخضع الشعب، وأن تخضع طوائفه جميعا لسلطان الإرهاب، وأن يقال أن ذلك هو حكم الدستور لأن الوزارة تستند إلى أغلبية برلمانية فذلك ما لا نقره[٢].

ويذكر حافظ محمود في «ذكرياته»[٣] أن الأحرار الدستوريين رغم

(١) هيكل: مذكرات ج٢ ص٤٤.
(٢) المرجع السابق ص ٤٦.
(٣) المرجع السابق ص ٤١.

ارتياحهم للخلاف الذي نشب بين الوفد والقصر، إلا أنهم لم يشاركوا فيه من الناحية الصحفية فعلق على هذا الموقف حسن نشأت ـ الذي كان يريد أن يأخذ بثاره القديم من الدستوريين ـ بمقال أكد فيه أن الدستوريين وراء هذه المعركة لأنهم يتطلعون إلى الحكم، وإلى ما هو أبعد من الحكم. وعند كلمة «ما هو أبعد من الحكم» استشهد نشأت بفقرات من مذكرات لورد لويد الذي كان مندوبا ساميا في مصر، وقد جاء في هذه الفقرات أن الدستوريين وان كانوا يمثلون طبقة الارستقراطية إلا أن لهم تطلعات جمهورية.

فرد هيكل بمقال جاء فيه: أما الخلافات السياسية فلسنا نحن الذين نقف خلفها، بل أمامها.. وأما أن لنا تطلعات جمهورية فهذا شرف لا ندعيه[1].

كما يحدثني الاستاذ حافظ محمود، أن هيكل حين كان رئيسا للشيوخ، شهد كرسي الرياسة في هذا المجلس أكبر امتحان هو استجواب الأسلحة الفاسدة: «يومئذٍ تكهرب الجو بين مجلس الشيوخ وبين القصر وبذلت المساعي كي يلقي رئيس المجلس هيكل كلمة في الجلسة الثانية يلطف بها حدة الموقف على القصر الملكي فكانت كلمته في الجلسة التالية: «انني في هذا الكرسي حفيظ على الدستور»... وازداد تكهرب الجو من جديد.. وخرج هيكل من مجلس الشيوخ».

وصفوة القول ان مواقف هيكل من القصر في مجموعها هي مواقف الدفاع عن الدستور، وعن كون الشعب مصدرا للسلطات.

وذلك ما يلخصه سلامة موسى في قوله[2]: «لا أستطيع أن أنسى أنه بعد أن مهد الطريق لاسماعيل صدقي في سنة ١٩٣٠ سارع إلى مقاومته في شجاعة نادرة عندما وثق أنه ينوي تحطيم الحياةالنيابية في مصر. بل أنه وقتئذٍ هدد الملك الأعمى فؤاد إذا لم يرد الدستور للبلاد.

---

(١) هيكل: مذكرات ج ٢ ص ٤١.

(٢) الأخبار: في ١٦ ديسمبر ١٩٥٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« وكذلك لا أنسى، عندما استفحل الدمار في شأن الأسلحة الفاسدة، أنه أتاح للأعضاء في مجلس الشيوخ أن يبحثوا الموضوع ويفضحوا المجرمين بنشر جرائمهم. ثم لما ترك المجلس، أو طرد منه، تحدى فاروق بقوله إن الذي أدخل الانجليز ليس هو عرابي وإنما هو توفيق ابن عم فاروق »[1].

ومن ذلك أيضا ما يرويه حافظ محمود[2] سكرتير تحرير « السياسة » آنئذٍ. قال: ذات صيف كان يزور أوربا ويتولى رئاسة التحرير نيابة عنه المرحوم الدكتور محمود عزمي، وكتب مقالا اعتبر عيبا في الذات الملكية، وقدم بسببه للمحاكمة.

« يومئذٍ رأى الابراشي، وكان قائما بأعمال الديوان الملكي، أن هذه المحاكمة لن تمحو من الأذهان أن هناك رأيا في البلاد خارجا على الملك، ورغب الملك فؤاد من ورائه أن تطوى صفحة هذه القضية، فما أن عاد هيكل من الخارج حتى دعاه الابراشي لمقابلته، وكان هيكل إذ ذاك شابا يتطلع إلى المكانة اللائقة به في الحياة وكان الابراشي إذ ذاك مشهورا بأنه يفعل ما يريد، وعرض الابراشي على هيكل أن تنشر الجريدة اعتذارا لإنهاء هذه القضية. وقدم رجل القصر لرئيس التحرير صيغة مكتوبة ما أن قرأها حتى لمح فيها اعترافا بخطأ الكاتب ونبه رئيس التحرير رجل القصر إلى أن في هذه الصيغة اعترافا على زميله بجريمة قد يكون بريئا منها، وأجزل الابراشي لهيكل في الوعد بأن الملك سيعفو، وبأن عزمي سيكون بعد نشر هذه الصيغة في حمايته، لكن هيكل الصحفي أبى أن يسجل شيئا ما في هذه الصيغة على زميله وصحيفته.

« عندئذٍ قال الابراشي لهيكل، تذكر يا دكتور أن هذه المسألة تتصل بمقام جلالة الملك. فرد عليه هيكل بقوله: وأرجو ألا تنسى يا سيدي أنني في

---

(١) الأخبار: في ١٦ ديسمبر ١٩٥٦.

(٢) القاهرة: ١٩ ديسمبر ١٩٥٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موقف الدفاع عن كرامة الصحافة ».

ومن الصعب أن نحكم على طبيعة العلاقات بين هيكل والقصر من النظر إلى المواقف الرسمية أو المواقف الشخصية على انفراد، كما يرويها هيكل ويرويها أصدقاؤه فإنها ليتناقضان أشد التناقض في الآونة الواحدة، فيبلغ من وئام المواقف الرسمية أن يكرم الملك فاروق هيكل، وأن يستبشر هيكل به خيرا[1]. ويبلغ من جفاء المواقف الشخصية ما عرفناه عن موقف الملك من التصريح الذي نسب إلى هيكل في الولايات المتحدة من أنه سيتولى تأليف الوزارة[2].

وأوجز ما يقال إن العلاقات بين هيكل والقصر على السواء في أيام المقاطعة وأيام المجاملة كانت علاقات ضرورة، وأما عن مواقف هيكل التي كان يرى القصر فيها هجوما عليه، فهي مواقف الدفاع عن الفكرة الدستورية، التي نذر لها هيكل قلمه في الصحافة السياسية. ولايمانه الشديد بالفكرة الديمقراطية التي يراها « قد زادت قوة ومنعة. وقد أصبحت الحكومات في العالم قائمة بوظيفة من الوظائف الاجتماعية - على حد تعبيره - ولم يعد لها ما كان يعترف لها كثيرون قبل الحرب عن حق التحكم ».

وهذا هو السبب في أن فكرة الملكية التي تزلزلت قواعدها بعد الحرب لا تجد أنصارا في بلد من البلاد « وأن الفكرة الجمهورية التي تعتبر مظهرا متطرفا من مظاهر الديمقراطية هي التي تسود أكثر البلاد في العصر الحاضر. ورئيس الجمهورية ولو كان طاغية فلن يمتد طغيانه إلا إلى زمن ولن يكون على كل حال متوارثا[3].

(١، ٢) هيكل: مذكرات ج٢ (المقدمة).

(٣) السياسة: في ٢٠ مارس ١٩٢٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خاتمة: هيكل والصحافة الحزبية:

رأينا فيما تقدم أن هيكل خاض غمار الصحافة الحزبية في «السياسة» يحمل لواء حزب الأحرار الدستوريين ضد الأغلبية الوفدية بزعامة سعد زغلول، وقد بلغ سعد من نفوس الشعب مكانة لم يصل إليها زعيم في تاريخ مصر الحديث، وأحيطت زعامته بهالة امتزج فيها الإجلال بالقداسة. ورأينا هيكل يقف من بطش صدقي بالتعاون مع القصر والانجليز - بالدستور موقفا أدى إلى تعطيل صحفه، وحرمانه من رئاسة تحرير السياسة في نهاية الأمر، وإصراره على البقاء إلى جانب حزبه حتى النهاية.

وقد تعود الناس في خلافات الأحزاب السياسية - كما يقول العقاد[1] - أن يسمعوا التهمة الواحدة تقال وتعاد من الجانبين أو من الجوانب الكثيرة. فكل حزب هو الحزب المخلص العامل النافع الرشيد، وكل من عداه هو الحزب المغرض المتواكل الذي لا ينفع ولا يهتدي إلى صواب، وإذا كانت الآونة من آونات الثورة واشتعال الخصومة وغليان الحقود فالخيانة والاجرام وسوء الدخيلة وقبح الصنيع تهمة أو تهم لا يسلم منها إنسان مشترك في السياسة: يقولها هذا الفريق كما يقولها ذلك الفريق ويعلم أناس من المطلعين بطلانها أو صدقها في حينها ثم يتراخى الزمن ويقدم العهد ويجيء اليوم الذي يحار فيه التاريخ بين الأقاويل المتضاربة والنقائض المتراكبة فيفصل فيها على طريقة الفصل بين المرأة الصادقة والمرأة الكاذبة في ادعاء الأمومة وهي شطر الحقيقة نصفين شطرا لهذا وشطرا لذلك. فكلاهما مصيب وكلاهما معيب لأن الشأن في كل سائس وكل زعيم أن يقول في خصومه وأن يقال فيه، فلا حاجة إذن بالمؤرخين إلى الفصل والإنصاف ولا موجب اذن للتدقيق والتحقيق[2]. لكن هذا الحكم لو أخذ على إطلاقه لظلم فيه أناس كثيرون،

---

(١) سعد زغلول ص٥١٤.

(٢) المرجع السابق ص٥١٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونجا من العقاب العدل أناس كثيرون ـ وليس هذا هو المقصود من عبر الحوادث ودراسة العظماء بل المقصود أن يعطى كل إنسان حقه وأن لا يتساوي المصلحون والمفسدون[1].

من الواجب عند النظر في سيرة هيكل: أن نذكر هذه الحقائق ولا نسهو عنها كلما نصبنا الميزان بينه وبين خصومه. ولا نقول إننا يجب أن نصدق حزبه في كل دعواه وأن نكذب كل ما يقال فيه بلا استثناء. وإنما نقول مع العقاد، إن الظلم البين في هذه الحالة هو شطر الحقيقة شطرين والخروج من القضية بين بين لأننا لن نربح في ذلك إلا أن نقتل الحقيقة.

وقد نال هيكل من خصومه كما نال منه خصومه، وقد تمادى كما تمادوا مع اللدد في الخصومة، ولكن العذر في جانبه أظهر من العذر في جانب غيره وكثيرا ما كان الابتداء منهم والرد على ذلك الابتداء ضرورة لا طاقة يدفعها لإنسان.

فكان هيكل في معارك النزال الصحفي طراز وحده في ذلك النوع من الكتابة السياسية لا يتهم ولا يجرح ولا يفتري على الحقيقة وإنما يعرضها بحجته وبمنطقه.

والإنصاف يقتضي أن نقول إن هيكل ـ ولعل هذا سر تفوقه ـ كان لا يدافع عن قضية إلا إذا آمن بها أشد الإيمان، يتناولها بعقله ومنطقه قبل أن يندفع نحوها بعاطفته. فإذا استقام له دليل المنطق واهتدى بهدي العقل، كان له من هدى عقله ومن دلائل منطقه ومن يسر القلم في يده معوانا له على من يلاحيه أو يقارعه في ميدان النزال السياسي. ولعل ذلك يرجع أيضا إلى أن هيكل لم يتخذ الصحافة مهنة عيش أو عمل تكسب، وإنما كانت عنده وسيلة

---

(١) سعد زغلول ص ٥١٥.

لا غاية، وسيلة للتعبير عن رأي يعتنقه ومبدأ يدين به، لذلك لم يعمل في صحف أخرى غير صحف الأحرار الدستوريين ولم يحترف الصحافة قبل أن تصدر صحفهم، وإنما كانت عنده «هواية» لأداء ما يريد أن يقول، وظل طوال حياته لسانا للأحرار الدستوريين حتى غدا زعيما لهم ورئيسا لحزبهم. ولذلك رأيناه يرفض عرض صدقي بالحاقه بحزب الشعب وصحيفته، فلو كانت الصحافة لدى هيكل مهنة وحسب ففي سياسته لتحرير جريدة «الشعب» ما يعدل رياسته لتحرير جريدة «السياسة»!

ولا ريب أن أناسا خاصموا «هيكل» للرأي والعقيدة، ولم يخاصموه للمنفعة والضغينة، ولكننا نعلم أن حقوق الناس في العقيدة لا تتساوى ولا تتماثل ولا سيما إذا كانوا طلاب زعامة أو كانوا وزراء وساسة يعملون في مصائر الشعوب. لذلك وجدنا هيكل في معارك النزال الصحفية لا يحب الهجوم إلا إذا وجد في الكلام المعروض خطرا على «عقيدته» كما حدث في موقفه من «الانقلاب الدستوري» في عهد الوزارة الصدقية.

ذلك ما قام به هيكل خلال السنوات التي تولى فيها تحرير وتوجيه صحف الأحرار الدستوريين. وهو مطمئن إلى ما قام به لأن «قراء الصحف أقوى بهذا الشعور إحساسا وأدق تقديرا ما اطمأنوا إلى إيمان الكاتب بما يطالعهم به وما وثقوا بأنه يقصد منه إلى الخير العام. وطمأنينتهم إلى صدق الكاتب في إيمانه إنما مصدرها شعورهم بأنه يعبر عما في دخيلة نفوسهم، وإن خالف في كثير من الأحيان اتجاهاتهم الظاهرة ومنافعهم العاجلة. ففي كل نفس إنسانية قبس من نور الحق يهديها سبيله ويدلها عليه. وهي قد تتنكب طريق هذا الحق وتغمض بصيرتها عن هذا النور خضوعا لأهوائها أو جريا وراء منافعها. لكن الضمير الإنساني لا يلبث حين يسطع عليه هذا النور أن يحز النفس الأمارة بالسوء، وإن عجز عن ردها إلى الصراط المستقيم. وذلك ما يجعل بعض الحكومات تضيق في كثير من الأحيان بالصحف المعارضة وتكيل لها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الضربات، ولا تكتفي بأن تقارعها الصحف المؤيدة الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان»[1] .

كما أن الصحفيين الذين يؤمنون بمعارضتهم أو بتأييدهم كثيرا ما يتعرضون للاضطهاد فيزيد إيمانهم تثبيتا وقوة. فإذا تجاوز الاضطهاد حد الطاقة الإنسانية آثروا الصمت كارهين، وآثروا تعطيل صحفهم وتحطيم أقلامهم على أن يجعلوها سلعة ومرتزقا[2] .

(١، ٢) هيكل: مذكرات ج٢، ص١٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب السادس

مجلة « السياسة » الاسبوعية والفكر القومي


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التعريف العام:

صدر العدد الأول من (السياسة الاسبوعية) في ١٣ مارس ١٩٢٦. وقد أشار هيكل في افتتاحية هذا العدد إلى أنه لا يريد، أن يتلو «على الناس برنامجا طويلا عريضا نسرد فيه ما يجول بخاطرنا من الآمال التي نود أن نراها محققة في أنهر هذه الجريدة. بل نريد أن يرى الناس هذا البرنامج بأنفسهم، ولسنا ندعي لهذا العدد تمثيل كل ما يجول بخواطرنا. لكن لنا من الرجاء في المستقبل ما يجعلنا أقرب إلى الظن باستطاعتنا أداء ما نرجو التوفيق لأدائه. على أن ذلك لا يعفينا من أن نذكر إن أردنا بهذه (السياسة الاسبوعية) أن تكون وسطا بين الجريدة السياسية والمجلة السياسية من غير أن نقصر أكبر عنايتها في شئون السياسة على ما يفهمه الأكثرون. بل سيكون للأدب والاجتماع والاقتصاد والفن نصيب من العناية قدر المستطاع ونعتقد أننا بهذا نؤدي خدمة يرى كثيرون ضرورة أدائها للبلاد في الظروف الحاضرة. وهذا الرأي يطمعنا في مؤازرة هؤلاء الكثيرين لنا وتأييدهم إيانا ومعاونتهم لنا. ونحن أول من يقدر قيمة هذه المعاونة القيمة التي مكنت السياسة اليومية من بلوغ المكانة التي بلغتها والتي أطمعتنا في إمكان القيام بالمجهود الذي يقتضي إصدار مثل هذه (السياسة الاسبوعية) القيام به»[١].

---

(١) السياسة الاسبوعية في ١٣ مارس ١٩٢٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعد سنة كاملة من عمر السياسة الاسبوعية يقول هيكل في مقال بعنوان: « السياسة الاسبوعية في عامها الثاني »[١] عما تهدف إليه: « ورجاؤنا أن توفر السياسة الأسبوعية في الصحافة الاسبوعية مايجب توافره في هذه الصحافة من تنويع المواضيع تنويعا يجد معه كل قارئ ما يعنيه أن يقف عليه. وهذا هو ما دعانا ويدعونا إلى أن نجعل منها ميدانا لمختلف الموضوعات العلمية والأدبية والسياسية، وأن نلجأ جهد الطاقة إلى ذوي الرأي والتخصص في هذه الموضوعات المختلفة لإيقاف القراء على آخر ما أبدع فيها ».

ومن ذلك يبين أن الرؤيا كانت واضحة أمام هيكل للملاحق الاسبوعية، فهو يريد أن يحتذي حذو الطبعات الاسبوعية الأعم في المفهوم من الملاحق الأدبية لأنه يريد بها أن تكون وسطا بين الجريدة السياسية والمجلة السياسية ». وذلك بهدف القيام بنهضة ثقافية جديدة تهدف إلى إزالة الجمود الفكري الذي كشفت عنه قضيتنا « الإسلام وأصول الحكم » و« في الشعر الجاهلي »، ذلك لأن الكتاب المجددين في هذه الفترة بعد أن استنفذت الصحافة السياسية معظم جهودهم كان لا بد لهم أن يفتشوا عن سند جديد يحمي ظهورهم ويسدد خطاهم ويضيء لهم الطريق ويحميهم من لهيب المعارك السياسية التي كانت محتدمة متأججة الأوار، كما رأينا صورة العصر السياسية عند الحديث عن (السياسة اليومية)، فبدأت فكرة، التعاون الأدبي تظهر في الأفق، فظهرت « السياسة الاسبوعية »، « لأول عهدها بالحياة أثناء ائتلاف الأحزاب المصرية في سنة ١٩٢٦ فطوع ذلك لها أن تكون مستقلة في خطتها ومنهجها، غير متأثرة بهدي حزبي أيا كان لونه »[٢].

وراح هيكل يبث فكرة التآزر الأدبي المرتبطة بدعوته للوحدة القومية لتقيم مصر حياتها الداخلية على أسس جديدة ترجو أن يتضافر أبناؤها على ابتكارها وعلى تثبيت قواعدها وتوطيد أركانها.. فهذا الميدان ما يزال[٣]

---

(١) السياسة الاسبوعية في ١٩ مارس ١٩٢٧.

(٢، ٣) السياسة الاسبوعية في ١٢ يناير ١٩٢٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بكرا في الحياة المصرية وما يزال بحاجة إلى تفاهم أولي الرأي على أصلح المبادئ وأكفلها بخير المصريين وطمأنينتهم ورضائهم فهم اليوم أصحاب الرأي في أمرهم وفي مصيرهم وهم المطالبون لذلك بأن يضعوا نظام الحياة للجماعة المصرية وأن يقرروا المبادئ التي يقوم هذا النظام عليها. ووطنهم أشد إلحاحا في مطالبتهم اليوم بوضع هذا النظام بعد أن أثبتت الحوادث أن سياسة الاحتلال البريطاني في الماضي قد أهملت الجانب المعنوي في الحياة المصرية. وقد جعلت كل همها إلى ثبات المالية المصرية حتى لا تتداخل في شئون مصر دولة غير بريطانيا باسم كفالة ما لأرباب الأسهم في دين مصر العام من حقوق ومصالح».

لذلك يذهب هيكل في دعوته إلى أن السبيل الحق لابتكار أصلح المبادئ وأكفلها بالخير لمصر وبطمأنينتها إنما هو البحث الحر لا يقيده قيد ولا يقف في سبيله عائق.

وتحقيقا لهذه الغاية رسم محرر السياسة الاسبوعية لصحيفته منهجا تلتزم به، لتتمكن من النجاح، ومن أن تكون ملتقى الأقلام والأفكار كما يريد لنا. ويقوم هذا «المنهج» على البحث الحر، الذي لا يتأتى له أن يؤتي ثماره - كما يقول هيكل[1] - إلا إذا سما صاحبه فوق الأهواء الذاتية وفوق الشهوات والأحقاد والتمس معونة كل قادر على المعونة لبلوغ الغاية من بحثه، وهذا ما رجته السياسة الاسبوعية أن تجده عند أولي الرأي من المصريين جميعا. وإن اختلفت ميولهم وأهواؤهم ونزعاتهم وأحزابهم. «فمصر أمنا جميعا في أحضانها نشأنا وإلى ترابها نعود وما نستمتع من الحياة فيها يلقي على عاتقنا جميعا عبء العمل لخيرها والتضافر على هذا العمل ان فرقت بيننا النزعات وباعدت بين أهوائنا أمزجتنا. ومن نافل الرأي النكوص عن القيام للوطن بواجبه ظنا بمعونة رجل الحكم لأن هوانا يختلف مع هوى هذا الرجل ومزاجنا لا يلتئم

(١) السياسة الاسبوعية في ١٢ يناير ١٩٢٩.

مع مزاجه. وليس بين النكوص عن أداء واجب الوطن وبين خيانة الوطن بون كبير»[1].

ويصف هيكل هذا «المنهج» فيقول[2]، «الحقيقة بنت البحث، والخلاف في الرأي التماسا للحق وطلبا لمصلحة عامة هو آكد الوسائل إلى تبين وتحقيق المصلحة العامة. وستعاون هذه الجريدة قراءها جهد ما تستطيع في البحث عن الحق وفي التماس أوجه الرأي بأن تعرض عليهم كل ما تستطيع عرضه من الآراء والمعلومات التي تقع عليها في مختلف أنحاء العالم، مستعينة في ذلك بأحدث ما ينشر من الكتب والنشرات الدورية والصحف وأسباب النشر والإذاعة جميعا، وهي تقدر أن الفكاهة قد تنطوي من الحقيقة على ما لا ينطوي عليه جد المنطق، وأن الأقصوصة الضاحكة قد تنطوي من العبرة والحكمة في أضعاف ما تنطوي عليه مذاهب الفلسفة. وهي لذلك ستأخذ من هذا وذاك بنصيب ملتمسة في الصورة وفي الكاريكاتور ما لا يصل إليه الأدب أو العلم، جاعلة كل همها أداء رسالة الفكر الحر والثقافة العلمية المثمرة».

وتحقيقًا لهذا المنهج أخذت السياسة الأسبوعية نفسها أن تقوم بجهود «لتوطيد روابط العلاقة العقلية والروحية بين الشعوب التي تتكلم العربية، ولنشر الثقافة العامة في مختلف أنحاء الشرق العربي بإذاعة ما تستطيع إذاعته من تفكير الشرق والغرب جميعا»[3]، وعلى نفس «المنهج» الذي جعله هيكل يقوم على «أقوم مبادئ حرية الرأي التي تحل من نفوسنا محل القداسة والإجلال»[4].

ويذكرنا هيكل أن السياسة الاسبوعية[5]، «يشجعها على المضي في رسالتها

(١، ٢) السياسة الاسبوعية في ١٢ يناير ١٩٢٩.
(٣، ٤) السياسة الاسبوعية في ٢٣ مارس ١٩٢٩.
(٥) المرجع نفسه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومتابعة مجهودها ما يتولاها به قراؤها من تشجيع وما يؤازرها به أصدقاؤها من معونة صادقة في تحريرها. فليس عدد من أعدادها الا يحتوي بحوثا وأفكارا ممتعة من ثمرات أقلام هؤلاء الأصدقاء الذين وجدوا فيها المجال للتعاون على انهاض هذا الشرق العربي نهضة فكرية هو الآن في أشد الحاجة إليها. وليس يقف أمر هذه البحوث والتفكيرات على ما يرسله بنو مصر، بل أن لبني فلسطين وسوريا والعراق فضلا تقدره ويقدره القراء على حقيقته. هذا إلى جانب ما يوقفنا عليه مراسلونا في مختلف الأقطار من سير النهضات في الشرق ومن أسباب التطور في الغرب. وكذلك ترانا نشعر في كل عدد من أعداد هذه الجريدة بوسط قوي صالح من الأنصار والمؤيدين يعززنا ويقوي همتنا ويبعثنا على المزيد من الجهد في سبيل أداء الغرض الذي أخذنا به أنفسنا منذ أصدرنا العدد الأول من السياسة الأسبوعية»[1].

«وهذا الغرض هو الذي يجعلنا نتوخى جهد الطاقة ألا نميل بهذه الجريدة إلى ناحية حزبية سواء في مصر أو في أية أمة من الأمم التي تقرؤها. ذلك أننا لا نريد بها مناصرة فريق على فريق ولا طائفة على طائفة، ولا نبتغي بها أن تكون في صف زيد أو عمرو، وإنما نبتغي بها مناصرة فكرة لا تتزعزع في نفوسنا ولا تتصل بحزب من الأحزاب أو بطائفة من الطوائف، تلك الفكرة هي ما قدمنا من تأييد حرية الرأي والعمل على نشر الثقافة وتمكين أواصر القربى العقلية والروحية في نفوس أهل الشرق جميعا. لذلك لا يمنعنا مانع من أن ننشر رأيين مختلفين. ولا رأيا يخالف رأينا ما قام الرأي على أساس من سلامة التفكير والتنزه عن الأغراض الذاتية. وإذا كنا قد جعلنا هذا رأينا في الاجتماعيات والعمليات فهو كذلك رأينا في الشئون السياسية فليس يحول دون نشر رأي من الآراء أنه يخالف رأينا ما بدا هذا الرأي منزها عن الغرض، سليم التفكير في مقدماته ونتائجه. وهذه الحرية التامة التي نبتغيها هي التي

---

(١) السياسة الاسبوعية: في ٢٣ مارس ١٩٢٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أتاحت لنا أن ننشر الرأيين المتناقضين وأن نترك لصاحب كل واحد منهما أن يؤيد رأيه بما يرى تأييده به من حجة ودليل قائمين على الأساس السابق ذكره»[1].

ويشهد هيكل أن هذا الاحترام التام لحرية الرأي جنى على السياسة الاسبوعية في بعض الأحايين: «وبلغت جنايته أن ضاع بعض أصدقائها ممن كان لأقلامهم أثر فيها. لكننا لم نأسف يوما من الأيام على ما حدث من ذلك. فنحن أكبر تقديرا لحرية الرأي منا للذين ينقمون هذه الحرية ولو أدى ذلك إلى ضياع ما بينهم وبين هذه الجريدة من صداقة وصلة، ولو أدى ذلك إلى علانهم عليها حربا لن تنال منها لأنها بنزعتها السامية أبعد منالا من أن تسيء إليها الشهوات الخاصة أو تزعزع من عقيدتها في مبدئها وغايتها الأغراض والمآرب الذاتية»[2].

ويعاهد هيكل قراءه في مفتتح السنة الرابعة من حياة السياسة الاسبوعية على أن «تكون دائما عند حسن ظنهم بها.. فلن نألو جهدا في سبيل تحقيق غاياتنا ولن نجعل لاعتبار فوق حرية الرأي قيمة، ولن نتغير عما كنا نعاضد البحث والتفكير ونعمل على نشر ما يصل إليه العلم من نتائج. وانا لنعاهدهم كذلك على أن نكون في المستقبل كما كنا في الماضي، أنصار النزاهة المطلقة في التفكير والقول والكتابة. ثم لنعاهدهم ايضا على أن نتعاون وإياهم على بعث حضارة الشرق من جديد بعثا نراه قريبا وإن رآه بعضهم بعيدا، ونراه يقينا وأن رآه بعضهم حلما من الأحلام، ونراه هادي الإنسانية ومرشدها إلى السلام وإن خيل لبعضهم أن الإنسانية لن تزال في ضلال ولن يروى ظمؤها للخراب والدمار. وإذا كان ما نعاهد قراء السياسة الاسبوعية عليه أمرا شاقا عزيز المنال، فإنه لذلك جدير بالجهود والسعي المتواصل. ولقد طالما حسب المترددون الذين إذا ذكر الحق تزعزعت عزائمهم أمرا من الأمور محالا، فإذا

(١) السياسة الاسبوعية في ٢٣ مارس ١٩٢٩.

(٢) نفس المرجع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا المحال أدنى لأن تحققه العزيمة الصادقة مما يظنون وهذا إيماننا وهو الذي يجعلنا على ثقة من أنا بالغون في المستقبل القريب كل هذه الغايات التي نصبو إليها ونتجه إلى تحقيقها[1].

ويزيد هذا الإيمان في نفوسنا قوة على قوته ما بلغته السياسة الاسبوعية من قوة في السنوات الثلاث التي انقضت منذ نشر أول عدد منها. فثلاث سنوات من حياة أي مجهود من المجهودات ليست شيئا مذكورا. وكم مضت أمثال هذه السنوات الثلاث وأضعافها على عمل في جسامة السياسة الاسبوعية ثم إذا به ما يزال يضطرب بين الاستقرار والهزيمة. فأما هذه الجريدة فقد قوبلت من الجمهور في مصر والشرق العربي وفي البلاد الغربية النائية التي تضم طائفة من قراء العربية بتعضيد عظيم جعلنا نعتقد أن الحاجة كانت ماسة إليها وأن الأغراض الماثلة في نفوسنا ماثلة في نفوس الألوف والملايين من أهلنا وجيراننا وإنها ما كادت لذلك ترى هذا المجهود يشرق فجره حتى تعاونت لتزيده ضياء على ضيائه.

إذن فالغايات التي نريد بلوغها ليست غاياتنا وحدنا ولكنها غايات عامة تجيش بها نفس الشرق كله والشرقيين جميعا. وإذن فالمجهود الذي نقوم به يلقى جوابه في نفوس الملايين من أهلنا وبنى عمومتنا. وإذن فهذا البعث الذي نطمع فيه كثمرة لحرية البحث العلمي والرأي النافع نرجو أن يبعث من روح الشرق الخالدة إلى حضارة الغرب في كثير من أنحائها ضياء الحق وأن يحقق للإنسانية ما تصبو اليوم إليه في قوة ولهف من هداية وسلام ـ هذا البعث هو كذلك موضع إيمان الكثيرين وموضع رجائنا أجمعين. فليكن عهدنا الذي عاهدنا عليه قراءنا هو إذن مفتتح كلمتنا لهذه السنة الرابعة»[2].

من هذا ومن كثير أمثاله من فواتح القول نتعرف على هذه الخطوط

(١) السياسة الاسبوعية في ٢٣ مارس ١٩٢٩.

(٢) نفس المرجع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكبيرة في « السياسة الاسبوعية » وأهدافها .. إنها بوجه عام، اتجاه جديد في الصحافة المصرية على غرار ما تفعله الصحف الأوربية، يهدف من ورائه الأدباء والكتاب المصريون الخروج من دائرة الحزبية، إلى مواصلة رسالة التجديد التي بدأوها في الصحف اليومية على عجل، ولأنهم يريدون أن يسلكوا بالنهضة الفكرية، كما وضح من قول هيكل فيما سبق، طريقا جديدا غير مسبوق، ولأن هذه الفترة، كما نعلم كانت تختلط فيها التيارات الأدبية بالتيارات الحزبية، وتتأثر الأحكام النقدية بهذه التيارات، وهو الأمر الذي كشفت اللثام عنه بعض القضايا الفكرية التي شهدتها الصحف اليومية، والتي تحدثنا عنها تفصيلا في فصل سابق، فكان عليهم أن يدعوا إلى التجديد.

على أن صدور السياسة الاسبوعية على هذه الصورة التي نتحدث عنها لم يكن بداية مولد تيار التجديد، فقد رأينا فيما سبق أن هذا التيار قد نشأ في ظروف الحياة المصرية بصراعها الحزبي، فقد كان هذا التيار يتطور ابتداء من الصفحة الأدبية بالسياسة اليومية، ثم ملحق السياسة، وهكذا تطور التيار أو وصل إلى ذروته عندما صدر العدد الأول من الطبعة الاسبوعية للسياسة في مارس ١٩٢٦.

وإذا كنا لا نعتبر مولد هذه الصحيفة ميلاد تيار التجديد، فإننا نعترف بأن هذا التيار قد وصل إلى ذروته منذ ذلك الحين، وساعدت الظروف والأحداث على أن يأخذ طابعه الفكري المجدد، ولذلك كان لا بد أن نقف عند هذه النشأة وكيف تطورت وما صادفها من عقبات.

ونحن نلمح في فواتح القول التي أوردناها من السياسة الاسبوعية والتي سجلها محررها، الاستقلال في الشخصية الأدبية، ففي الوقت الذي تصدر فيه السياسة الاسبوعية ممثلة لكل الاتجاهات والمذاهب الفنية، لا ينسى هيكل أن يشير صراحة إلى أن السياسة الاسبوعية لا تتقيد بالآراء الحزبية ولا بتوجيهات الحزب إلا في الحدود الخاصة: « وسيكون دأبنا هناك وهنا أن ننصر المبادئ أو نحاربها لذاتها دون نظر إلى الأشخاص الذين يؤيدونها، أو يناضلونها وفي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نصرة المبادئ وفي محاربتها لا نداجن ولا نخاف في الحق لومة لائم. لذلك قد ننصر رأيا لشخص بذاته ونحارب رأيا آخر لهذا الشخص بذاته. إذا لم يتفق هذا الرأيان في منطق المذاهب العملية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الفنية أو الأدبية. ولن يغير تأييدنا للرأي أو المبدأ أو محاربتنا إياه من صلاتنا لمؤيدي المبدأ ولا لخصومه »[1].

وقد أرسى بذلك مبدأ من أهم المبادئ التي كانت الحياة الأدبية والصحفية في أمس الحاجة إليها حينئذٍ، ونعني (محاربة التعصب) الذي نجم عن تغلغل الحزبية في الرأي. وفي ذلك قال هيكل: « فان حرص الأشخاص مع ذلك على خصومنا فإنَّا لن نقف منه موقف التعصب ولن نحارب ما نراه صالحا من رأيه. فليس التعصب وليس ضيق الأفق في طبعنا، والتعصب وضيق الأفق هما اللذان يحيلان الخلاف في الرأي خصومة ذاتية ويسرعان بصاحبها إلى اتهام من يخالفه وينسيانه أن الحقيقة بنت البحث وأن الخلاف في الرأي التماسا للحق أو طلبا لمصلحة عامة هو آكد الوسائل إلى تبين وتحقيق المصلحة العامة »[2].

ومن ذلك أيضا تأصيل « حرية الرأي » وتوكيدها وبث روح الديمقراطية في الأدب الصحفي حتى يثق الشباب بقدرته وكرامته الشخصية، ولذلك رأينا هيكل يسجل حرص السياسة الاسبوعية « على حرية الرأي والبحث لتكون ميدانا حقيقيا لأصوب الآراء في أشد الشئون مساسا بحياتنا الروحية والعملية والمادية »[3].

وهكذا جاءت « السياسة الاسبوعية » كأول طبعة اسبوعية تعنى بالشئون الثقافية البحتة في مصر وفي العالم العربي فيما نعلم بحيث لا يسع مؤرخ الصحافة إلا أن ينظر إلى صحيفة السياسة ـ كما يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة[4]

(١، ٢، ٣) السياسة الاسبوعية في ١٤ يناير ١٩٣٩.

(٤) الصحافة المصرية في مائة عام ص١١٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أنها تعتبر بحق « رائدة » الطور الرابع من أطوار الصحافة المصرية. ويرجع السبب في ذلك إلى أمور كثيرة منها:

أن صحيفة السياسة كانت من أكثر الصحف المعاصرة لها استخداما لكبار الكتاب والمفكرين، وإفساحا لهم في مجال الكتابة فيها على اعتبارهم « مصاحفين لا « صحفيين محترفين ».

قد استطاع كتابها أن يخلقوا ثورة في الصحافة المصرية من الناحيتين الأدبية والفكرية وذلك بما نشروا في صحيفة السياسة الأسبوعية ـ بنوع خاص من المقالات الثورية في عالم الأدب والاجتماع والتاريخ والفلسفة. وحسب القارئ أن نذكره هنا بمقالات علي عبد الرازق التي جمعت فيما بعد في كتاب: « الإسلام وأصول الحكم ». وحسب القارئ أن يذكر كذلك بأن صحيفة السياسة هي التي حمت الدكتور طه حسين من بطش الحكومة بعد نشره كتاب: « في الشعر الجاهلي ». بل حسب القارئ كذلك أن نذكره بمقالات المازني وهي عبارة عن قصص في إطار مقالات كانت نوعا جديدا في فن المقال من حيث هو. ثم حسب القارئ أخيرا أن نذكره بالمقالات النقدية الاجتماعية التي كتبها عبد العزيز البشري، وجمعت بعد ذلك، في كتاب عنوانه: « في المرآة » وفيه صور كاريكاتورية إقليمية لكثير من الشخصيات البارزة في الأمة المصرية كانت هي الأخرى لونا جديدا من ألوان المقال[1].

وإذا كان الفن اختيارا، فان اختيار اسم « السياسة الأسبوعية » يدل على نزعة محررها إلى التجديد، لأنه يجنح بالصحافة المصرية إلى احراز تقدم ثقافي ذهبت إليه صحافة الغرب، ويريد « بالسياسة الأسبوعية » أن تكون « وسطا بين المجلة السياسة والجريدة السياسية، ويكون للأدب والاجتماع والاقتصاد والفن نصيب من العناية قدر المستطاع »[2]. وفي ذلك ما يبين أثر « النموذج

---

(١) الصحافة المصرية في مائة عام ص ١١٢.

(٢) السياسة الاسبوعية في ١٣ مارس ١٩٢٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغربي الذي كان أمام محرر السياسة الأسبوعية، ونرجح أن يكون هذا النموذج هو الطبعة الاسبوعية لصحيفة «التيمس The Times» والتي سبقت الإشارة إليها[١]. ولعل ذلك يرجع إلى أن كلا من الصحيفتين رسمتا لنفسيها سياسة ومنهجا منذ صدور كليهما وبقيتا عند تلك السياسة والمنهج لا يغيران فيه أبدا.

فإذا كانت السياسة الأسبوعية صدرت وأمامها هذا النموذج الغربي. فإننا نلمح آثارا للطفي السيد في تسمية «السياسة الأم، ونعني الصحيفة اليومية التي اتخذت الأسبوعية اسمها، وهي آثار تمتد إلى أرسطو الذي ترجمه استاذ الجيل، فالسياسة» عند أرسطو هي أشرف العلوم، لأنه يعرفها بأنها تدبير المدنية ليكون سكانها فضلاء، ومن هذا التعريف ترجع إلى السياسة سائر العلوم أو كما قال أرسطو ان السياسة تبين ما هي العلوم الضرورية لحياة فضلاء، ومن هذا التعريف ترجع إلى السياسة سائر العلوم، أي حد ينبغي أن يعلموها»[٢]. فهل أرادت «السياسة الأسبوعية» أن تكون مرجعا لسائر العلوم؟ وهل تكون بعد صدورها على النموذج الغربي قد حققت ما نرجحه من آراء استاذ الجيل؟

وأيا كان الأمر، فقد حاولت السياسة الأسبوعية فعلا أن تقوم برسالة الثقافة الشاملة «لسائر العلوم» فحشدت كل كبار الكتاب في ذلك الوقت فكان إلى جانب محررها: هيكل، طه حسين، ومحمود عزمي، ومصطفى عبد الرازق، وعلي عبد الرازق، وابراهيم المازني وعبد العزيز البشري، وتوفيق دياب، ومحمد عبدالله عنان.

---

(١) يحدثني الاستاذ حافظ محمود أن السياسة الاسبوعية فعلا كانت تهدف أن تحقق ما تحققه الطبعة الاسبوعية The Times: Weekly Review بل أنها - كما سيجيء - اتخذت لنفسها شكل هذه الطبعة.

(٢) لطفي السيد: قصة حياتي ص١٦٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويحدثني الاستاذ حافظ محمود أن الصفحة الاقتصادية فيها كان يحررها المرحوم كامل عبد الرحيم وكيل وزارة الخارجية، وكان يحرر الصفحة العلمية فيها الدكتور محمد والي الذي صار عميدا لكلية العلوم فيما بعد. وكانت تحرر الصفحة النسائية فيها الآنسة «مي» إلى جانب عدد كبير من المحررين والمترجين الذين تتلمذوا على هذه الجريدة وأصبحوا من ألمع الكتاب فيما بعد مثل: الدكتور عبد الحميد يونس وحافظ محمود.. وغيرهما.

ويحدثني الاستاذ حافظ محمود أيضا، أن السياسة الاسبوعية كانت منذ نشأتها أوسع الجرائد العربية الشرقية انتشارا في العالم، فبلغ متوسط توزيعها أربعين ألف نسخة أسبوعيا بينما كانت أعلى نسبة توزيع للصحف إذذاك لا تتجاوز عشرين ألفا وكان نصف هذا العدد بالضبط يوزع في البلاد العربية خارج مصر، ولذلك كان لها فضل الربط الفكري بين القاهرة والعواصم العربية الأخرى.

ولا شك أن الفضل في هذا النجاح يرجع إلى رغبة هيكل المستمرة في تطوير المقالة الصحفية بجميع فنونها وأشكالها تطويرا يتصل بالشكل والمضمون، كما سنرى، ويبين إدراك هيكل لمسئوليته القيادية في إيجاد صحافة ممتازة، تواكب تقدم الصحافة العالمية، لتقدم للأمة المصرية حينذاك ما كان يطمع إليه من مثل فكرية.

وهكذا نشأت السياسة الاسبوعية لتحتضن النهضة الأدبية والأفكار التقدمية وتدافع عنها بحرارة عظيمة، وحماسة صادقة[١].

وتأسيسا على هذا الفهم يمكن أن نقول إن السياسة الأسبوعية خرجت بمباحثها ودراساتها كأنما هي «جامعة تضم مختلف الكليات فيها لكل طالب زاد - على حد تعبير الاستاذ محمود تيمور[٢]. ولعلها كانت وليدة الضرورات

---

(١) حمزة: مستقبل الصحافة ص٢٠٨.

(٢) الشخصيات العشرون ص٤٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والملابسات الاجتماعية في تلك الحقبة من الزمن، اذ كانت الجامعة الحكومية لم تزل في مهدها، طلابها نفر قليلون، على حين يتطلع شباب العصر إلى المعرفة والتأدب، فكان على السياسة الاسبوعية أن تروي ظمأ الجمهور الراغب في التثقيف والتنوير».

ونخلص من ذلك إلى أنه لا يوجد تناقض بين اسم الصحيفة وبين رسالتها، لأنها تسير في المفهوم الأرسطي «للسياسة» الذي ترجع إليه «سائر العلوم».

ولقد احترمت السياسة الاسبوعية الفكرة الأساسية في إنشائها، وهي فكرة الأدب فتجنبت - ما أمكن - الخوض في أية موضوعات تمس السياسة الداخلية إلا اضطرارا. وأعلنت في تقديم عددها الأول هذه الخطة فكانت سببا من أسباب إقبال القراء عليها حتى لقد كانت أول أمرها أكبر وأكثر الصحف العربية توزيعًا.. وكان في رواجها مفهوم جديد من مفاهيم النهضة الأدبية التي ظهرت في مصر مع ظهور جريدة السياسة الاسبوعية في سنة ١٩٢٦ حتى يمكن لنا اعتبار هذه الجريدة أول لسان لهذه النهضة الأدبية المبكرة.

لقد صدرت السياسة الاسبوعية «عن شركة جريدة السياسة اليومية» ورأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير السياسة اليومية ايضا، بل وكانت السياسة الاسبوعية تعتبر الملحق الاسبوعي.. لجريدة السياسة اليومية، ومع ذلك كله ظلت محافظة إلى مدى بعيد على استقلالها الذاتي بعيدا عن السياسة الحزبية، تظل وثيقة الصلة بالنهضة الأدبية الجديدة.. فظلت الصلة بينها وبين شركة السياسة مجرد صلة إدارية ومالية دون خلط بين سياسة الجريدتين إلا بعد سنين طويلة.

وليس معنى ذلك أن هناك انفصالا تاما في المفاهيم بين الجريدة اليومية والأسبوعية.. ولكن معناه أن السياسة الأسبوعية قد تخصصت في جوانب للثقافة التي كانت تعنى بها السياسة اليومية من قبل.. ولم يكن هذا التخصص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعني السياسة الاسبوعية عن المفاهيم السياسية كلية.. ولكنها كانت تتعرض لهذه الناحية من الزوايا العامة التي تكاد تكون ذات طابع دولي.. وهذا ما كان يظهر فقط في افتتاحياتها التي كان يكتبها أول الأمر رئيس التحرير الدكتور محمد حسين هيكل.

هيكل في السياسة الأسبوعية:

وقفنا على كثير من النظرات الجديدة في الأدب والفكر ونحن ندرس في الصفحات التالية الآثار الأدبية لهيكل في السياسة الأسبوعية، وآراءه في التجديد. ولقد فصلنا الحديث في هذه الأمور، ولكننا نريد بعد ذلك أن نجمل القول في اتجاهات التجديد في السياسة الأسبوعية من خلال الاتجاهات التي دار فيها مقال هيكل بصورة مركزة تقفنا في وضوح على الإضافات الجديدة التي أغنت بها السياسة الأسبوعية صحافتنا الحديثة.

ونحب أن نشير بصفة عامة إلى أن هيكل محرر السياسة الأسبوعية، وصحبه من كتابها ومحرريها كانوا ثورة حقيقية في صحافتنا الحديثة، فلقد جاءوا إليها بثقافتهم وفكرهم الجديد، وطاقاتهم الصحفية والأدبية المتفتحة، فملأوا حياتنا الفكرية بالأفكار الجديدة في الأدب والصحافة التي أصلت الشخصية المصرية، وحاربت الجمود والتقليد ودعت إلى التجديد في نواحي الحياة، وأفسحت المجال للمواهب الجديدة.

والواقع أن السياسة الأسبوعية ورثت عن شقيقتها اليومية تلك الإمكانيات الفنية التي جعلتها رائدة للصحف المعاصرة، فجاءت البلاغ بعدها في ٢٨ يناير ١٩٢٣[١]. فوجدت أمامها نموذجا من الصحافة الحديثة يتفوق فنيا على الصحف الأخرى وكان عليها «أن تظهر للقراء بصورة لا تقل عن الصورة التي ظهرت بها السياسة بحال من الأحوال»[٢].

---

(١) صدرت السياسة اليومية ٣١ أكتوبر ١٩٢٢.

(٢) حمزة: أدب المقالة جـ٨ ص٣٧٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن هنا جاءت السياسة الأسبوعية لتمثل ذروة تيار التجديد الذي بدا في السياسة اليومية، كما سبق القول، والتي جددت «في الأسلوب والمواضيع، فخرجت من تلك الدائرة الضيقة التي كانت الصحافة فيها قاصرة على ذكر الحوادث السياسية في الداخل والخارج. وأفردت صحائف للأدب والفن والزراعة والسيدات»[١]. وكان ذلك كما يقول هيكل: «خطوة سعيدة، فإن الصحف الأخرى جاهدت لتحذو حذو السياسة، والتنافس في ذاته دافع إلى التقدم»[٢].

ذلك أن الخصومة السياسية، كما يقول طه حسين[٣] دفعت «صحف الأحزاب المختصة إلى التنافس فافتنت فيما جعلت تنشر من الفصول، وإذا الأدباء يستعرضون الآداب الأوربية الحديثة يذيعونها ناقدين ومحللين ومترجمين، وإذا هم بعد هذا كله يرقون إلى إنشاء الدراسات التي تطول حتى تصبح كتبا تستقل بنفسها، وتقصر حتى تصبح فصولا تنشر في الصحف والمجلات ثم يجمع بعضها إلى بعض فإذا هي أسفار قيمة يجد فيها القارئ نفعا ولذة ومقاما. فهذا نوع جديد من الأدب عرفه الأوربيون منذ زمن بعيد ولم نعرفه نحن إلا في العصر الحديث».

ومن جهة أخرى فقد جاء اشتغال الأدباء بالشئون السياسية في الصحافة عاملا من عوامل هذه النهضة، بعد ثورة ١٩١٩. وهؤلاء - كما يقول العقاد[٤] - كان لهم «الأثر المحسوس في نشر الأدب بين قراء الصحف السياسية ونشر السياسة بين القراء المتأدبين الذين كانوا لا يحفلون بها ولا يقرأون من المقالات والكتب الا ما كان أدبا محضا أو بحثا في موضوعات الشعر والنقد والبلاغة.. فمنذ اشتغل أفراد هذه الطبقة بالصحافة والسياسة

(١، ٢) السياسة: في ٣١ اكتوبر ١٩٢٤.
(٣) ألوان ص٢٨.
(٤) الهلال: ديسمبر ١٩٣٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعود قراؤهم السياسيون أن ينتقلوا معهم إلى مباحث الأدب والنقد وما إليها، كما تعود قراؤهم الأدبيون أن ينتقلوا معهم إلى السياسة ومناقشاتها حيثما خاضوا فيها وناضلوا عنها. فاتسع نطاق الأدب كما اتسع نطاق السياسة، واستفادت الأساليب العربية كما استفادت النهضة الوطنية بين جودة التعبير وحسن التوجيه وارتقاء مذاهب القول والتفكير، ونشأت في مصر والشرق نهضة أدبية أو أدب سياسي تتقارب فيه درجات القراء ممن كانوا يألفون الأدب دون السياسة إلى ما كانوا يألفون السياسة دون الأدب، ثم اجتمعوا على مائدة واحدة لكل منهم نصيب فيها».

وتأسيسا على ذلك نستطيع أن نفهم الدور الذي أسهمت فيه السياسة الأسبوعيةمن توسيع نطاق القراءة وتهذيب لغة الصحافة وتمكين العبارات الوطنية وما يتصل بها من الخوالج النفسية في قلوب القراء ومن يقتدي بهم من قريب.

التجديد في التحرير الصحفي:

والمقصود بالتحرير هنا هو الموضوع والأسلوب. وإذا كان هناك اعتراض قوي بأن الصحيفة التي يسهم فيها عدد كبير من الكتَّاب لا يمكن أن ينتظمهم أسلوب واحد ولغة واحدة[1]. وهو اعتراض حق، حين ننظر في التفاصيل والأجزاء، ونقف عندها. أما حين نتناول الصحيفة ككل فإن الاعتراض يهن ويضعف. لأن من الواضح أننا إذا كنا نجد الصعوبة في الحكم على اسلوب السياسة الاسبوعية بسبب من كثرة الكتَّاب فيها، فان من اليسير أن نلاحظ أن الأقلام المختلفة الأساليب في هذه الصحيفة تتلاقى بعد ذلك وتتقارب وان مسافة الخلف بينها تضيق وتنكمش، ويبقى لها بعد ذلك خط واحد كبير يمكن أن يفسر لغتها ويبين عن أسلوبها. ونحن في السياسة الأسبوعية نوشك

---

(١) فيصل: الصحافة الأدبية ص٣٩.

أن نكون أمام أسلوب واحد ينظمها في التفكير والتعبير إلى حد كبير. وسنفرد للأسلوب الذي يمتاز به محررها فصلا خاصا في نهاية البحث.

أما الموضوع فقد سبق أن رأينا أن السياسة الاسبوعية منذ صدورها طلعت على الناس بصفحات جديدة منها، الصفحة الأدبية ـ الصفحة الفنية ـ الصفحة العلمية ـ الصفحة القانونية ـ صفحة المرأة ـ الصفحة الاقتصادية.. الخ. ولم تقتصر الصحيفة على ذلك حتى حرصت بدون انقطاع تشجيع الفنون الأدبية الجديدة، فشجعت حركة القصة في الأدب العربي ترجمة وتأليفا وتقويما، كما سبق أن رأينا في الفصل السابق، إلى جانب عنايتها بالثقافات الفنية الأخرى كالمسرح والموسيقى والسينما.

بهذه الطرق وأمثالها استطاعت السياسة الاسبوعية أن تدخل على الصحافة المصرية جديدا، وأن تشارك في النهضة الأدبية والفكرية التي بلغت أوجها بعد صدور الدستور في سنة ١٩٢٣. ونرجح أن يكون الوازع لهذه النهضة راجعا إلى اعتقاد محرر السياسة الأسبوعية بأن «الكاتب الذي يؤمن برسالته يخلق قراءه ولا يخلقونه»[١].

فابتدعت السياسة الاسبوعية طرقا فنية للمشاركة في النهضة الصحفية، ومنها طريقة «المرايا» التي برع فيها عبد العزيز البشري وقد استهلت هذه المرايا عددها الأول في ١٣ مارس ١٩٢٦ بمقالة عن «زيور باشا». وإلى جانب المقال صورة كاريكاتورية ضاحكة. وقد فتحت السياسة الأسبوعية بهذا الباب فتحا جديدا في الصحافة المصرية يتجه إلى استخدام الأسلوب التحليلي الكاريكاتوري. فلم تمض شهور حتى وجدنا الشعراء يطلبون إلى مجلة الكشكول أن تصطنع لنفسها هذا الباب[٢]. كما كتب بعض المرايا في السياسة الاسبوعية: فكري أباظة وحسن درويش وتوفيق فرغلي وعبد الحميد حمدي[٣].

---

(١) الهلال: ٥ اغسطس ١٩٣٤.

(٢، ٣) الرمادي: عبد العزيز البشري ص٢٥٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكنا قد قلنا في خطة هذا البحث أن هيكل عاد إلى كتابة صورة جديدة تحت هذا العنوان بعد ذلك بعشر سنوات حين لم تعد تصدر غير السياسة الاسبوعية ولم يكن يوقعها باسمه. وقد كان مرجعنا في ذلك الدكتور حسين فوزي النجار[1]. وقد رجعنا إلى هذه الصور فلم نجد فيها أثرا لروح هيكل، مما جعلنا نرجع إلى محررها في هذه الفترة وهو الاستاذ حافظ محمود، الذي أوضح لنا أن هذه المرايا كانت تكتب بتوجيه من هيكل فقط، ولكن محررها هو حافظ محمود نفسه.

وأيا كان الأمر فقد فتحت السياسة الاسبوعية بابا جديدا في الصحافة المصرية يستخدم الكاريكاتور عن طريق المقالات الأدبية أو الصحفية. بل كانت تقرن بين السخرية الكاريكاتورية والسخرية القلمية في موضع واحد فتوسعت الصحافة من بعد استخدام الكاريكاتور إلى الحد الذي أحدث أزمة أخلاقية حادة خاض الكتاب في بيانها، وانسقموا يومئذٍ إلى رأيين، الأول ينكر هذا الاتجاه كل الإنكار، وكان يتزعمه ويعبر عنه الدكتور هيكل[2] والرأي الثاني لا يجد بأسا من استخدام هذا الفن وكان من دعاته الدكتور طه حسين[3].

الاتجاهات القومية في مقال هيكل:

ستتحدث عن فنون المقال عند هيكل في فصل خاص في نهاية البحث على أننا هنا نحاول عرض الاتجاهات التي اتجه فيها مقال هيكل في السياسة الاسبوعية بعيدا عن السياسة الحزبية، ذلك أنه يبين من إحصاء مقالات هيكل في السياسة الاسبوعية انها تبلغ مائتين وخمسا وثمانين[4] اتجهت منها مائة وثمان

(١) من كلمته بكتاب الدكتور محمد حسين هيكل ص٣١.

(٢) لحق السياسة: في ٣٠ مايو ١٩٣٣.

(٣) كوكب الشرق في ٣١ مايو ١٩٣٣.

(٤) وذلك عدا مقالات هيكل في الملاحق الخاصة، التي سبق أن قلنا أن هيكل يعتبرها غير متصلة بالسياسة الاسبوعية، وهي تبلغ حوالي ثلاثين مقالا تقريبا تدور حول قضية الإسلام في مواجهة حركة التبشير، والتي عرضنا لطرف منها عند الحديث عن « قضية التبشير ».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الاتجاه السياسي، أما بقية المقالات فقد اتجهت في اتجاهين رئيسيين هما: الاتجاه الثقافي والاتجاه الاجتماعي. وهي الاتجاهات التي اتجهت إليها النهضة الصحفية والفكرية بعد ثورة ١٩١٩، بحيث يمكن أن نذهب إلى أن هذه الاتجاهات تمثل القيادات التي كانت تسود المجتمع المصري، وترسم خطا بيانيا لما كان يدور فيه، و توضح بجلاء جهود هيكل لوضع أسس جديدة لصحافة تستند إلى الكرامة والنزاهة والأصالة في الرأي، وقد صب هيكل هذه الآراء في شكل يحفظ للمقال الصحفي أصوله ومناهجه، كما سيجيء تفصيلا، تلك الأصول والمناهج التي لا تصدر إلا عن إيمان وعقيدة ومنهج ثابت في البحث يصل إلى ما يريد من نتائج بأسلوب تتراوح فيه موضوعية العلم وسلامة الأدب.

١ - الفكر القومي في الاتجاه الاجتماعي:

وقد سبق أن رأينا هذا الاتجاه في مقالات هيكل ممتدا منذ بداية الكتابة في الجريدة عن حرية المرأة، وغيرها، وهو الأمر الذي وجدنا فيه تأثير هذه المدرسة في اتجاه هيكل وتكوينه الفكري.

وفي السياسة الاسبوعية يشغل الاتجاه الاجتماعي حيزا كبيرا من حيث الكم، ويعبر عما كان يعانيه المجتمع من مشكلات واضطرابات مختلفة. كما يعبر عن التطور الحضاري الذي مرت به مصر خلال قلم صحفي يتفاعل مع المجتمع ومن خلال علاقات التأثير والتأثر.

ولعل مصدر اهتمام هيكل بهذه الناحية هو أنه بطبعه رجل يميل إلى التحليل والتعليل ويأخذ بطرائق التفكير الفلسفي والمنطقي المنظم والمجتمع في ذاته مجال من مجالات التفكير والتأمل.

ويواصل هيكل في هذا الاتجاه تفصيل دعوة قاسم أمين، وتوكيدها في المجتمع الجديد، ويعتبرها «الخطوة الأولى نحو الإصلاح الاجتماعي في عهدنا الحديث، أما قبل هذه الخطوة فكان آباؤنا وأجدادنا يعيشون في نوع من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطمأنينة لحالهم، والرضى عن معيشتهم، ومع ما كان يتولاهم من قلق سياسي بدت آثاره في سنة ١٨٨٢ ، لقد كانوا يحسبون من الناحية الاجتماعية انه ليس في الإمكان أبدع مما كان!! وليس شك في أنه كانت لهم قواعد ونظم في الحياة يأسف من يذكرها لأننا فقدناها. ولقد استثارت دعوة قاسم أمين أشد المقاومة أول العهد بها. بل لقد لقي صاحبها من إنكار الناس رأيه ومن قيامهم في وجهه ما يشهد به بقاء إسمه وإجلالنا جميعا لذكراه، بعد أن نجحت دعوته وظهرت آثارها فآمن الناس بها »[1] .

ويذهب هيكل من بعد، إلى تطور الحياة الاقتصادية واطراد التقدم العلمي، ويقظة الشعور بالقومية، وازدياد اتصالنا بالعالم « وتقديرنا لمركزنا فيه، وإحساسنا بتبعاتنا وبكرامتنا ازاءه، كل ذلك جعل التفكير في الإصلاح الاجتماعي ضرورة أولية، وبخاصة بعد الذي أصاب حياتنا الاجتماعية من اضطراب أرهف شعورنا بالحاجة إلى هذا الإصلاح، و ضاعف من حرصنا عليه »[2] .

ويتساءل هيكل: بأي إصلاح نبدأ؟ ويذهب إلى أن الإجابة على هذا السؤال هي « تشخيص العلة. والإصلاح علاجها. والعلاج لا ينجح من غير تشخيص، اللهم الا مصادفة وعلى سبيل التجربة. والمصلح كالطبيب لا يجرب إلا إذا استعصى عليه الاهتداء إلى موضع العلة ولم يوفق إلى تبين مصدرها »[3] .

وبهذا المنهج يذهب هيكل في تشخيص المشكلات الاجتماعية التي يراها في « الاضطراب الاجتماعي الذي نشكو منه ما أصاب عواطفنا إزاء الغير من ضعف جعل الواحد منا لا يفكر إلا في نفسه، وجعلنا في صلاتنا بالغير لا نعني من هذه الصلات إلا بمقدار مالها من نفع لذواتنا. هذه الأنانية جعلتنا

---

(١) السياسة الاسبوعية في ٥ مايو ١٩٢٨ .

(٢، ٣) السياسة الاسبوعية في ١٠ فبراير ١٩٤٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ننسى كل معنى للتضامن الاجتماعي، وكل معنى للمثل الأعلى»[1].

على أن هيكل يؤكد أننا لم نفقد كل «أسباب المناعة، وأنا نستطيع لذلك أن نقاوم هذه العلة وأن نتغلب إلى حد بعيد عليها. يقول: إن لنا من عقائدنا وماضينا ما أورثنا الإيمان الثابت بأن الحياة الدنيا متاع الغرور، وان الناس يجزون بما قدموا من عمل صالح وأن خير العمل الصالح البر والتقوى - البر الذي يجعلنا نؤثر على أنفسنا ولو كان بنا خصاصة، والتقوى التي تردنا عن السيئات وأن تبدت لنا نتائجها العاجلة في ثوب مبهرج بديع الزينة والزخرف من تكاثر المال أو بالمكانة التي تحكمنا في رقاب الناس. إذا استطعنا أن نكشف الحجب التي رانت على هذا الإيمان الثابت في نفوسنا بفعل الأنانية التي عصفت بالمجتمع المصري كما عصفت بغيره من المجتمعات، استعدنا الشيء الكثير من المناعة، وعدنا إلى حمى التضامن الاجتماعي الذي يقتضينا أن نعمل لغيرنا كما يعمل غيرنا لنا .. الخ»[2].

وإذا كان ذلك هو تصور هيكل لمقاومة العلة في أنفس المصريين، فإنه يدور في الاتجاه الاجتماعي حول القضاء على أسباب هذه العلة «حتى لا تصيب الجيل الذي يخلفنا وإنما نقضي على هذه الأسباب بالتربية الصحيحة لهذا الجيل منذ نشأته. وتربية الجيل الجديد الناشئ كانت حجر الزاوية في دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة. وهي اليوم حجر الزاوية في دعوتنا إلى التضامن الاجتماعي تضامنا يمتد على الزمان كما يمتد على المكان»[3]. ذلك أن «قاسم أمين كان يدعو إلى تحرير المرأة وإلى تعليمها كي تتولى القيام بتربية أبنائها. ونحن اليوم نريد تضامن أبناء الوطن جميعا للتعاون على هذه التربية الصالحة، نقيمها على أساس من الإيمان المستنير، والعلم الصحيح، والعواطف السامية، والعقيدة الثابتة بأن علينا في هذه الحياة واجبا نؤديه لأمثالنا من بني جنسنا،

(١) السياسة الاسبوعية في ١٠ فبراير ١٩٤٠.

(٢) نفس المرجع.

(٣) السياسة الاسبوعية في ٣٠ ديسمبر ١٩٣٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبني وطننا وبني عقيدتنا، وبني الإنسان جميعا[١].

والأمر الثاني في تربية الجيل الجديد عند هيكل هو «تنشئته بحيث يقدر الواجب تمام التقدير والعمل للخير العام، ويرفع لواء الإيثار على كل لواء ومقام الأخوة القومية والأخوة الإنسانية فوق كل مقام. بذلك يعود التضامن الاجتماعي قويا بين أبناء مصر. وبذلك يقوى بناؤنا القومي»[٢].

ويتصل بذلك ما كتبه هيكل عن التعليم لتحقيق هذا «التضامن الاجتماعي» وذلك لأن «اختلاف الأساس الذي يقوم عليه التعليم يجر إلى خلاف الناس في تصوير الأشياء، ويجر بالتالي إلى عدم السهولة في تفاهمهم بعضهم مع بعض، ويخلق نظاما للطوائف سببه اختلاف الثقافة هو شر من نظام الطوائف القائم على أساس من اختلاف الثروة وتفاوت توزيعها بين الناس»[٣].

وهو لذلك يكتب كثيرا عن: «إصلاح الأزهر والمعاهد الدينية»[٤]. وأن - «الأزهر يجب أن يكون جامعة عصرية»[٥] ويتحدث عن «الحيرة في تعليم الناشئة»[٦] كنتيجة لاختلاف الأساس الذي يقوم عليه التعليم، ويتحدث عن «التعليم الأولي وما يجب له»[٧] ثم عن «توحيد الثقافة والتعليم الأولى»[٨] و«سياسة التعليم في مصر»[٩] و«تنظيم التعليم وعطلة المتعلمين»[١٠] الخ.

(١) السياسة الاسبوعية في ٣٠ ديسمبر ١٩٣٩.
(٢) السياسة الاسبوعية في ١٠ فبراير ١٩٤٠.
(٣) السياسة الاسبوعية في ١١ مايو ١٩٤٠.
(٤) السياسة الاسبوعية في ٧ يوليو ١٩٢٨.
(٥) السياسة الاسبوعية ي ٤ اغسطس ١٩٢٨.
(٦) السياسة الاسبوعية في ١٥ اكتوبر ١٩٢٩.
(٧) السياسة الاسبوعية في ٩، ١٩ مارس ١٩٤٠.
(٨) السياسة الاسبوعية في ٢٣ مارس ١٩٤٠.
(٩) السياسة الاسبوعية في ١١ مايو ١٩٤٠.
(١٠) السياسة الاسبوعية في ١٨ مايو ١٩٤٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذه المقالات الأخيرة توضح مدى تطبيق هيكل للآراء التي كان ينادي بها قبل توليه الوزارة، وهي في نفس الوقت توضح الخطوط التي تميزت بها سياسة التعليم في الفترة التي تولى فيها هيكل وزارة المعارف.

كما يذهب هيكل في هذا الاتجاه الاجتماعي إلى ضرورة «التفكير لمستقبلنا الصناعي فان حياتنا العلمية راكدة أو تكاد. واقفة عندما ننقله من الغرب لحاجات الحياة اليومية، لا تحركها الحاجة إلى تعديل النظام الاقتصادي. وأنت تسمع في كل آن ضجة عن المتعلمين العاطلين ودعوة إلى رفع المصروفات المدرسية في الجامعة وفي التعليم الثانوي لإيصاد الباب في وجه التيار المتدفق نحو التعليم»[1]. ويخلص من ذلك إلى ضرورة أن يكون «لنا غرض قومي نرمي إليه من وراء العلم والتعليم»[2].

ويرى أن «تطورنا الاجتماعي يسير كما يسير نظامنا الاقتصادي وحياتنا العلمية لم يفكر أحد في مشكلاتنا الاجتماعية واضعا نصب عينيه غاية قومية يريد أن يحققها، بل ترانا إذا فكرنا في الأمر كان الدافع لتفكيرنا فيه عواطف الشفقة أحيانا والبر بالإنسان أحيانا أخرى، وهذه عواطف قد تحمد في الأفراد، لكنها لا قيمة لها في حياة الجماعة، ويوم فرض الله الزكاة في الإسلام وقرن بها الصدقة لم يقم الشارع الإسلامي ذلك على أساس العاطفة الفردية، بل أقامه على أساس النظام الاجتماعي»[3].

وتأسيسا على هذه الرؤيا الاجتماعية عند هيكل، يمكن فهم مواقفه الأخرى إزاء قضية المرأة، وقضية الفلاح، وغيرها، التي تقوم في مجموعها على أساس رؤياه ـ للتضامن الاجتماعي، في إطار الأساس القومي.

وسنكتفي هنا بموقفه من قضية الفلاح، التي شغلت حيزا كبيرا في الاتجاه

(١، ٢) السياسة الاسبوعية في ١١ مايو ١٩٤٠.

(٣) نفس المرجع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاجتماعي. ومن تلك: «واجبنا نحو الفلاح»[١] و«القرية المصرية»[٢] و«الفلاح وسياسة الإصلاح»[٣] و«أثر الحياة النيابية في حياة الفلاح»[٤] و«هجرة الريف إلى المدن»[٥].

وهو يصدر في هذه القضية عن إيمان عميق بأن النهوض بالفلاح هو نقطة البدء، التي لا غنى عنها في أدائه. وإذا لم نقم إلى اليوم بشيء مذكور منه فذلك لاعتقاد هؤلاء المسئولين خطأ ما تقوم به الدولة من العمل للفلاحين إنما تقوم به كرما منها وإحسانا وانه ترف يبذل لهذه الطائفة، وأن صح أن تسمى أنه للفلاحين الذين يتألف منهم سكان مصر جميعا طائفة وهم في الحقيقة الأمة كلها. هذا الاعتقاد الفاسد الضار هو الذي قعد بنا عن أداء هذا الواجب الأول»[٦].

وهو لذلك ينادي بتهيئة أسباب الحياة الإنسانية للفلاح «كما نفهم نحن اليوم هذه الإنسانية. ولكي نفعل ذلك يجب أن نمهد الطريق أمامه ليتمكن من تنمية قواه إلى غاية ما يستطيع من الناحية الصحية أو من الناحية العقلية، أو من الناحية العملية. ويجب للنجاح في تهيئة هذه الأسباب أن يؤمن المسئولون عن مصير هذه البلاد بأن ما يقومون به من ذلك واجب معلق في عنقهم لوطنهم ولأنفسهم».

وهكذا يبين مما تقدم أن هذا الاتجاه الاجتماعي يمثل تيارا كبيرا من تراث هيكل الصحفي في السياسة الاسبوعية، ويبرز ما كان يرجوه من وجوه الإصلاح المختلفة حتى يصل المجتمع إلى خير ما ينشده. وآراء هيكل في

(١) السياسة الاسبوعية في ٢٧ مارس ١٩٣٧.
(٢) السياسة الاسبوعية في ٦ نوفمبر ١٩٣٧.
(٣) السياسة الاسبوعية في ٦ يناير ١٩٤٠.
(٤) السياسة الاسبوعية في ١٣ يناير ١٩٤٠.
(٥) السياسة الاسبوعية في ٢٠ ابريل ١٩٤٠.
(٦) السياسة الاسبوعية في ٢٧ مارس ١٩٣٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاتجاه الاجتماعي تبين رغبته في تطوير المجتمع ورقيه، وهي آراء تذهب إلى أن الوسيلة إلى ذلك هي التربية والتعليم.

٢ ـ الفكر القومي في الاتجاه الثقافي:

ويتصل بالاتجاه الاجتماعي في مقال هيكل اتجاه ثقافي ازدهر في وقت النهضة الفكرية التي سادت مصر بعد ثورة ١٩١٩، نتيجة لقاء طائفة قراء السياسة وطائفة قراء الأدب عن طريق كتَّاب المقال الذين نقلوا الأدب إلى الطائفة الأولى ونقلوا السياسة إلى الطائفة الثانية فكان على الكتَّاب أن يعاونوا الطائفتين على القراءة والتذوق، وإذذاك سعدت مصر بألوان فكرية وأدبية شتى، عرضنا في الفصل السابق لأمثلة منها عند هيكل. على أننا هنا سنتحدث عن الجزء المتمم لذلك الفصل حتى تستبين ملامح الاتجاه الثقافي في مقال هيكل في السياسة الاسبوعية، وهو الجزء الخاص باتجاه هيكل نحو الشرق.

فيصور هيكل أثر الحرب في حركة التجديد في الشرق[١]. ويذهب إلى أن الحرب جعلت «الشرق ينهض إلى بعث يضارع بعث أوربا على أثر العصور الوسطى ويضارع بعث هذه الأمم الشرقية نفسها أثر قيام الإسلام». ويذهب إلى أن الحرب قد «أزاحت طبقات الجمود المتحجرة» وأن «أصحاب الرأي أيام الجمود لن يكونوا دعاة الحرب الجديدة ولا محققي الأمل الإنساني الأسمى. هذا أمر تشعر به الجماهير شعورا صادقا. وهي لذلك قد تخلت عن هؤلاء الجامدين وإن كانت ما تزال آخذة بتعاليمهم لأنها لما تجد في الجديد ما يحل محلها وينظم شئون العيش والحياة تنظيا يكفل الطمأنينة الوادعة المستريحة. لكن الجديد يجب أن يقيم قواعد مكان ما انهار وتداعى».

ويذهب إلى أن أثر الحرب امتد إلى نظرة الجماهير للفن فأصبحت على غير ما كانت عليه «تتطلع بعين العطف الكبير إلى ما يبذل من الجهود لاحياء

(١) السياسة الاسبوعية في ٩ ابريل ١٩٢٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفن الشرقي والتقدم به لمجاراة حضارة العصر الحاضر. فالشعر والنحت والتصوير والنقش وما إلى هذه الفنون مما كان بعضه باقيا عندما رسم العرب له من خطى، والبعض الآخر موسوما بميسم الإثم، أصبح الكل ينظر اليوم إليها يريد بعثها في صورة شرقية جديدة تتفق والبعث النفسي العام الذي تهتز له أرجاء الشرق جميعا. والفن الجميل ثمرة الحضارة، بل هو رحيق هذه الثمرة، فالتطلع إليه ورجاء النجاح فيه والبلوغ فيه إلى مرتبة الكمال، تطلع إلى هذا الرحيق ان لم نبلغه اليوم فأبناؤنا أو أحفادنا بالغوه لا ريب كأثر للبعث الحاضر »[1]. ويذهب هيكل إلى أن حركة التجديد « دليل على عمق إحساس الأمم الشرقية بضرورة القاء النير الأجنبي عنها، وإن كلفها ذلك ما كلفها، وبضرورة التعاون مع الدول الأخرى تعاون أخوة ومحبة، لا تعاون سيادة وعبودية »[2].

ونستخلص من مقال هيكل الثقافي مفهومه للحضارة التي « ليس قوامها هذه المظاهر التي تراها العين في الملبس أو حياة الأسرة وما إليها مما نستعيرها نحن بني الشرق مما في الغرب »[3] وإنما « الحضارة روح وإيمان. فإذا قلت الحضارة الإسلامية، أو الحضارة المسيحية، فأنت لم تقصد إلى الغزو الذي غزاه المسلمون وإلى ما فتحوه من أمصار، ولم تقصد كذلك إلى ما استحدثوا في اللباس وفي حياة الأسرة، وإنما أنت تقصد إلى أصل أعمق من هذا، أن تقصد إلى تصور الناس لعلاقة الفرد ولعلاقة الجماعة الإنسانية بالوجود كله. فهذا التوحيد الذي قام محمد بالدعوة له هو أساس الحضارة الإسلامية كلها. ولهذه الفكرة خضعت ألوان التفكير والإحساس في الأمم المختلفة التي انتشر الإسلام فيها. ولأفكار معدودة متصلة اتصالا وثيقا بفكرة التوحيد يرجع الفضل في تطورات العالم الإسلامي العظيمة وفي أيام مجده وفخاره. وفي طليعة

(١، ٢) السياسة الاسبوعية في ٩ أبريل ١٩٢٧.

(٣) السياسة الاسبوعية ٢٩ ديسمبر ١٩٢٧.

هذه الأفكار المتصلة بالتوحيد فكرتا العدل والقصاص »[1].

وتأسيسا على ذلك يذهب هيكل إلى أن حضارة الغرب المادية ليس فيها مستقبل العالم، وما تلبث « الحركة العلمية العظيمة التي شهد العالم في القرن الأخير والتي ما تزال تهزه اليوم من جهتها التطبيقية. أن تتمخض عن صور فنية تبعث إلى النفوس شعرا أكثر مما تبعث إليها علما. وتدعو الناس للتفكير من جديد في الوجود كله كمجموع: وفي الفرد الإنساني محاطا بكل أسباب الرخاء وعلاقته بهذا المجموع »[2]. ويستشرف هيكل آفاق المستقبل فيرى.. « الشرق ينفخ في حضارة الغرب بعض آثار هذه الروح، وأهل الغرب يدخلون في حضارة الشرق أفواجا مؤمنين لا مستعبرين. وإذا الشرق والغرب يتعاونان للخير والحق. وإذا ضياء باهر يفتح أبواب عصر جديد »[3].

تلك بإيجاز صورة لرؤية هيكل للشرق الجديد، وهي رؤياه للحضارة الجديدة التي يتم فيها اللقاء « بين الشرق الروحي، والغرب المادي »، على أن المقال في اتجاهه الثقافي عند هيكل مضى يدعو إلى هذه الحضارة على أساس حركات فكرية عميقة الجذور، لا تلبث أن تدفع بالناس إلى الثورة على المفاهيم والقيم المتوارثة التي تسربت إليها عوامل الاضمحلال فضعفت، فوجب أن تقوم على أنقاضها أفكار وقيم جديدة تتفق مع ما تتجه إليه الجماعة في طورها الجديد.

ويتصل بذلك دعوته إلى « أدب » جديد يسد حاجة الحضارة الجديدة، وهذا الأدب الجديد « يحتاج إلى غذاء عقلي وإلى ثقافة متينة وإلى تعاون في التفكير بين الكاتب والأديب من ناحية وبين الفيلسوف المفكر والعالم الباحث والمؤلف المحقق من ناحية أخرى. وهو يحتاج خاصة إلى التفكير الاجتماعي في شئون الأمة وفيما يجب أن يكون مثلها الأعلى وفيما ينطوي هذا المثل الأعلى

---

(١) السياسة الاسبوعية ٢٩ ديسمبر ١٩٢٧.

(٢، ٣) نفس المرجع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليه من أمثال عليا تتصل به وتتضافر وإياه في السير بالحياة إلى ناحية المعرفة وإلى ناحية الكمال »[1].

فغاية الأدب ـ عند هيكل توجيه التفكير إلى الأغراض التي يجب أن تجعلها الجماعة مرماها. وليست غايته قاصرة على التسلية وقتل الوقت »[2]. يقول هيكل في تأكيد هذا المفهوم الجديد[3] « إن مشاكلنا الاجتماعية ليست بالقلية وتصوير الغاية التي نريدها مثلا أعلى يحتاج إلى تفكير كتفكير كتاب الأمم المختلفة في عصور تطورها. ونحن اليوم في عصر تطور لا يقف في حدود بلادنا بل يتناول البلاد التي تتكلم العربية جميعا، أهل هذه الأمم يبتغون حالا خيرا مما هم فيه، ويريدون أن ينتقلوا إلى هذه الحال انتقالا فكريا بادئ الرأي، ليكون وسيلتهم القوية السليمة إلى الحال الجديدة في صورتها العملية الواقعية. وهم في هذا يتوقون إلى ما يقدم لهم الكتاب والأدباء من الثمرات ».

ويذهب هيكل في تصوير خطر هذا الأدب الجديد في الانتقال إلى الحضارة الجديدة. يقول: « ورب كتاب ابعد أثرا في هذا الشأن من كل قانون يمكن أن ينظمه، بل إن التشريع الذي لا يسبقه شعور إنساني بالحاجة إليه قل أن يلائم الحاجة التي يسن لها »[4]. وذلك لأن « البحث والدراسة لا يكفيان وحدهما للتشريع. بل لا بد من أن تصقل الفكرة التي تبرز ضرورته الوان الأدب المختلفة في الشعر والنثر »[5]. ويذهب من ذلك إلى أن الأدب « هو الذي يحل المشاكل جميعا كما انه هو الذي يخلقها. وحله لها هو التمهيد الضروري إذا أريد للشعوب الاجتماعية المختلفة ان تسير على هدى وفي نظام يكفل للجماعة نوعا من الطمأنينة ويكفل لها اطراد السير في سبيل التقدم »[6].

ومن هذا التطواف السريع في الاتجاه الثقافي للمقال في السياسة الاسبوعية

(١، ٢) السياسة الأسبوعية أول يناير ١٩٣٨.

(٣) نفس المرجع.

(٤، ٥) السياسة الاسبوعية في ١٦ فبراير ١٩٢٩.

(٦) السياسة الاسبوعية في أول يناير ١٩٣٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تبين درجة الثقافة العالية والفهم العميق لشخصية الكاتب التي تستتر وراء المقال، ذلك أن هذا الاتجاه في السياسة الاسبوعية أكثر عمقا منه في السياسة اليومية، حيث يطول نفس الكاتب في المقال، كما نجده يكثر من نقد الكتب والأبحاث الأدبية والحديث عن الأدباء. كما يتحدث عن «الأدب المصري في حياة الأسرة»[1].

و«ذوق الجمال وتعهده في نفوس الناشئة»[2] و«ركود الأدب في هذا العصر»[3] و«اللغة والأدب»[4] و«تربية العاطفة وأثرها في الأدب»[5]. الخ. وقد رأينا هذا الاتجاه الثقافي يتطور في مقال هيكل ويتسع لأشكال جديدة من أشكال المقال منها المقال القصصي، والمقال الوصفي، والمقال النقدي، والتي سوف نتحدث عنها في فصل خاص من الباب الأخير.

٣ - الفكر القومي في الاتجاه السياسي:

وقد تناول المقال الافتتاحي للسياسة الاسبوعية بحكم طبيعته التي أعلنها هيكل في العدد الأول «سياسة الأسبوع»، أسبوعا بعد آخر، وعلى ذلك فالمقال في هذا الاتجاه كان يدور حول الأحداث السياسية المحيطة بهيكل. وقد أتاحت له طبيعة صدور السياسة الاسبوعية كل اسبوع فرصة التعمق والتحليل والشمول في المقال السياسي عما كان في السياسة اليومية.

ولقد سبق أن أشرنا إلى موقف هيكل من الانقلاب الدستوري في عهد صدقي والذي أدى إلى اغلاق السياسة الأسبوعية، والسياسة اليومية، ومقالات هيكل ضد هذا الانقلاب الدستوري تسير في اتجاه سياسي واضح ومحدد، كما

(١) السياسة الاسبوعية في ٢ فبراير ١٩٢٩.
(٢) السياسة الاسبوعية في ٩ فبراير ١٩٢٩.
(٣) السياسة الاسبوعية في ١٦ فبراير ١٩٢٩.
(٤) السياسة الاسبوعية في ١ يونية ١٩٢٩.
(٥) السياسة الاسبوعية في ٨ مارس ١٩٣٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رأينا، وفي نصرة المبدأ الدستوري ومقاومة أي اعتداء على الدستور.

على أن المقال في الاتجاه السياسي في هذه الفترة يذهب مذهب الدراسة في مقاومة الانقلاب الدستوري أكثر من العجلة التي تميز بها المقال اليومي، فوجدنا هيكل يكتب عن «النظام النيابي والنظام البرلماني»[1] و«دستور الأمة عائد لا محالة»[2] و«الأزمة الاقتصادية وموقف الوزارة»[3].

ومن مقالات هيكل قبيل تعطيل السياسة الاسبوعية بقليل، مقال بعنوان «حرية القلم»[4] كتبه بعد تعطيل «السياسة اليومية»[5]، ونجد في هذا المقال دراسة قصيرة لمواقف «الباطشين البغاة» من تقييد حرية القول والكتابة. وهم «في سبيل هذا التقييد يصلون أرباب الأقلام حربا لا رحمة فيها ولا هوادة: فمن ارهاق، إلى سجن، إلى نفي وتشريد. وهم في حربهم هذه يندفعون ضد الكتاب كاشرة أنيابهم، محمارة عيونهم مفتحة خياشيمهم، أشبه الأشياء بالكواسر المفترسة حين يغريها منظر الدم فيهيج فيها كل غرائزها الوحشية».

وفي هذا المقال يذهب إلى أن الكاتب «الذي يستخلص من مناجم التشريع ويستلهم من سماوات الفلك هذا النور الإنساني الذي سارت الإنسانية وما تزال ولن تزال تسير على هداه متوجهة نحو كمال الحق وكمال الخير وكمال الجمال. وهذا التوجه نحو الكمال هو الذي يرج قلوب العتاة والطغاة، وهو الذي يجعلهم يحاربون حرية القلم ما استطاعوا فبهم يؤمنون بأنه لا نور ولا زهر ولا نبوغ ولا عبقرية إذا لم تكن هذه الحرية».

على أن مقال هيكل قبل الانقلاب الدستوري كان يتوجه إلى الشرق

---

(١) السياسة الاسبوعية في ١٦ اغسطس ١٩٣٠.

(٢) السياسة الاسبوعية في ٣ يناير ١٩٣١.

(٣) السياسة الاسبوعية في ١٠ يناير ١٩٣١.

(٤) السياسة الاسبوعية في ١٧ يناير ١٩٣١ - ثورة الأدب ص١٦.

(٥) السياسة الاسبوعية في ٢٧ ديسمبر ١٩٣٠.

العربي ومشاكله، فهو يكتب عن «مصر وجاراتها الشرقية»[١] و«الشرق في طور بعثه»[٢] و«مؤتمر الشرق العربي»[٣] و«وجود اليهود والعرب في فلسطين»[٤]. كما يتوجه إلى المسائل العالمية والدولية فيكتب عن «المجر ضحية الحرب»[٥] و«أعياد سويسرا»[٦] و«في سبيل السلام»[٧]. ويتابع المسائل السياسية في الداخل أيضا فيكتب عن «البرلمان المقبل في مصر»[٨] و«المعاهدة المصرية الانكليزية»[٩].

وحين تصدر السياسة الأسبوعية بعد احتجابها في سنة ١٩٣٧، يواصل هيكل في مقاله السياسي مناقشة الأوضاع السياسية الجديدة التي جدت بعد احتجاب صحيفته وأهمها عودة الدستور وعقد معاهدة ١٩٣٦.

ونرجح أن تكون عودة السياسة الأسبوعية في سنة ١٩٣٧ بالذات مقصودة لمعارضة المعاهدة، التي وقف منها هيكل وحزبه في البرلمان هذا الموقف، ولم تكن لهم صحيفة يعبرون بها عن موقفهم خارج البرلمان، ولذلك وجدنا هيكل يوضح رأيه في المعاهدة أثناء المناقشات البرلمانية، ويقول للنحاس: إن المسألة مسألة تحليل أكثر منها تأييدا أو معارضة»[١٠].

وقد وجدناه يتخذ هذا المنهج نفسه في مقاله السياسي، فيحلل ظروف المسألة المصرية والمفاوضات تحليلا دقيقا، حدد في خلاله النظرية المصرية

---

(١) السياسة الاسبوعية في ١٩ نوفمبر ١٩٢٧.

(٢) السياسة الاسبوعية في ٢٥ فبراير ١٩٢٨.

(٣) السياسة الاسبوعية ي ٨ ديسمبر ١٩٢٨، ١٤ يونية ١٩٣٠.

(٤) السياسة الاسبوعية في ٢١ يناير ١٩٢٨.

(٥) السياسة الاسبوعية في ٢٥ اغسطس ١٩٢٨.

(٦) السياسة الاسبوعية في ٢٠ ابريل ١٩٢٩.

(٧) السياسة الاسبوعية في ٢٠ ابريل ١٩٢٩.

(٨) السياسة الاسبوعية في ٣٠ نوفمبر ١٩٢٩.

(٩) السياسة الاسبوعية في ٧ ديسمبر ١٩٢٩.

(١٠) غربال: تاريخ المفاوضات ج١ ص٣٠٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والنظرية الانكليزية، وقال: «ان وجهة النظر المصرية بسيطة كل البساطة، فمصر تريد أن تكون دولة مستقلة استقلالا صحيحا وألا يكون لأحد سلطان عليها داخل حدودها بأية صورة من الصور، وأن يكون لها من الحظ في الحياة ما لأية أمة مستقلة من الأمم الأوربية. أما وانجلترة محتلة مصر منذ واقعة التل الكبير بجيوشها، فقد وضعت يدها على بلادنا وجعلت توجه بنفوذها سياستنا»[١].

ويوضح هيكل النظرية الانجليزية من خلال مذكرة كرزون للسلطان على أثر اخفاق مفاوضاته مع عدلي يكن: «أن مصر واقعة على خط المواصلات الرئيسي بين بريطانيا العظمى وممتلكات جلالة الملك في الشرق. ولا نزاع في أن جميع الأراضي المصرية ضرورية لهذه المواصلات منذ أصبح خط مصر مقرونا بتأمين منطقة قنال السويس ولا يمكن فصلها منها[٢].

ويرى هيكل أن المعاهدة، سجلت النظريتين المصرية والانجليزية، ولكنها «سجلت نظريتنا نحن تسجيلا نظريا ثم قيدتها من الناحية العملية بأثقل القيود. أما النظرية الانجليزية فقد سجلتها تسجيلا عمليا دون أن تحرص على الأساس النظري الذي نقرأه في الكتب[٣]. ويواصل في السياسة الأسبوعية مناقشة الآثار المترتبة عليها، فيكتب عن «مؤتمر الامتيازات الأجنبية»[٤]. و«الموظفون الأجانب»[٥] و«سياسة الدولة المالية»[٦].

ويخلص هيكل في تحليله في المقالات التي كتبها عن المعاهدة إلى أن قبول

---

(١) السياسة الاسبوعية في ١٦ يناير ١٩٣٧.
(٢) السياسة الاسبوعية في ١٦ يناير ١٩٣٧.
(٢) السياسة الاسبوعية في ١٦ يناير ١٩٣٧.
(٣) نفس المرجع.
(٤) السياسة الاسبوعية في ١٧ ابريل ١٩٣٧.
(٥) السياسة الاسبوعية في أول مايو ١٩٣٧.
(٦) السياسة الاسبوعية في ٥ يونيو ١٩٣٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعاهـدة لم تتـح لمصر «أن تتمتـع بحقـوق الممتلكـات البريطـانيـة المستقلـة (الدومنيون)» كما لم تتح لها من باب أولى تحقيق «الاستقلال التام»[1]. وهي بعد «تطبيق لما جاء في المعاهدة المصرية الانجليزية التي اشترك الزعماء جميعا فيها والتي نسجت على غرار مشروعات المعاهدة السابقة منذ مشروع ملنر سنة ١٩٢٠ إلى مشروع محمد محمود في سنة ١٩٢٩»[2]. ولقد اتجه المقال السياسي عند هيكل كذلك إلى مناقشة الجو السياسي الذي عاشته السياسة الأسبوعية في طورها الجديد.

وقد اتسم هذا الجو السياسي بشيء كثير من «الاضطراب» على حد تعبير هيكل. وقد صور «اضطراب الجو السياسي في مصر»[3] في مقال بهذا العنوان، يقول: «الجو السياسي مضطرب في مصر. لكنه ليس مضطربا لأن ايطاليا تحشد جنودها على حدودنا فذلك أمر لا تفكر فيه الوزارة ولا تعنى به. ولعلها اذا ما ذكر أمامها ابتسمت وقال أولو الأمر فيها: البركة في انجلترا. وهو ليس مضطربا لما هو حادث في فلسطين من شئون محزنة مشاركة لجارة لها مع مصر أواصر تاريخية قديمة، وبينها وبين مصر اليوم مصالح متصلة. وهو ليس مضطربا لان سوق القطن هوت الأسعار فيه إلى حد يثير المخاوف للمستقبل، ولأن سوق الأوراق المالية مهددة مثل هذا التهديد بسبب ما حدث في أمريكا. كلا! ليس الجو السياسي في مصر مضطربا لسبب من هذه الأسباب ولا لمثلها مما يضطرب له الجو السياسي في أي بلد آخر»[4].

ويـرجـع هيكـل أسبـاب اضطـراب الجو السيـاسي في مصر إلى انحراف الأحزاب عن المبادئ الدستورية «ذلك بأننا ما نزال في بداية حياتنا

---

(١) السياسة الاسبوعية في ١٧ يوليو ١٩٣٧.

(٢) السياسة الاسبوعية في ٢٣ أكتوبر ١٩٣٧.

(٣) السياسة الاسبوعية في ٢٣ أكتوبر ١٩٣٧.

(٤) نفس المرجع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدستورية وما يزال النظام البرلماني متعلقا بتقديراتنا العقلية وبأهوائنا الذاتية، غير أصيل في نفوسنا كما هو في نفوس الانجليز لأننا بعد في أول جيل عرفه بالتجربة العملية. وهذا هو السبب فيما أصاب هذا النظام من وقف وتعطيل وإلغاء وتبديل في الماضي ـ ونحن ما نزال مع الأسف تبلغ بنا الحزبية أن نؤيد رأيا لا يتفق مع المبادئ الأساسية لأننا نفهم الحكم على غير ما يجب أن يكون مفهوما. وليس أيسر من أن يتهم بعضنا بعضا وهو يعلم أنه خاطئ في هذا الاتهام، وأنه مندفع إليه بحكم هواه. وهذا هو السبب في هذه المظاهرة العنيفة التي تقع في مصر من حين إلى حين، وفي اتخاذ القانون والعدالة ذريعة إلى مقابلة العنف بالعنف، وهذا وذاك ابتغاء الظفر الشخصي، لا ابتغاء مصلحة عامة »[1].

ومن مظاهر هذا الاضطراب: ظهور فرق القمصان الملونة، ومنها فرقة القمصان الزرق التي تنتمي إلى حزب الوفد، وفرقة القمصان الخضر التي تنتمي إلى حزب مصر الفتاة، وقد أشاعت هذه الفرق الملونة شعورا بالخوف في البلاد، وأصبحت خطرا على الحياة النيابية والأمن والقضاء.

ويرجع هيكل ظهور هذه الفرق إلى انحراف الأحزاب عن المبادئ الدستورية »[2]، ويذهب إلى مقاومتها في عدة مقالات بعنوان: « القمصان الملونة »[3] و« أسطورة الزعامة »[4]، وفي هذا المقال يذهب هيكل إلى أن النحاس أنشأ القمصان الزرقاء التي أقسمت أن تضحي بكل شيء في سبيل زعامته ورفعته، ودكتاتوريته وسلطانه المطلق » ومن هذه المقالات ايضا « لمن الحكم اليوم »[5].

---

(١) السياسة الاسبوعية في ٣٠ أكتوبر ١٩٣٧.

(٢) نفس المرجع.

(٣) السياسة الاسبوعية في ٤ سبتمبر ١٩٣٧.

(٤) السياسة الاسبوعية في ١١ سبتمبر ١٩٣٧.

(٥) السياسة الاسبوعية في ٢٥ ديسمبر ١٩٣٧.

ومن أسباب الاضطراب السياسي كذلك، تقييد حرية الصحافة، ويرى هيكل أن هذا الأمر يرجع إلى انحراف الأحزاب عن المبادئ الدستورية، فيقول بعنوان «نظام الحكم في مصر»[1]: أن «النظام الديمقراطي ينكر الطغيان في كل صورة من صوره، ويأبى على كل فرد أن يتكم في الآخرين باسم العدل المطلق والاستبداد المحسن أو الزعامة الشعبية أو بأي اسم آخر».

ومن أجل ذلك وجدنا المقال السياسي عند هيكل يتجه في الاتجاه الدستوري، لمواصلة رسالته الدستورية، فيكتب عن «الحقوق والسلطات الدستورية»[2] و«استقلال القضاء»[3] و«المؤامرة على الدستور»[4] و«صيانة الدستور وقانون محاكمة الوزراء»[5]. و«استقلال الجامعة»[6] و«التقاليد الجديدة في حياتنا البرلمانية»[7].

وحين تنشب الحرب العالمية الثانية، يشغل موضوع «الحرب والسلام» حيزا كبيرا في مقال هيكل السياسي فيكتب عن «خطر البلشفية في العالم»[8]، و«الاتجاهات الدولية وتطورها»[9] و«السلام الذي ينشده العالم»[10]، ثم يتحدث عن «مصر والحرب»[11] وينبه في هذا المقال إلى «أن موقف مصر من هذه الحرب يقتضيها اليقظة كل اليقظة والانتباه كل الانتباه».

---

(١) السياسة الاسبوعية في ٢٨ اغسطس ١٩٣٧.
(٢) السياسة الاسبوعية في ٣٠ اكتوبر ١٩٣٧.
(٣) السياسة الاسبوعية في ٢٧ نوفمبر ١٩٣٧.
(٤) السياسة الاسبوعية في ٢٧ نوفمبر ١٩٣٧.
(٥) السياسة الاسبوعية في ١١ ديسمبر ١٩٣٧.
(٦) السياسة الاسبوعية في ١٨ ديسمبر ١٩٣٧.
(٧) السياسة الاسبوعية في ٢ ديسمبر ١٩٣٩.
(٨) السياسة الاسبوعية في ٩ ديسمبر ١٩٣٩.
(٩) السياسة الاسبوعية في ٢٣ ديسمبر ١٩٣٩.
(١٠) السياسة الاسبوعية في ٣٠ ديسمبر ١٩٣٩.
(١١) السياسة الاسبوعية في ١٣ يناير ١٩٣٩.

تلك صورة سريعة للاتجاه السياسي في مقال هيكل الصحفي في السياسة الاسبوعية، وهي صورة توضح الاتجاه الدستوري الذي اتجه فيه مقال هيكل منذ البداية، ولكن هذا الاتجاه في السياسة الاسبوعية يتم بعمق لم تتحه ظروف الاصدار اليومي لمقاله في السياسة اليومية.

فوجدنا المقال في السياسة الاسبوعية، يخرج عن دائرة النزال والتهديم والدافع الحزبي الملتزم إلى حد كبير، فكان هيكل بحكم ثقافته السياسية أحرص في السياسة الاسبوعية على بيان الحقائق، وأعدل في إرسال الرأي، ومن أجل ذلك اتسم مقاله بسمة التحليل الموضوعي. وهي سمة اتسم بها مقال هيكل في اتجاهاته التي عرضنا لها جميعا، فتميز المقال الاجتماعي، والمقال الثقافي، والمقال السياسي بتحليل موضوعي يعتمد على التفكير المنطقي، وهو الأمر الذي سوف ندرسه في أسلوب هيكل.

على أننا نستطيع أن نقول إجمالا بعد هذا العرض المسهب لاتجاهات التجديد في السياسة الاسبوعية من خلال مقالات هيكل، أن السياسة الاسبوعية استطاعت أن ترفع الصحافة إلى مقام الأدب، وذلك كما تبين، أن القارئ الذي يتناولها لا يجد الاسلوب الأدبي فحسب وإنما يجد الدلالة الاجتماعية والإرشاد والتوجيه الفلسفيين في المقال التحريري.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب السابع

هيكل والفكر القومي


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال الزعيم الايطالي «ماتزيني» في القرن الماضي وهو يدعو الشباب إلى الوحدة الإيطالية: «انكم تبحثون عن وطن وهي فطرة غرسها الله في قلوبكم، ويدعوكم صوت أبطالكم.. إنكم أخوة».. ولقد كنا في انتفاضاتنا الوطنية نبحث عن وطننا مصر ونجد في الكشف عن مقوماته وخصائصه، وعن إمكانياته الطبيعية والبشرية، فلا نكاد نصل إلى شيء.. وتركزت الوطنية في نفوسنا وعقولنا، فكرة مجردة لا حدود لها ولا أهداف، تلونها العصبية ويشكلها الطغيان الفردي، ويعبث بها الاستعمار.. إن وطننا مصر ليس مجرد خريطة في مصور جغرافي ترسم حدوده بالخطوط والألوان، وليس فكرة ما أيا كانت، يتلقفها بعضنا عن بعض أو يحفظها من كتاب، وليس عاطفة مبهمة لا تحفز إلى عمل، وليس جيلا واحدا من الناس، وليس طبقة معينة من الضاربين في أرضه.. ولكنه هبة الله، وتراث أحقاب وجماع أجيال، وواقع حياة.. وكل مواطن صورة حية ناطقة للوطن، فيه طبيعة بيئته ومجد ماضيه، وجهاد حاضره وأمل مستقبله[1].

وإذا كان المستعمرون والطغاة قد لفوا هذا الوطن في مجموعه وفي آحاده بالضباب، حتى لا يكتشفه المواطنون، وحتى تتحكم فيه طائفة من غير أهله

(١) د. عبد الحميد يونس «مجتمعنا» ـ القاهرة ص١٥.

تساندها قلة خيلت لنفسها أن الوطن وقف عليها وحدها، تحتكر خيراته، وتبدد ثمراته، وتغمض أعينها عن إمكانياته ومقدراته، فإن أحرار هذا الجيل قد بددوا الضباب، ورفعوا الغشاوة وجدوا يكشفون عن الوطن الذي طال بحث المواطنين عنه.. نحن جميعا هذا الوطن، والكشف عنه هو الكشف عن أنفسنا.. ولقد مضى الزمن الذي كنا فيه منقسمين إلى بيئات، وأقاليم، وكان الفرد منا يدرج على أرض لا يعرفها، ولا تكاد تكون له بها صلة، وأصبحنا نعرف وطننا بطاقته المادية والبشرية، وبتراثه العريق في الماضي، وبإمكانياته ومقدراته في الحاضر، ونصنع مستقبله الذي يكافئ تاريخه، والذي يضعه في مكان الصدارة من العالم المتحضر، كما وضعه الله في موقعه الجغرافي الفريد، في ملتقى القارات الثلاث، وعند مجمع البحرين وبين صحراوين عظيمتين[1].

ولسنا نريد أن نقف من زاوية المؤرخين الأجانب الذين كانوا يحكمون على مصر من خارجها، ويلونون آراءهم فيها واعين أو غير واعين بموقف حكوماتهم أو شعوبهم من مصر، وان كانوا يقدمون بين يدي أنظارهم التاريخية بتمهيد يصور الوطن المصري تصويرا جغرافيا عاما يضعها في مكانها من خطوط الطول أو خطوط العرض، ثم يصفون تربتها الصفراء والسوداء والخضراء، ويقيسون سطحها، ويوازنون بين واديها ونجدها وكثيبها، فان ذلك لا يغنينا شيئا، ونحن نريد أن نستكمل اكتشاف وطننا المصري، لندرك انطباعه فينا، وتأثيرنا نحن فيه، فالوطن ليس، ولا يمكن أن يكون بيئة مادية جغرافية فحسب، نلاحظ التغير فيها بالمنطق الجغرافي أو التاريخي الذي يقف عند السطح ولا يتغلغل في البواطن بل لا يكاد يفطن إلى الدلالات الروحية والنفسية، فالعامل البشري بما فيه من نزوع ومعرفة واتجاه هو مضمون هذا الوطن المادي وهو معناه الذي لا معنى له سواه، وهو فوق هذا وذاك يؤثر في شكله ويغير بعض التغيير في صورته، فالنيل - مثلا - قد حول عن مجراه

---

(١) عبد الحميد يونس: مجتمعنا - القاهرة، ص ٢٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بفعل مينا أول من عرف من الفراعين، ثم ضبطت الإرادة البشرية فيضانه، ووزعت مياهه، وسوف يتحكم قريبا في مجراه، وفي تياره وتجعله واحد المنسوب طوال العام تقريبًا[1].

مصر للمصريين:

ولقد اتسمت مدرسة الجريدة كمدرسة فكرية بسمتين بارزتين: سمة التجديد، وسمة التعقيل والترشيد، مصبوغتين بصبغة الحرية، تلك الحرية التي جعلها لطفي السيد قاعدة لكل انتاج فكري ولكل إصلاح عام ولكل علاقة بين الفرد والمجتمع، وبين الفرد والحكومة، واستقام له منها مذهب دعاة «مذهب الحريين Liboralism» نسبة إلى الحرية مفضلا هذه التسمية على غيرها من المسميات الأخرى كقولنا «مذهب الحرية» أو «مذهب الأحرار»[2]. ويقضي بألا تضحى حرية الفرد منفعة لحرية المجموع وهذا المذهب، مذهب الحريين، هو دون غيره الذي يجب أن يكون أساسا للحكم في مصر ولكل علاقة بين الفرد والمجتمع أو بين الفرد والحكومة[3].

وهذه النزعة نحو تقديس الحرية الفردية أو الحرية الشخصية، كما كان يدعوها لطفي السيد في معظم الأحيان هي التي صبغت دعوة التجديد والترشيد في مدرسة الجريدة الفكرية، التي حمل لواءها من بعد محمد حسين هيكل، فكل ما كتبه على صفحات الجريدة وما قاله في خطبه العامة، وما كتبه على صفحات السياسة اليومية والاسبوعية من بعد، يتسم بهذه النزعة الشديدة إلى تقديس الحرية الفردية واحترامها، فأصبحت الديمقراطية عند هيكل مثلا أعلى، والحرية عنده لا تقبل قيدا ولا تقف أمامها حدود، ذلك أن الحرية حق أصيل، وأن أي قيد للحرية ما هو إلا امتهان للكرامة الإنسانية.

---

(١) عبد الحميد يونس: مجتمعنا ـ القاهرة، ص ٢٥.

(٢) حمزة: أدب المقالة ج٦ ص٢٥.

(٣) الجريدة: في ٢٠ ديسمبر ١٩١٣.

كانت الحرية عند هيكل هي حرية الفرد وحرية الفكر وحرية العلم، وكونت الديمقراطية عنده هي دستورية الحكم بحيث لا تتخذ الأغلبية من الحكم وسيلة للبطش بالأقلية.

يقول هيكل عن الحرية الفردية «انها ظهرت في أوربا على أساس أن تترك الناس يعملون أحرارا متنافسين يثري منهم إلى غير حد من يشاء ويموت جوعا من لم تمكنه مواهبه من الصمود في ميدان المنافسة. وكانت الحجة الأساسية التي أقاموا عليها نظريتهم أن الطبيعة تعمل لبقاء الأصلح، وأن قياس الصلاحية هو المقدرة على المنافسة في الحياة».

ويرى هيكل[1] أنه لما آذن القرن التاسع عشر أن يولي بدأ التفكير الاشتراكي تقوى قوائمه، وبدأت صيحات الدعاة تدوي في آذان الشعوب، وبدأت الطبقات العاملة تشعر بأن لها حقوقا وبأنها تستطيع من طريق التكتل أن تبلغ هذه الحقوق، وبدأ المفكرون الاشتراكيون ينعون على النظام الفردي أنه في إيمانه بالفرد ينسى الجماعة وينسى الشعب والأمة، وينادون بأن العدالة الاجتماعية تقتضي توزيع الثمرات التي تهبها الطبيعة للناس جزاء كدهم وعملهم توزيعا أدنى إلى العدل، وتأثرت الحياة في بلاد أوربا المختلفة بهذه الحركات الفكرية: فقامت في ألمانيا الاشتراكية الديمقراطية وقامت في فرنسا ألوان مختلفة من الاشتراكية وبدأ حزب العمال يقوى في انجلترا وانتشرت تعاليم تولستوي الاشتراكية في روسيا.

ويذهب هيكل إلى أن هذه الحركة الفكرية كانت ذات أثر حاسم في قيام الحرب العالمية الأولى.

«وكان طبيعيا أن تترتب هذه النتائج على الحرب الأولى فقد شعرت الجماهير الفقيرة التي اشتركت في الحرب في تلك البلاد كلها أنها تحمل من

---

(١) السياسة الاسبوعية: في ١٩ ابريل ١٩٢٧.

عبء الدفاع عن الوطن ما يزيد على ما تحمله طائفة أرباب المال أضعافا مضاعفة، فمن الطبيعي أن تطمح في حظ من العدل أوفر مما كان لها حين كان العالم يرتع في بحبوحة السلام، وحين كان منطق النظرية الفردية معتمدا على ما يسميه قانون الطبيعة القاسي للأجور متناسيا أن لهؤلاء الذين يتناولون تلك الأجور من القوة المادية ما يعيش أبناء الوطن جميعا من كدهم وما يجعلهم إذا امتنعوا عن العمل يشلون الحركة الاقتصادية ويعرضون النظام القومي كله لنتائج خطيرة[1].

وفي الميدان الاجتماعي يذهب هيكل إلى أن «الغاء الرق إنما جاء أثرا للحركة الفكرية التي أدت إلى تقرير حقوق الإنسان، وفي مقدمتها أن الناس يولدون أحرارا ويجب أن يظلوا حياتهم أحرارا. لكن الفردية الاقتصادية التي حصرت عمل الحكومات في حدود المحافظة على الأمن ليستمتع كل فرد بحريته ما دام لا يتعدى على الحرية المادية لغيره، أدت إلى بقاء الطبقات الكادحة، وهي السواد الأعظم في غيابات الجهل المطبق. فلما بدأت الدعوة للعدالة الاجتماعية، وبدأت الحركة الفكرية تطالب أن يتسلح الأفراد جميعا للحياة بأسباب المعرفة التي تمكنهم من أن يشقوا طريقهم في الحياة الكريمة، اعترفت الأمم المتقدمة بحق الأفراد جميعا في أن ينالوا حظا من التعليم يؤهلهم لإدراك ما في الحياة من معاني الحق والخير والجمال، بذلك نهضت الشعوب التي تقرر فيها هذا الحق وقتئذٍ نهضة قوية، وبدأ تضامنها يقوى وبدأت تؤدي للحياة الإنسانية في أمم الأرض المختلفة خدمات جليلة[2].

ويرى هيكل أن كان من أثر هذه الحركة الفكرية في الميدان الاجتماعي أن تطور موقف المرأة من الحياة القومية أضعاف ما تطور موقف الرجل منها. لقد كانت المرأة معتبرة في العصور الوسطى وعاء للتناسل ومتاعا للرجل وخادما لذريته. فلما تقررت الحرية الفردية كان نصيب الرجل منها أوفر

(١، ٢) السياسة الاسبوعية في ١٩ أبريل ١٩٢٧.

أضعافا من نصيب النساء، لأن الرجال هم الذين قاموا بالثورة على الماضي. لكن تقدم الزمن أتاح للمرأة أن تكسب حقوقا انتهت إلى اعتراف ميثاق الأمم المتحدة بالمساواة بين الرجال والنساء في الحقوق كلها »[1].

ويعتقد هيكل أن « حرية التعبير والتفكير هما اللذان كفلا لهذه الحركات أن تزدهر وتقوى، وكفلا لذلك عزة الأمم وسعادتها، فأيقنت بأن قيدا من تشريع أو من بطش أو إرهاب يقف في سبيل هذه الحرية يضر بالأمة أفحش الضرر، ولذلك جعلت لها من القدسية في دساتيرها وقوانينها ما يرد عنها كل غائلة، ويدفع عنها كل عادية، لتؤتي من الثمرات ما يدفع الإنسانية كلها نحو الكمال، وهو غايتنا جميعا وغاية كل من يدرك المعنى الصحيح لكلمة الإنسانية[2].

وتأسيسا على هذا الفهم للنظرية السياسية عند هيكل، نقول إن إيمانه بالنظرية الفردية لم يكن بكل حذافير النظرية الغربية، وإنما طوعها في إطار الفكرة العامة التي آمن بها، وروجت لها مدرسة الجريدة، وهي فكرة « المصرية » فجاء ما يؤمن به هيكل هو مدى ما تتيحه هذه النظرية الفردية من أجواء ديمقراطية، تتفق وطبيعة المجتمع المصري كما يراها.

فهيكل يرى أن « مصر المجاهدة ديمقراطية بحكم جهادها، ومصر الإسلامية ديمقراطية بحكم تاريخها. وطبيعة مصر ديمقراطية فيها معاني المساواة بارزة ظاهرة ومصر اليوم تقف حيث يجب أن تجمع بين تاريخها وجهادها وطبيعتها. أما وهذه جميعا تلتقي عند الديمقراطية فلا مفر من أن تكون ثقافتنا ديمقراطية، وأن يكون علمنا وفننا وفلسفتنا وآدابنا آخذة كلها اليوم من درها مستمدة حياتها من حيث تنبع حياتها. ويوم تتأصل الثقافة الديمقراطية حقا في مصر ذلك يوم تبدأ مصر أداء رسالتها للحضارة ويوم

---

(١) من محاضرة ألقاها هيكل بحلب عام ١٩٥٣ ـ الشرق الجديد ص٩١.

(٢) نفس المرجع ص١٠١.

يؤدي المصريون واجبهم لأنفسهم وللإنسانية »[1].

وهيكل يرى إذن أن الديمقراطية تلائم المزاج المصري والطبيعة المصرية على أساس أن « مصر بلد إسلامي منذ أربعة عشر قرنا. والثروة فيها تتوزع بحكم التوريث الإسلامي توزيعا يحول دون تكدسها أو بقائها في يد أسرة بالذات. ويفتح باب المجهود الذاتي بذلك واسعا، مع دعوة التعاليم الإسلامية الى ما تدعو إليه الديمقراطية من حقوق الأفراد في حرية الفكر وفي التعليم وفي السعي والعمل وطبيعة هذه البلاد تتفق مع هذه التعاليم وتعاون عليها. فهذا النهر الذي يسقي الناس جميعا، ويخصب الأرض جميعا ويبعث الحياة من مائه حيثما جرى، وهذه الشمس التي لا تضن على أحد بنورها ودفئها وبما في أشعتها من أسباب النشاط والصحة، وهذا الوادي المنبسط فالصحراء المنبسطة فيها وراءه. ذلك كله يوائم التفكير الديمقراطي ويمتزج أشد الامتزاج معه.

« وهو على العكس من ذلك ينفر من التحكم أشد النفور، ولهذا لم يستطع متحكم أن يرغم شعب مصر على غير ما يريده، ولم يحتج هذا الشعب إلى الثورات الدموية الجامحة ليتغلب على خصومه، لأن طبيعته تعاونه على المتحكمين في أمره، وتضطرهم رغم ما يكون لديهم من أسباب القوة والبطش للتفاهم وإياه لأخذه بالحسنى ثم النزول لإرادته فإن لم يفعلوا نبذتهم الطبيعة المصرية فلم يبقوا في الوادي إلى ريثما ينصرفون عنه مودعين من الشعب بالمقت والاحتقار.

« ذلك ما حدث حين حكم الفرس والرومان والأتراك. وذلك ما يشهد به التاريخ العدل في أمر هذه البلاد وهو قاطع في الدلالة على ملاءمة الطبيعة المصرية والمزاج المصري للفكرة الديمقراطية »[2].

---

(١) الهلال: ديسمبر ١٩٢٥.

(٢) نفس المرجع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونقصد بالديمقراطية المصرية عند هيكل ما جاء مرتبطا بالدعوة إلى القومية المصرية التي حملت لواءها الجريدة، والتي كانت جديدة بالنسبة لما درج عليه الناس من تعلق بالجامعة الإسلامية أو ولاء لدولة الخلافة[1]. وكأن الجريدة بذلك كانت ترمي إلى خلق مجتمع جديد، فدعت إلى كل ما يدفع بهذا المجتمع إلى التطور المنشود ولكن هذه الدعوة لم تتجاوز حدود التفكير إلى العمل إلا في الجيل التالي، وعلى يد الرواد الذين التفوا حول لطفي السيد واعتنقوا أفكاره ومبادئه، وفي مقدمتهم محمد حسين هيكل.

وهكذا يرتبط التفكير السياسي بالبيئة المصرية عند هيكل، على أن هذا التفكير قد تطور باتصاله بالثقافة الأوربية وتأثره بالتطور القومي وحرية الفرد في أوربا، أما الأثر الاجتماعي الذي تركته البيئة في نفسه فإنه يستمد أصوله من فهمه العميق لتاريخ بلاده وتقاليدها وعاداتها وإحساسه بمصريته إحساس الفلاح الذي عانى من جور الترك ومظالمهم وإحساس المثقف الذي أدرك عيوب قومه فعمل على إصلاحها وعرف محاسن الحضارة الأوربية فدعا إليها.

وينعكس إحساس هيكل بالتاريخ المصري انعكاسا قويا في دعوته للمصرية متأثرا بدعوة استاذه لطفي السيد. فكتب في الجريدة سلسلة مقالات حول دراسة التاريخ المصري القديم، ولعل في ذلك ما كان يرهص باتجاهه ومذهبه في «السياسة» من بعد: فهو يتجه نحو الشعور المصري خالصا لمصر وللمصريين لا يشوبه انحراف إلى اليمين ولا إلى اليسار. ولا شك أن ذلك قد أبقى المذهب السياسي لهيكل لم يتغير مطلقا بل زادته الحوادث إيمانا وتثبيتا»[2].

ويرى تشارلس آدمس أن هذه النزعة عند لطفي السيد خاصة وأعضاء مدرسة الجريدة عامة، تدين بآثارها إلى النهج الذي خلفه الأستاذ الإمام محمد

---

(١) تشارلس آدمس: الإسلام والتجديد ص٢١٤.

(٢) من كلمة للشيخ علي عبد الرازق في كتاب «الدكتور محمد حسين هيكل» ص٦٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبده، ذلك النهج الذي كان يرمي إلى التوفيق بين المدنية الغربية والعالم الغربي وبين الحياة الاجتماعية والدينية والأدبية في مصر والذي رأى رجال الجريدة ومحررها أن يسيروا عليه[1].

هيكل والسياسة الاسبوعية

نتحدث في هذا الجزء عن الآثار الأدبية والفكرية لهيكل في السياسة الأسبوعية، فنتحدث أولا عن المؤثرات الثقافية لمدرسة السياسة الاسبوعية ثم نتحدث ثانيا عن التجديد في نظر هيكل، ونتبع ذلك بتطبيق نظراته التجديدية على الفنون الادبية، فنتحدث ثالثا: عن التجديد في الشعر، والتجديد في القصة، ثم نخلص من ذلك إلى ربط هذه النظرات التجديدية بالشخصية المصرية والادب القومي من الوجهة التي دعا اليها هيكل، وصدر عنها في هذه النظرات الجديدة.

أ ـ المؤثرات الثقافية:

ذهبنا من قبل إلى أن المرحلة التي تكونت فيها مدرسة السياسة الاسبوعية كانت ذروة هذا التيار الذي أطلق عليه تيار التجديد، ولا شك أن هيكل قد تزعم هذا التيار في السياسة الاسبوعية، بحيث أصبح رائده فيها ومرحلة هامة من أهم مراحله، ولهذا تحدثنا في الباب الأول عن ثقافته والعوامل التي أثرت فيها وتتبعنا مصادرها وتناولنا بالدرس والتحليل المدارس التي ينتمي إليها، قدر المستطاع، وانتهينا إلى أن هيكل قد تأثر بكل ما اتصل به، عن طريق مباشر أو غير مباشر. أمثال: لطفي السيد ومحمد عبده وقاسم أمين. ولكننا رأينا في النهاية أنه بحكم ثقافته الفرنسية وإطلاعه على الأدب الأوربي من خلال هذه اللغة قد صدر في نظراته النقدية وأدبه عن هذه الثقافة التي صدر عنها من قبل فيلسوف مدرسة الجريدة. ودللنا على التجاوب الفكري بين

---

(١) آدمس: الإسلام والتجديد ص٢١٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هيكل وبين هذه المدرسة، وانتهينا إلى أن تيار السياسة اليومية والأسبوعية هو الامتداد الطبيعي لتيار مدرسة الجريدة.

وإذا كنا قد أسهبنا في هذا الحديث من قبل، فلأننا نعتبر هذه النظرات والمؤثرات والملامح ملكا لمدرسة السياسة الاسبوعية كلها، ولهذا فحينما نتحدث عن هيكل من حيث مصادر الثقافة والتأثر والنظرات فإنما نعني جماعة السياسة في أطوارها المختلفة، وإذا رأينا فيما بعد اختلافا بين أفرادها في المستويات الفنية المختلفة، فلم يكن ذلك ناشئا عن تباين في الثقافة بقدر ما يرجع إلى اختلاف الطاقة الفنية والمزاج الفني، وفيما عدا ذلك فقد تأثر هؤلاء جميعا بنفس المصادر التي تكونت منها ثقافة هيكل. ولعل ذلك ما حدا بالاستاذ «جب» إلى أن يقرر أن «الدكتور هيكل كان يعمل الروية والفطنة في تدريج الرأي العام إلى مستوى الثقافة الأوربية. ولكن طه حسين لم يقتف أثر زميله ولم يزاحمه في سبيل التؤدة والتفطن بل هاجم الرأي العام المصري بطريقة الشك الفلسفي والرأي العام المصري غير مستعد لها. وسار يقطع المراحل من إنكار إلى إنكار ومن مميزاته «المراجعات» لأنها غير مملة»[1].

ولعل ذلك ما حدا «بجب» أيضا أن يذهب إلى أن العقاد والمازني أقرب إلى المحافظين من هيكل وطه حسين[2].

وذلك على اعتبار أن أهم عامل في تكييف المثل الأدبية للعقاد والمازني هو الأدب الانجليزي. وهما من الكتاب المصريين الذين يعتقدون أن الشرق يستطيع الأخذ من ذخائر العلوم الغربية دون أن يتخلى عن الطابع الإسلامي العربي الذي يطبع مدنية الشرق وثقافته[3].

ومن أجل ذلك كان هيكل - كما يقول عنه طه حسين -[4] من هؤلاء الأدباء الذين فتحوا للشباب أبوابا من الفن الأدبي لم يسبق إلى بعضها.

(١، ٢، ٣) تشارلس آدمس: الإسلام والتجديد ص ٢٤٢.

(٤) من كلمته في تأبين الدكتور هيكل بمجمع اللغة العربية يوم ٢٣ فبراير ١٩٥٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وشارك بعد ذلك في أبواب أخرى شاركه فيها غيره من زملائه وأصدقائه.

« وهيكل مهما تكن ظروف الحياة ومهما تختلف. ومهما يختلف تقدير الأجيال للناس. ومهما تكن الأحداث والخطوب، هيكل أساس من أسس الحياة العقلية في عصرنا هذا الحديث. فهو قد فتح لشبابنا باب القصة، وهو قد فتح لهم باب التفكير في الأدب، من حيث أن الأدب في نفسه موضوع للتفكير. موضوع للتفكير يتحدث الناس فيه على أنه شيء يقبل البحث والجدل والمناقشة.

والذين يجادلون الآن ويختصمون في الأدب الواقعي والأدب غير الواقعي ويظنون أنهم يبتكرون شيئا جديدا. لم يبتكروا شيئا. لأن « هيكلا » قد سبقهم إلى هذا التفكير. وسبقهم إليه في كتاب أصدره. ولعل بعض الذين يجادلون في هذا الموضوع لم يكونوا قد عرفوا أنفسهم بعد حين صدور هذا الكتاب وهو كتاب « ثورة الأدب ».

وتأسيسا على هذا الفهم، يمكن القول إن مهمة الأدب عند هيكل تتلخص في تصوير الحياة المصرية حين كان المصريون يحاولون الخروج من الركود السياسي بمقاومة الاحتلال البريطاني، والخروج من الركود الأدبي « ومن هذا الأدب الذي عرفناه في أواخر القرن التاسع عشر إلى أدب جديد. فيه الاحتفاظ بالقديم من ناحية. وفيه تعمق الآداب الغربية من ناحية أخرى »[1].

فكان على هيكل وزملائه، كما يقول طه حسين ايضا[2]، أن يحاولوا الخروج من هذا الركود الأدبي وألا يقلدوا قديما وألا يقلدوا جديدا، وأن ينشئوا في مصر أدبا مصريا لا يخرج عن اللغة العربية الفصيحة السمحة. ولا يتورط في الابتذال العامي. ولا في هذا التكلف القديم. تكلف الجناس والاستعارة وفنون البديع، وإنما في الوقت نفسه لا يقلد القدماء تقليدا حرفيا

(١، ٢) من كلمته في تأبين الدكتور هيكل يوم ٢٣ فبراير ١٩٥٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا يتخذ أبا تمام ولا المتنبي ولا الجاحظ نموذجا يقيس عليه. وإنما كان المصريـون في ذلـك الطـور يحاولـون أن يستكشفـوا أنفسهـم وأن يعـرفـوا شخصياتهم وأن يوجدوا أدبا يدل على هذه الشخصيات وأدبا تضطرب فيه نفوسهم هي لا نفس النابغة ولا نفس مسلم ولا نفس أبي نواس ولا نفس أبي تمام. وتضطرب فيه نفوسهم هي لا نفس فيكتور هوجو ولا نفس لامرتين ولا نفس هذا الشاعر أو الكاتب الأوربي أو ذاك.

بهذه الميزة امتاز الجيل الذي قاد الحركة الأدبية والفكرية في السياسة الاسبوعية، ويشهد طه حسين أن هيكل «كان من أبرع الجيل الذي نشأ فيه فما أسرع ما استكشف شخصيته. وما أسرع ما فرضها على الذين يقرأونه. وما أسرع ما فرضها على العصر الذي عاش فيه[1]».

ب ـ التجديد والأدب القومي:

تعني «ثورة الأدب» عند هيكل السير به نحو «الأدب القومي»، وهو لذلك يربط ثورة الأدب بالثورات المتصلة التي شهدها نصف القرن الأخير في شئون الكتابة والأدب[2]. ويرى أن الأدب العربي يضطرب بعوامل الثورة منذ الثورة العرابية في مصر، ومنذ بدأ الشعور القومي يحرك النفوس ويدعوها الى التوجه نحو النهوض بمجموع الأمة إلى مثل أعلى[3]. ومن يومئذٍ بدأت الكتابة تخرج من الحظيرة الضيقة: حظيرة الدواوين، ومن النطاق المحصور: نطاق التعليم لتتصل بالناس على اختلاف طبقاتهم، ولتصور لهم من نواحي الحياة ما يريد الكاتب تصويره. وقد كان هذا العمل وما يزال شاقا[4]. على أنه يرى أن اللغة العربية الصحيحة، وليست اللغة الدارجة، هي لغة الكتابة ولغة الاتصال بالجمهور التي يمكن أن يحقق بها الكاتب هذه الغاية ويمكن أن تبقى

---

(١) من تأبين الدكتور طه حسين للدكتور هيكل.

(٢، ٣) هيكل: ثورة الأدب ص٦.

(٤) نفس المرجع ص٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مع ذلك على مر الزمان[1].

ويذهب هيكل الى أن ثورة الأدب خلال السنوات الخمسين التي انقضت منذ الثورة العرابية حتى سنة ١٩٣٢ أخرجت صورا من الأدب مختلفة في النثر والشعر جديرة بعناية الدارسين[2].

ويرى هيكل أن الحضارة الإنسانية ثورة متصلة مظهرها الأدب والفن. ويبني نظرته تلك في التجديد على أساس أننا في مصر وفي الشرق « كانت لنا حضارات مختلفة انطوت، ثم اخضعتنا الظروف لحكم الحضارة الغربية، وقد قامت هذه الحضارة أول قيامها على بعث فلسفة اليونان وتشريع الرومان واتجاه الأدب الوجهة التي ترسمها هذه الفلسفة وهذا التشريع وما أحاط بهما في عصورهما من الفن والأدب. ثم جعلت أوربا تستقر بحضارتها رويدا رويدا لتقيمها على الأساس العلمي الذي وضعه ديكارت في القرن السابع عشر، ثم جعل هذا الأساس يتطور من بعد ذلك إلى دين الطبيعة وإلى فلسفة التجريد في القرن الثامن عشر، ثم إلى العلم الوضعي والفلسفة الواقعية والى دين الإنسانية في القرن التاسع عشر وذلك كله من غير أن تنقطع الصلة بين هذه الحضارة وبين اليونان والرومان، ومن غير أن تنقطع الصلة بينها وبين المسيحية من ناحية أخرى. صحيح أن هذه الصلة كانت صلة محاربة وهدم في أحيان كثيرة، ولكن الحضارة الغربية لم تنقطع ولا تستطيع أن تقطع صلتها بهذين العاملين اللذين أنشآها. والأدب الغربي المعبر عن هذه الحضارة لا يمكن أن ينسى هذه الصلة »[3].

ويخلص هيكل من ذلك إلى أن « ماضينا هو الأدب الطبيعي لحضارتنا ولأدبنا[4]. ولم يذهب مذهب القلائل الذين قالوا بالأخذ بالحضارة الغربية في كل مظاهرها وصورها على نحو ما فعل الأتراك. فهؤلاء « لم يجدوا لأقوالهم

(١، ٢) هيكل: ثورة الأدب ص٦.
(٣، ٤) نفس المرجع ص١٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلا صدى ضعيفا زاده ضعفا فتور النفس الغربية بعد الحرب عن الأدب الكبير »[1].

ويذهب إلى أن هذه النقطة التي توقف عندها هيكل مع غيره من المجددين كانت نقطة الاتصال بين أنصار القديم وأنصار الجديد، فبدأ هؤلاء يقبلون على تراث السلف ينقبون فيه بالوسائل العلمية الحديثة، وبدأأولئك يقرون هذا ويعتبرون في ثمرات الجهود التي يبذلها أنصار الحديث في بعث الأدب الجاهلي وأدب عصور الإسلام المختلفة بعثا علميا دقيق التحقيق خطوة موفقة في سبيل إعادة الحياة إلى حضارتنا الدفينة[2].

على أن ذلك التصور في نظرة هيكل الى التجديد ينبع أساسا من مكوناته الثقافية، فقد أشرنا إلى أنه كان شغوفا بقراءة الأدب العربي القديم، وقد طالع الكثير من أمهات كتب هذا الأدب، فلم يكن بعيدا أن تلتقي هذه الثقافة العربية بالثقافة الغربية، أو بمعنى آخر أن هيكل قد « وضع ماضي الشرق وحاضر الغرب في بوتقة منصهرة وأخرج منها معدنا جديدا له جرس ورنين من الروح المصرية الجديدة » على حد تعبير الكاتبة الفرنسية « فالنتين دي سان بوا »[3]. والتي قال لها هيكل في هذا الصدد: « نحن مدينون لكم - يقصد للغرب - بفتح جديد في حياتنا الفكرية وبنظرات جديدة في الفن، ويمكن لهذه النهضة الكبرى أن تحيا دون إثارة الاضطراب. هذا الاضطراب الذي ينشأ غالبا عن النزعات التي لا بد منها في بداية كل نهضة، ألا وهي نزعات التقليد.. إن الروح الانتقادية لا بد أن تستقيظ في نهاية الأمر، إذ لا يمكن أن يفقد أي شعب شخصيته، ولا يمكن أن يقبل آراء أجنبية عنه وعن كيانه، وقد حافظت الشعوب الإسلامية على مميزاتها حيث تجمع بينها وحدة

---

(١) هيكل: ثورة الأدب ص ١١.

(٢) نفس المرجع ص ١١.

(٣) من حديث أجرته الكاتبة مع الدكتور هيكل، نشر في جريدة « لاجيبت نوفل » - السياسة الاسبوعية في ١٧ فبراير ١٩٤٠.

الدين، ولا يمكن أن تصب في قالب غربي خالص، فنحن لا يمكننا أن ننكر ماضينا، وكل ما وصل إلينا من هذا الماضي. فلا ننكر مثلا الطب الفرعوني أو الموسيقى العربية، لكن لا بد أن ننظر إلى كل شيء على ضوء جديد، ونفكر في كل شيء بروح جديدة على ضوء الوسائل التي عرفناها منكم، ثم نجدد كل شيء حسب مقومات شعبنا »[1]. وذلك لأن « لكل شعب مقومات خاصة. ولا يمكن أن يتم شيء دون إرادة هذا الشعب وطبيعته. فقد يتأثر شعب بشعب آخر أكثر منه قوة، ولكنه لا يستطيع أن يقلده، والادلة كثيرة على ذلك في مختلف أدوار التاريخ »[2].

وتأسيسا على هذا الفهم دعا هيكل الى أن يكون بعث حضارة الشرق على الطرائق الحديثة، « لا بالتكديس على أكفانها من صفائح الغرب المستعارة ما يزيد في جمودها وتكلسها تكلسا يحاول أبناؤها إزالته عنها »[3]. وهذا البعث إنما يكون - في مذهب هيكل - بتعاون العلم والأدب: العلم الذي ينقب ويمحص ويجلو الغامض، والأدب الذي يلقي الضياء الشفاف على ما يكشف العلم عنه ضياء تسعده موسيقى اللفظ العذب والأسلوب الممتلئ بذاتية صاحبه وبحياته[4].

ويهدف هيكل من هذا البعث للماضي « بعث الروح الذي كان يحركه، فيعيد كذلك بعث روحنا نحن، روحنا القومي في مصر،وروحنا المصري في اتصالته بفلسطين وسوريا والعراق والحجاز واليمن وطرابلس وتونس وسائر البلاد التي اتصلنا بها وخضعت وايانا في أية حقبة من حقب التاريخ لمصير مشترك[5]. ويرى هيكل أن الحضارة التي تقوم على أساس العلم والأدب تمثل في النهاية مجموع مطامح الحياة إلى المثل الأعلى الذي ترجو الجماعة بلوغه، وهي

(١، ٢) من حديث أجرته الكاتبة مع الدكتور هيكل، نشر في جريدة « لاجيبت نوفل » - السياسة الاسبوعية في ١٧ فبراير ١٩٤٠.

(٣، ٤) هيكل ثورة الأدب ص٢١٣، ٢١٤.

(٥) نفس المرجع ص٢١٦، ٢١٧.

إلى جانب ذلك تصور الجماعة الإنسانية لصلتها بالوجود في مجموعة صلة تنتسب للماضي وتنفذ إلى أعماق المستقبل[1].

وصفوة القول إن التجديد عند هيكل، هو الذي يسمو بالأدب إلى المعاني العليا، ليرتفع بالنفس لتتصل بالوجود كله «يجعلها تلمس حقيقة الوجود كاملة، حقيقة هذا الروح العظيم الذي تعنو له الحياة والذي تستمد منه كل حقيقة وجودها. هذا الأدب هو الذي يقيم الحضارات السليمة الصحيحة وإحياء هذا الأدب يجب أن نلتمسه في ماضينا: «في هذا الأمس العظيم الذي يفاخر به الشرق القديم تاريخ الإنسانية جميعا، والذي يدعونا إلى أن نقيم عليه حضارة الشرق الجديد[2].

تلك هي نظرات هيكل الى التجديد في الأدب القومي كما فهمناها من آثاره، فما هي آثار تلك النظرات في الفنون الأدبية، التي عني بها فى السياسة الاسبوعية، إذاعة ونقدا، وتقويما؟.

ج - الشعر في الأدب القومي:

يحدثنا هيكل في إحدى مقالاته[3] أنه لم يعن يوما بالقريض، ولم يحاول أن يكون شاعرا، وان كان قد حاول في صدر شبابه أن يقول «شيئا يشبه الشعر مما يدفع إليه طموح الصبا». على أن عدم محاولته قرض الشعر لم يمنعه في صدر الشباب من أن يقرأ في الشعر القديم والحديث كثيرا. كما لم تمنعه من الاستشهاد بالشعر الفرنسي والانجليزي والعربي، مما يدل على حسن تمثل له. وإن كان هيكل يحدثنا أنه ظل كذلك سنوات «حتى اتجه الذهن إلى ناحية التفكير وغلبت عليه المذاهب العلمية الواقعية» فقلت في الشعر قراءاته. وأكب

---

(١) هيكل:ثورة الادب ٢٣٤.

(٢) نفس المرجع ص٢١٩.

(٣) السياسة الاسبوعية: في ١٣ ابريل ١٩٢٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في كل مطالعاته على ما يتصل بهذه المذاهب في الأدب «وقليل من الشعر يتصل بها»[1].

ويرجع هيكل هذا الانصراف عن الشعر إلى أن «المذاهب المادية في العلم والفلسفة قد جعلت الشعر بمعزل عن الحياة العقلية أو يكاد. والمذاهب الواقعية والطبيعية وما شابهها في الأدب جعلت عسيرا على الشعر أن يكون أداة لوصف الحياة الوصف الدقيق المتعمق يذهب فيه الأديب مع الفيلسوف إلى معمل العالم ومشرحة الطبيب وينحدر مع الجيولوجي إلى مختلف طبقات الأرض ويصف ذلك كله وصفا يبلغ من الدقة ما لا يخضع له الشعر إلا أن ينزل عن رسالته ليكون نظما وكفى»[2].

وتأسيسا على هذا الفهم يذهب هيكل إلى أن القصد من الشعر ليس «محاكاة الأقدمين. وإنما القصد من الشعر إبراز فكرة أو صورة أو إحساس أو عاطفة يفيض بها القلب في صيغة متسقة من اللفظ تخاطب النفس وتصل إلى أعماقها من غير حاجة إلى كلفة أو مشقة»[3]. أي أن هيكل يرى أن رسالة الشعر تختلف عن رسالة النثر، كما أن له صورة غير صورته «وأبسط ما يوضح الفرق بين الرسالتين مابينهما من اتفاق في أنهما جميعا يلبسان اللفظ ثوبا لها ويجعلان من تجاوب النغم اللفظي بعض صور جمالها. لكن تجاوب النثر هذا أساس من أسس حياة الشعر في حين هو لا يزيد في النثر على أنه سبب من أسباب جماله، ولديه غيره من الأسباب كثير»[4].

ولذلك يرى هيكل أن الشعر يتصل في هذا التجاوب بالغناء، ثم الموسيقى صاعدا كما يتصل بالنثر والحديث المعتاد هابطا «فإذا كان النغم وما يعبر النغم عنه هو كل حياة الموسيقى، وهو أكثر من الثلاثة الأرباع من حياة الغناء

(١، ٢) السياسية الاسبوعية: في ١٣ ابريل ١٩٢٩.

(٣) السياسة الاسبوعية في ١٣ اغسطس ١٩٢٧ - ثورة الأدب ص٥٢.

(٤) المرجع السابق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهو ثلاثة الأرباع أو دونها بقليل في حياة الشعر. ونشاز النغم في الشعر يحطمه كما يحطم الغناء والموسيقى أو ما يقرب من ذلك »[١].

ومن ذلك يبين لنا أن هيكل يؤكد على العوامل الجوهرية في الشعر، ولكنه من هنا، اتصالا بنظرية البعث، يرى أن أشعار الشاعر الذي يقف « عند ترديد الأشعار القديمة بقواف جديدة، وعند سبك الصور والأفكار والمشاعر القديمة في قوالب ربما فاقت القوالب الأولى فجأة، ولكنها ليست لذلك فضل، لأنها في الواقع ليست إلا محاكاة وتكرارا، ومحاكاة الإنسان للإنسان لا تحتاج إلى نبوغ وإن احتاجت إلى ذاكرة، ولا تصل إلى مقام العبقرية وان خلبت الأنظار فجأة بلآلئ بريق سرعان ما يخبو اذا تعرض للنقد الصحيح »[٢].

ونلمح في ذلك اتفاقا مع مدرسة الديوان التي ذهبت إلى أن « الشعر وجدان » وتبدو هذه الرؤيا التجديدية للشعر واضحة عند هيكل في نقده التطبيقي لديواني « شوقي » و« البارودي ». ففي تقديمه لشعر شوقي[٣] نجد محاولة ذكية لتعليل الازدواج النفسي عند شوقي الشاعر حين يبدو رجلا متدينا ثم لا يلبث أن نراه أخا هوى صريع الكأس، ومن ذلك مقارنته بين هذا الازدواج النفسي عند شوقي وأبي نواس والمعري وفولتير. ويلاحظ أن شوقي في شعره السياسي مختلف اختلافا مرجعه إلى تاريخ حياة الشاعر وتاريخ مصر العام.

على أن هيكل ذهب إلى أن الشاعر ينبغي ألا يكون متناقضا هذا التناقض، لأن الشاعر إنما يعبر عن أحاسيسه كلها، بإزاء الناس، وبإزاء الدنيا والآخرة، وقد ظل هيكل حريصا على هذا الرأي رغم النقد الشديد الذي

---

(١) السياسة الاسبوعية في ١٣ أغسطس ١٩٢٧ ـ ثورة الأدب ص ٥٢.

(٢) السياسة الاسبوعية في ١٣ اغسطس ١٩٢٧ ـ ثورة الأدب ص٤٤.

(٣) السياسة الاسبوعية في ٢ يولية ١٩٢٧ ـ مقدمة ديوان الشوقيات ج١، ص م وما بعدها.

وجه إليه[1]. وفي ذلك ما يدل على شخصية هيكل أكثر مما يدل على شخصية شوقي، على حد قول أنيس منصور[2]، وهو حرص هيكل على ألا يكون هناك تناقض في حياته، ولذلك رأيناه أول الأمر «يدخل السياسة بريشة الأديب، ثم ينتقل إلى الأدب على صفحات السياسة. والكتب التي صدرت هي على الحد الفاصل بين الأدب وبين السياسة فكتابه «حياة محمد» و«أبو بكر» و«روسو» كلها دين وتاريخ وسياسة وأدب».

وفي نقد هيكل لشوقي نجده يؤكد على فقدان «الوحدة العضوية» في القصيدة، وهو الأمر الذي ذهبت إليه مدرسة الديوان[3] أيضا «فحين ترى عنوان قصيدة من قصائده ثم لا تجد في القصيدة غير أبيات معدودة تدخل في موضوع العنوان...»[4] وفي نقده لشعر البارودي يدعو هيكل إلى وجوب ربط الشعر بصاحبه وأن نعرف من نواحي حياة الشاعر وبيئته «ما يجلي أمامنا الحالات النفسية التي أملت على الشاعر شعره» ذلك أن «المدارك والإحساسات الإنسانية ليست جامدة ولا يمكن أن تكون كذلك، لأنها خلق البيئة المحيطة بالإنسان»[5].

وتأسيسًا على ذلك يدعو هيكل أن يكون التجديد «هو أن يشعر الشاعر أو الكاتب بشعور العصر الذي هو فيه، ويعبر عن ذلك تعبيرا صادقا ممثلا لصفات ذلك العصر الذي وضع فيه هذا التعبير بحيث يكون شاعر القرن الرابع الهجري أو كاتب القرن الرابع عشر له شخصية خاصة تخالف شخصية الشاعر أو الكاتب الذي ظهر في القرون السابقة مع المحافظة على قواعد اللغة وحدودها. فلا يصح أن يأتي شاعر من شعرائنا في العصر الحاضر يحاكي في شعوره وإحساسه شاعرا من شعراء الجاهلية أو من شعراء الدولة الأموية أو

(١، ٢) الأخبار: في ١٢ ديسمبر ١٩٥٦.

(٣) العقاد والمازني: الديوان ج٢ ص٤٦.

(٤) ديوان البارودي ج١ المقدمة ص٦.

(٥) هيكل: ثورة الأدب ص٤٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العباسية أو غيرها. لأنه لا يكون في الحقيقة معبرا عن عصره »[١].

ولا يعني هيكل بالصفات الخاصة أن « يعمد شعراء العصر الحاضر إلى استخدام ألفاظ المخترعات الحديثة في شعرهم أو يتناولوا هذه المخترعات فيصفوها، ويسموا ذلك تجديدا »[٢] بل يقصد بالصفات الخاصة « إبراز كل ما يقع تحت الشعور بحكم البيئة والتعبير تعبيرا صادقا عن الحياة التي تحيط بهذه البيئة، والظروف التي تلابسه وتجعل لها صبغة خاصة بحيث يعد الخروج عن هذه الصبغة خروجا عن تلك البيئة »[٣].

ذلك أن التجديد الشعري يرتبط بمفهوم الأدب القومي عند هيكل، ذلك أن « للأدب القومي وللفن القومي في كل الأمم أعمق الأثر من هذه الناحية. وضعف أدب مصر وفنها القومي له أثر المقابل لذلك من هذه الناحية ايضا ».

ويذكر هيكل أنه زار روما غير مرة. وكان ككل مقيم بروما أو زائر لها يتخطى « نهر التبر » مرات. وفيما يتخطاه يوما ذكر أبياتا من الشعر الانجليزي حفظها حين كان بالمدارس الثانوية فيها قصة لبطل لم يحضرني اسمه كما لم يحضرني اسم الشاعر صاحب القصيدة. ولست أذكر أكان هذا البطل قد أحيط به فاضطر إلى أن يلقي بنفسه في النهر؟ أم كان أراد مهاجمة خصوم لروما في الجانب الثاني من « التبر » فرمى فيه بنفسه ليعبره سابحا. ولم يعنني من أمر القصة كلها شيء، ولم اجهد ذاكرتي لاستظهار شيء منها؟ وإنما عنتني الأبيات التي قالها البطل ساعة ألقى بنفسه في الماء، وعنتني فيها نغمة المتعبد المقدس إذ يقول:

« أيها التبر، يا أبانا التبر ومن يسبّح الرومان بحمده، إليك حياة روماني وعدة حربه خذهما اليوم في رعايتك ». ذكر هيكل هذه الأبيات وألقى على النهر نظرة طويلة، وجاهد كي يجد فيه ما يبعث لنفسه مثل القداسة التي

(١) من حديث أجرته مجلة الهلال مع الدكتور هيكل - يونيو ١٩٣٣.
(٢، ٣) نفس المرجع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت وما تزال الأبيات التي حفظ صغيرا مبعثها عنده.

ويقول هيكل معقبا على ذلك:

« وليس نهر « السين » في اختراقه باريس أكثر بهاء من التبر في اختراقه روما. لكني إذ أقرأ ما يكتبه شعراء فرنسا وأدباؤها عنه أشعر في أعماق نفسي بما يجعلني أشارك هؤلاء الشعراء في محبة نهر باريس وإجلاله. ذلك أني عشت إلى جوانب السين سنوات، وعرفت من مجراه وتاريخه، وكان لي فوق لجته ما يجعل له في حياتي أثرا يدعوني إلى الاشتراك في شعور الشعراء والكتاب والمصورين نحوه، وإلى التلذذ الصحيح المتجدد بكل ما أقرأه عنه من شعر ونثر، وبكل ما تقع عليه عيني من صور لأماكن فيه، وبخاصة إذا كنت قد قرأت عنها شيئا يجعلها في حكم ما عرفته بنفسي.

« وشهدت في سويسرا جمالا وروعة جعلاني أقرأ ما كتب عنهما لازداد لهما تذوقا وبهما سرورا. وأشهد لقد كنت، كلما تزايد ما قرأت، اشد لجمال سويسرا وروعتها حبا. وليس في شيء من هذا كله أي عجب، فكلنا أكثر بالجمال في مختلف صوره استمتاعا كلما كان معنا رفيق يشاركنا في المتاع. والمتاع يزداد كلما كان الشريك أكثر للجمال قدرا وبدقائقه معرفة. فأنت في صحبة شاعر أكثر استجلاء لما في منظر من مناظر الطبيعة أو في حادث من الحوادث من شعر. وأنت في صحبة موسيقار ترى بعينيك أنغاما يثيرها في الجو جمال الصور. وأنت في صحبة مصور تحس بما في الشعر وما في الأنغام من صور رائعة واضحة الحدود. ما بالك إذا كان ما تقرؤه في قصيدة من القصائد أو كتاب من الكتب عن نهر التبر أو السين أو عن منظر من مناظر سويسرا الساحرة يجتمع فيه الشعر والموسيقى والتصوير وتلتقي فيه الفنون الجميلة كلها! أنت أذن تود لو تعود إلى هذا المنظر وأنت إذا عدت إليه واجد ولا ريب فيه حديثا أشهى وأعذب من حديثه إليك قبل أن تقرأ عنه ما قرأت، وقبل أن تسمع من تاريخه ومن روعة جماله ما سمعت.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« وعدت إلى مصر من روما في العشرة الأخيرة من أغسطس سنة ١٩٢٩ وأتيح لي يومئذٍ أن أشهد فيها منظرا لم يتح لي المتاع به منذ سنوات، ذلك منظر النيل في فيضانه. وأتيح لي أن أشهد هذا المنظر في اروع صوره وأكثرها مهابة وجلالا. فلم يبلغ فيضان النيل من العظمة والرهبة منذ عشرات من السنين ما بلغه ذلك العام. وما كادت عيني تقع على النهر حتى تحركت في نفسي كل عواطف الإكبار والتقديس، وحتى ذكرت من مناظر النهر التي شهدتها بالأقصر وأسوان ما زادني بجماله وجلاله وروعته شعورا، و ما وصل بهذا الشعور بين نفسي ونفوس أجدادنا الفراعنة الأقدمين الذين كانوا يرون في « البحر الأعظم » معبودهم الذي أتاح لهم الحياة وأمتعها معها بكل ما فيها من خير وبركة. ولذلك جعلت كلما سنحت لي الفرصة أذهب إلى شواطئه أملأ ناظري وقلبي وجوانحي إعجابا به وتقديسا له ودعاء أن يكتفي من فيضانه بما يغمر البلاد من خصب ونعمة دون أن يحل بها غضبه فتكون هي وأهلها من المغرقين.

« وأفضيت يوما بخوالج نفسي إلى صديق من الذين زاروا اوربا وتنقلوا في مختلف نواحيها وتذوقوا جمالها في تباين صوره واختلاف أوضاعه وذكرت له عميق شعوري بجلال النيل، مما لم أشعر به حتى حين الشباب وتحفز العواطف لاستجلاء الجمال وروعته اثناء بدائع سويسرا فوق موج بحيراتها الهادئ، وبين شوامخ جبالها الساحرة السفوح والقمم المغطاة بالنبات والشجر والثلج غطاء يزيد في روعة جلالها بما يجعلها دائمة التغير والتموج كلما تغير الجو وتموجت السحب. وتبسم صاحبي ضاحكا من قولي معتقدا اني أمزح، ثم كرر هذه الانشودة التي نسمعها دائما وقد نكررها أحيانا: وماذا في مصر من جمال؟ وماذا لطبيعتها من روعة وهي ليست إلا مسطوحا من الأرض يملك تشابهه الذي لا يعبس ولا يبتسم ولا يقطب جبينه ولا يقهقه ضاحكا؟. وكيف تقرن هذا الوادي المحصور بين الصحارى الجدباء المحرقة إلى سويسرا جنة الله على الأرض، أو إلى إيطاليا مهد الفن والجمال، أو إلى أي بلد يكفيه

دلالة على جماله أن ألهم الشعراء والكتاب ورجال الفن، في حين لم تلهم مصر، أحدا إذ ليس في تشابهها ما يلهم شعرا أو يقيم فنا!.

« ليس صاحبي هو وحده، مع شيء كثير من الأسف، الذي يفكر هذا التفكير أو ينظر إلى بلاده تلك النظرة الخاطئة المملوءة غرورًا وعقوقا، بل إن الأكثرين من رجالنا وشبابنا المتعلم ليزهون بإعجابهم بما رأوا وما لم يروا من بدائع الجمال في أوربا زهوهم بما تبعثه مناظر بلادهم إلى نفوسهم من ملال. ثم إن كثيرين ممن لم تتح لهم اسفارهم وقراءاتهم المفاخرة بهذا الزهو ليحدثوك في أبلغ الإعجاب بجمال صحراء العرب وما أنجبت هذه الصحراء من حب وحماسة وكرم تجلى في الشعر العربي القديم، وليزهون بهذا زهوهم باملال بلادهم إياهم. وهؤلاء وأولئك من العذر أنهم ليسوا شعراء ولا كتابا ولا رجال فن. وانه لم يحرك أحد في نفوسهم صور الجمال الظاهرة والكمينة في نهرهم وواديهم وفي صحارى بلادهم وواحاتهم المنقطعة النظير في بهر روعتها وسحر جمالها وقداسة جلالها. لكن العجب من أولئك الذين نسميهم شعراء مصر وكتابها ورجال الفن فيها. هؤلاء كذلك يشعر أكثرهم إزاء ما في بلادهم من جمال مثل شعور هؤلاء الذين يسمونهم جماعة المتعلمين في مصر. فقل منهم من تهتز عاطفته لمشهد هذا الجمال إلى حد يهز شاعريته أو خياله أو فنه اهتزازا يخرج من نفسه صيحات صادقة كلها تأليه هذا الجمال وعبادته وتقديسه ويستثير من أوتار شاعريتهم أو خيالهم هذه الأناشيد التي تدفع بالفارس إلى أن يلقي بنفسه في غمار التبر متغنيا « ايها التبر، يا أبانا، يا من يسبح الرومان بحمدها، إليك حياة روماني وعدة حربه خذها اليوم في رعايتك ». بل أن أحدهم ليحس أحيانا بأن من الواجب عليه أن يتحدث عن بلاده وعن تاريخها وعن جمالها، فإذا قرأت حديثه وجدت فيه من جمال العبارة ما يخلبك، ولكنك تجده خلوا من الشعور الصادق والإحساس العميق، وكل شعر وكل أدب وكل فن ليس صادرا عن شعور صادق وإحساس عميق لا حياة فيه ولا بقاء له.

« وسر هذا الجمود في تقدير جمال بلادنا ضعف الإيمان في نفوس شعرائنا وأدبائنا وكتابنا وذوي الفن فينا بالجمال. وسبب ذلك أنهم يستمدون شعورهم بالجمال من الكتب لا من الحياة. فالجميل هو ما تغنى به غيرهم على أنه جميل. أما ما لم يقفوا على أن غيرهم تغنى به فلا يمكن أن يكون جميلا. وما دامت قرون قد انقضت بيننا وبين أجدادنا الذين كانوا يحبون جمال بلادهم ويقيمون لهذا الجمال أعياده ويقدمون له فيها قرابينه وما دامت الكتب التي فيها تلك الأغاني قد أصبحت في غير متناول الأكثرين منا وأصبحت قراءتها لا تلذ، فبحسبنا أن نقرأ ما تعودنا قراءته تلاميذ عن جمال صحراء العرب، وأن ننتقل بعد ذلك لقراءة ما تعودنا قراءته طلابا عن جمال أوربا وروعة تاريخها. فأما ما بين ذلك فليس أمره ميسورا، وليس قراءته مستحبة. ومصر وجمالها تقع كلها فيما بين ذلك من فترة. وإذن فمصر لا جمال فيها، وهي بلاد مسطوحة متشابهة كل ما فيها مملول وليس فيها ما يشبع النفس أو يلهمها آيات الفن والآداب.

« ولعلك إن سألت الشعراء والكتاب عن سر بقائهم على التقليد وحبسهم نفوسهم على ما سبقهم إليه غيرهم، رأيتهم يجيبونك بأن لا جديد تحت الشمس، وكل ما تحت الشمس قد دون وحوته المكاتب، وأنهم لهذا يكفيهم أن يقلدوا سابقيهم وان ينقلوا عن معاصريهم من أهل البلاد الأخرى. هم في ذلك متورطون في أفحش الخطأ. وأي خطأ أفحش من إيمانهم بأن لا جديد تحت الشمس؟ بلى! إن كل ما تحت الشمس جديد لأنه دائم التجدد. والشمس نفسها تتجدد مطلع كل نهار ومغيبه وكل إنسان منا جديد، وهو كل يوم متجدد. وكلما ازداد بما حوله من صور الحياة امتزاجا ازداد بهذا الامتزاج حياة وازدادت بذلك تجددا. وإذا كان حسنا وواجبا أن يمتزج الإنسان بالماضي وأن يجد هذا الماضي طي الكتب، فاحسن منه أن يمتزج بالحاضر في كل مظاهر هذا الحاضر ليجمع بين الماضي والحاضر كاملين وليجدد بذلك المستقبل صورا أقوى ما فيها من المظاهر الجديدة شخصيته هو

الدائمة التجدد. وأنت أكثر ما تكون قوة على الامتزاج بالحاضر وبالماضي وعلى التجديد فيهما تجديدا تبرز فيه شخصيتك قوية ظاهرة إذا كان هذا الماضي ماضي بلادك وكان هذا الحاضر حاضر بلادك، بلادك نفسها بما فيها من حياة وجدة وجمال، فإذا استطعت بعد ذلك ان تتصل بغير بلادك لتمتثل ما فيها من جمال وتجنبه على غيرك، أو استطعت أن تكون أوسع مدى فاختلطت نفسك بنفس الإنسانية كلها وترنمت عن إيمان صادق بأناشيد الخلف في وحدة الوجود فقد بلغت الذروة من مراتب الإلهام. لكنك على كل حال لن تجد في قصرك نفسك على الكتب الهاما صحيحا ولا وحيا صادقا. إنما الإلهام الصحيح والوحي الصادق في اختلاطك بالحياة وامتزاجك بمظاهرها واجتلائك ما فيها من جمال هو الأساس الأول لكل إيمان صحيح.

« وكيف لإنسان بالغة ما بلغت قدرته أن يعبر عن جمال لم يصل إليه عن طريق حسه هو، وإنما وصل إليه من طريق حس غيره، كيف له أن يعبر عن جمال لم يجتله ولم يحسه وإنما هو يذكره ويحس به لأن غيره أحس به. إن العواطف لتختلف مظاهرها، وان اتفقت في النفس مصادرها، باختلاف الوسط الذي تبدو فيه. وعاطفة الحب نفسها تتجلى عند أهل الصحراء على صورة غير التي تتجلى بها عند أهل الشمال ولذلك تختلف أناشيد الحب من بلد إلى بلد ومن عصر إلى عصر ما بالك بالصور التي يقع عليها الحس ويتأثر بها في صور تختلف باختلاف الأشخاص أنفسهم، لأن الأشخاص يختلفون في قوة كل حاسة من حواسهم وحس من أحساسهم وعاطفة من عواطفهم.

« كنت اتصفح يوما مجموعة من الشعر الفرنسي نشرتها مجلة الحوليات في ملحق لها وجعلت عنوانها « إلى جانب المدفأ » وقدمت لها بمقدمة صغيرة أشارت فيها إلى ما يثيره المدفأ في نفوس أكثر الشعراء بل في نفوسهم كلهم من الخواطر وما يجيش فيها من العواطف. وفي هذه المجموعة كثير من الغراميات الرقيقة يذكر فيها الشاعر كيف جاءت إليه صاحبته في هدأة الغرفة التي يقيم فيها، أو كيف ذهب هو إليها في غرفتها، وكيف جلسا على مقربة

من النار يصطليان في حين تهطل الثلوج وتكسو الطبيعة المحيطة بهما بثوبها الناصع البياض، وكيف تبادلا حلو الغرام وتناجيا بأغاريده، وكيف تاهت عليه صاحبته ودلت، ثم زادت تيها ودلا، على حين زاد هو استعطافا وضراعة. وكيف جثا عند قدميها راجيا آملا، ثم كيف تركته بعد ذلك تاركة وراءها جيشا من الأحلام والمنى العذبة اللاذعة أو كيف جعلا يقرآن ويتحدثان، ثم إذا القراءة وإذا الحديث يقربان بين قلبيهما حتى يمزجاهما مزجا، وما إلى ذلك من صور حلوة يزيدها حلاوة إنها تعبر عن إحساس صادق وشعور فياض، وهي مع ذلك وفي تعبيرها القوي هذا بسيطة كل البساطة في نفسها وفي روايتها، لا تكلف فيها ولا مبالغة ولا إغراب.

« وذكرت حين قراءتي في هذه المجموعة من الشعر الفرنسي التي ألهمها جوار المدفأ ما كان لهذا الجوار من أثر في الفن وفي الأدب عند أهل أمم الشمال كافة. وليس أحد يعرف الأدب الانجليزي شعرا ونثرا الا يذكر جوار المدفأ وما ألهم الكتاب والشعراء. بل أن لجوار المدفأ لأثرا عميقا في حياة هذه الأمم الشمالية كلها وهو لا شك له مثل هذا الأثر في الأمم الجنوبية حيث تسقط الثلوج كما تسقط في الشمال، وحيث يضطر الناس للاحتماء بالجدران ويدفعون غائلة البرد بالاصطلاء كما يفعل أهل الشمال سواء. وأنت اذ تقرأ شيئا عن حياة أهل هذه البلاد ترى هذا الأثر واضحا ظاهرا في عيشهم وفي توزيع ثروتهم وفي ألوان طعامهم ولباسهم وفي صور سرورهم وملذاتهم. فإلى جوار المدفأ تجلس الجدة العجوز تقص على حفيدتها قصص الماضي وخرافاته وأساطيره.. وإلى جوار المدفأ تجلس الأسرة تتناول طعامها في النهار وفي الليل. وإلى جوار المدفأ يجلس الرجال يقرأون والنساء يطرزن والأطفال من حول أمهاتهم وآبائهم في شغل بلعبهم وما أعد لتسليتهم. وبجوار المدفأ يقرض الشاعر قصائده ويكتب الكاتب رواياته، ويذهب القصاص والحكيم والفيلسوف كل في خيالاته وتأملاته ومنطقه وتفكيره. فلا عجب، وذلك أثر المدفأ في حياة الأمم، أن يكون المدفأ وما يلمع فيه من بصيص النيران وما يرسل من ضياء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا يضيء، لا عجب أن يكون مصدر وحي والهام للشاعر والكاتب والمفكر والفيلسوف وأن يكون بعيد الأثر في الفن والتفكير عند الذين يقضون حظا عظيما من وقتهم في جواره.

« وليس جوار المدفأ الا بعض مظاهر الحياة التي تلهم الشعراء شعرهم في بلاد الشمال. لكن الثلوج وقر الشتاء وبداءة الربيع وتفتح الأزهار وكل ما في الطبيعة المحيطة بهم يلهمهم ايضا، وهو يلهمهم بذاته عن طريق اتصالهم به. وليس الهامه إياهم مقصورا على ما يقرأون عنه في الكتب التي سبقهم بها غيرهم. بل وها نحن أولاء تحيط بنا طبيعة ساحرة، ومع ذلك لا يظهر لها في شعر شعرائنا ولا في كتابة ادبائنا من الأثر إلا قليل. ولذلك تظل هذه الطبيعة لا يعرف جمالها أحد، لأن الذين القت الطبيعة عليهم رسالة الكشف عن الجمال لا يرونه فيها، بل نرى شعراءنا وكتابنا وذوي الفن منا لا يتصلون كما قدمنا، بالحياة إلا عن طريق غيرهم، ينظرون بعينه ويسمعون بأذنه ويحسون بحسه. وهم في هذا ينسون أنهم القيثارة التي تنقل إلى آذان البشر أنغام الجمال ماثلة في مختلف مظاهر الطبيعة، ويقصرون همهم على محاكاة أنغام سبقهم غيرهم إليها وبذهم فيها، وقضى على كل أمل في أن تكون لهم شخصية قائمة بذاتها حين يشدون بها ويحاولون تجديدها وهم لا يكادون يجدون شيئا لم يسبقوا به فيما قيل من شعر ونثر في وصف مصر والتغني بسحر جمالها، فهم لذلك لا يكادون يذكرون شيئا من أمرها. فإن هم ذكروا منه شيئا لم يزد على بريق حس بدا لهم، فلم يقفوا عنده ولم يحاولوا الامتزاج به: واكتفوا بأن سجلوه في فراره، كإنما ليس له له في حياة مصر قرار. ولو أن الشعر والفن والكتابة كانت تلهمهم لآمنوا بأن الفن ليس هو إثبات هذا البرق الفرار، وإنما هو الوقوف عند الجمال والإعجاب به وأخذه إلى مجامع النفس في مختلف صوره والعود إليه مرة ثم مرة ثم مرة، والوصول بالنفس إلى حدود الفناء فيه حتى تمتلئ به وتجمع إليه ما تعيه الذاكرة مما سطر الآخرون عنه، فإذا الجمال يفيض عن ذي الفن. وإذا القصيدة أو القطعة من الأدب أو

القصة أو اللوحة أو التمثال قد خلعت على هذا الجمال الذي تمثلته نفس إنسانية ممتازة روحا إنسانية تخالط النفوس كلها، فتشعر في أعماقها بمثل ما شعر به رجل الفن، ويحس في الأشياء بجمال ما كان لها ان تحس به لو لم يكشف هذا الدجل عنه ولو لم يخلقه في الحياة خلقا يجعل للإنسان على الأرض من المجد مثل الله في العلى.

« ولنعد إلى النيل، إلى هذا « البحر الأعظم » الذي كان أنشودة العالم منذ قديم، إلى النهر الذي تأله على الدهر وجل في كل العصور وتقدس عند كل الأديان. ألم يكن ربا من أرباب الفراعنة يرمزون له بابيس إله الخير والبركة؟ ألم يذكر المسلمون أن منبعه الجنة، وأنه فيها ينبع من أنهار العسل؟ ما أشك لحظة في أن الشاعر أو الكاتب أو المصور يجد في هذا النهر اذا هو امتزجت به نفسه واختلط بدمه إجلاله وحبه، وحيا لا ينضب وإلهاما يكفيه مدى حياته، بل يكفي شعراء وكتابا وأرباب فن على تعاقب الأجيال جميعا. أن في تبدل مياهه وتغير مجراه في كل فصل من فصول السنة، وفي ارتفاعه بالفيضان جبارا رحيما، يغرق ويسقي ويطغى ويخصب وفي خضوعه للسابحات من الفلك فوق ظهره تجري بالتجارةحينا وبالمسرة واللهو حينا، وفي هؤلاء الذي يتغنون في سكينة مطمئنة حين هو يحملهم في أناة ومن غير عجلة إلى حيث يريدون، وفي تعاريجه وشلالاته وسدوده، وفي انبعاثه من هناك، هناك عند خط الاستواء مارا بأقوام يتغير لونهم كلما تقدم هو إلى مصبه، وفي شواطئه المخصبة بطميه الدائمة شكر النعمة، وفي شرايين الحياة الممتدة بمصر ترعا وقنوات، والمتصلة كلها به على أنه القلب الكبير الذي يمد بالحياة كل ما حوله، وفي ألف مظهر غير هذه من سلطانه وقوتهم الدائمي التجدد والجمال - في هذا كله من الشعر ما تقصر عنه ألوف القصائد والكتب والصور وما لا يكون تاريخ مصر من أبعد عهودها إلى يوم أزلها إلا بعضه، لأن مصر وتاريخها ليسا إلا بعض هدايا النيل واعطياته.

« وإن نسيت فلن أنسى لهذا النهر إلا له كل ما ملأ به نفسي من تقديس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإجلال في كل مرة صحبته فيها، ولن أنسى منظره الذي أشرت إليه حين عج بفيضانه في صيف سنة ١٩٣٩ وحين أخذني إليه أخذا أثر عودتي من أوربا بعد مشاهدتي التمس والسين والتبر في مختلف عواصمها في الساعات الثلاث التي قضيت ما بين الاسكندرية والقاهرة وبعد أن تخطينا النهر عند كفر الزيات وامتلأت نفسي بروعة جلاله. يومئذٍ تحرك في نفسي الفلاح القديم الذي ورث عن آبائه وأجداده حب هذا الثرى المقدس، وإجلال هذا النهر المبارك والإعجاب الى غاية حدود الإعجاب بجمال ما ينبت من زروع ملأى بحياة كلها البهجة والنضرة. نعم! تحرك الفلاح في نفسي، فصرت لا أبصر إلا بعينه، ولا أسمع إلا بأذنه، ولا أحس إلا بقلبه، ولا أشعر إلا بشعوره، فكنت خلال هذه الساعات الثلاث مأخوذا بمناظر الوطن المحبوب وجمالها الساحر أكثر مما يأخذني اي منظر من مظاهر الجمال. وكان تقديسي على أشده لمشهد مياه النيل في فيضانه تتقلب أمواجها الحمراء بعضها فوق بعض في الترع وفي النهر العظيم.

« يا لها ذات جمال لا يعدله جمال، وروعة تسجد أمام حلالها كل روعة. إني لأشعر أن هذا الماء المملوء حياة وخصبا يجري في حنايا نفسي ويجري في عروقي مع دمي أكثر مما يجري في النهر وفي الترع المتفرعة منه. وأني ما أزال لذلك أراه أمام نظري وأنا أكتب في غرفتي أمام كتبي. نعم ها هو ذا يموج حلوا جذابا بلونه الطامي وموجه المتدافع في طمأنينة بين حروف الترع المخضرة بالحشائش تتخللها الشجيرات والأشجار وتنفسح من ورائها المزارع الخضراء المترامية إلى حدود الأفق يكسوها الذرة والقطن وتقوم فوقها هنا وهناك المنازل الترابية اللون، تأوي إليها اليد العاملة التي تنبت من هذا الماء ومن هذا التراب كل هذه النعم التي يجود الله بها على أهل مصر.

« وها هو ذا يموج في عظمة وجلال وقوة تدافع في مجرى النهر الذي اتخذ منه أجدادنا الفراعنة إلها يعبدونه، والذي جعل من مصر جنة فيحاء بدل أن يذرها تندمج فيما يحيط بها من صحراوات جرداء، أين أنت يا أنهار أوربا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأنهار العالم كله من نيلنا السعيد المبارك الغدوات الميمون الروحات، ومع ذلك يقدس سكان روما التبر وسكان بريس السين وسكان برلين الاسبري وسكان لندرة التمس! ما أكبر ما لأجدادنا من عذر عن عبادتهم إياك واعتبارهم جنة النعيم منابعك الإلهية!.

« أي منظر من مناظر بحيرة ليمان وسحرها البديع يعدل منظر نهرها في سحره وبهره!! وأي جبال في سويسرا أو غير سويسرا تعدل هذه المستويات الذاهبة إلى الأفق تكسوها زروع مصر وأشجارها، وكلها النماء والقوة والحياة المتدافعة!! انظر إلى مزرعة الذرة ما تزال في أول صباها زاهية خضرة أوراقها غضة، سيقانها تلتف حولها عقلها كأنها قصبات الناي، يثير منظرها في أذنك الحانا لا تدري أهي عيدان الذرة ترتلها أم هي أصوات الموسيقى المصرية الحنون تموج على أوتار فؤادك لتكمل في نفسك جمال هذا المنظر المصري الفذ الجمال. ثم انظر إلى أشجار القطن مناط آمال أهلنا الذين تراهم سمر الوجوه، سود العيون حادي النظرات، تلمع عيونهن ذكاء، وتحدث نظراتهم عما جبلوا عليه من جد ومثابرة وسط هذا الوطن الذي نشأت فيه والذي نسيت معه كل ما رأيت مما سواه، ذكرت أنني استطيع أن أجوب أقطار الأرض ما شئت، وأشهد من صور الجمال في مختلف مظاهر الفن ماحلا أن أشهد، وأن أسمع من موسيقى الغرب كل ما يلذ ويطرب، وأن أقرأ من أدب العرب وأدب الأفرنج كل ما يتسع وقتي لقراءته. أستطيع أن أصنع هذا أو أكثر من مثله، ثم أبقى بعد ذلك وفوق ذلك مصريا وأبقى أكثر من مصري، أبقى فلاحا قحا صميما، أقدس كل ما في مصر ومزارعها من جمال وأقدس النيل الذي حبا مصر الحياة وحباها الجمال.

« لو أن رهطا من الشعراء والكتاب وأرباب الفن استلهموا هذا النيل ودونوا وحيه لرأيت صاحبي الذي هز كتفيه حين ذكرت له إعجابي بالنيل وجماله، أشد بنيل بلاده إعجابا منه بجمال سويسرا أو أية بقعة ساحرة من

بقاع العالم. نعم فالفن يسكب الجمال حتى في النفوس الجامدة أمام الجمال. وهو بما يصنع من هذا يدفع الناس إلى العمل للمزيد من هذا الجمال. ذلك بأنه يحبب إليهم الحياة ويدعوهم إلى زيادة تجميلها وإلى معاونة الطبيعة لاستظهار زينتها وبهجتها. وما أشك في أن سويسرا مدينة بكثير من رواء جمالها لعمل الإنسان بعد أن دله الفن وأربابه على مبلغ ما حبت الطبيعة به تلك البلاد. ولو أن الفن كشف للمصريين عن جمال بلادهم لعملوا كل ما في وسعهم لزيادة جمالها جلالاً وروعة، ولرأينا هؤلاء الذين لا يعرفون كيف يستشفون جمال الطبيعة في جلال سهولته رأوه باهرا بارعا من خلال ما عمل الإنسان لاستظهاره فآمنوا به إيمانهم بجمال سويسرا. ولقدسوه تقديس ذلك البطل لنهر التبر، بل كان تقديسهم وإيمانهم أقوى وأعمق لأنه تقديس جمال متصل بنفوسهم جار مجرى الدم في عروقهم.

«وليست طبيعة مصر وليس نيلها وواديها هي وحدها ذات السحر والفتنة، بل أن تاريخها القديم، و الحديث ليحتوي من ذلك أكثر مما يحتوي أي تاريخ غيره، كما سنبين في الفصل التالي. وهذا التاريخ وذاك الوادي ونهره كلها جديرة بأن تكون مصدر الوحي لأدب قومي يصور مصر في ماضيها وحاضرها صورة صادقة قوية تنطبع في نفوس أبنائها وفي نفوس الأجانب عنها ممن يقرؤون هذا، فيعرفون مصر كما هي حقا لا مصر التي تشوه بالدعاية الفاسدة لغايات سياسية وغير سياسية. ويومئذٍ تنتقل النفس المصرية خطوة واسعة في سبيل الاعتزاز بنفسها وبوطنها، وتنتقل كذلك خطوة واسعة في سبيل تمثيل الجمال والخير والحق، وتسمو بذلك إلى المكان الإنساني الصحيح الذي ألقي على عاتق الأدب في مختلف العصور أن يمهد له فيعد الإنسانية عن طريقه لبلوغ الكمال».

ومن أجل ذلك يدعو هيكل إلى الخروج «بالشعر من هلهلته التي تجعل أكثر قصائده ليس بين البيت فيها وما بعده صلة، حتى لتستطيع أن تغير

مواضع الأبيات كما شئت دون خوف »[1]. كما يدعو إلى أوزان جديدة « تخرج بها عن سير الابل خببا وعنقا إلى شيء يتفق وانغام موسيقى عصرنا الحاضر »[2].

على أن هيكل لا يذهب بالتجديد في الشعر إلى الخروج عن الماضي، وهو لذلك يستنكر الدعوات التي ظهرت في تجديد الشعر إلى أن يكون « مرسلا غير مقيد بقافية واحدة. أو يريدون استعمال ألفاظ معينة كانت تكثر في إشعار القدماء، أو يودون التحرر من أوزان البحور التي جرى عليها الشعراء في الجاهلية أو بعد الإسلام. وربما غالى بعضهم فأراد أن يبتدع الشعراء أوزانا خاصة وقواعد خاصة يسيرون على نمطها في العصر الحاضر دون أن تكون لهم صلة بماضي اللغة وقواعدها »[3]. وهيكل لا يتفق مع هذه الدعوات، لأن الأساس الذي تقوم عليه مدرسته الحديثة في الجديد والتجديد هو الاعتماد على الماضي وإيجاد صلة بيننا وبينه. أما قطع كل علاقة بالماضي فذلك ما لا نفهمه في بناء نهضتنا الجديدة[4].

وعلى ذلك يرفض هيكل ما يسمى « بالشعر المنثور » ويرى أنه بعيد عن الذوق العربي ولا يتمشى مع روحه، وهو في اعتقاده « توثب في النفس إلى قول الشعر وتصور دون إدراك غايته، ولو أن الذين يتوثبون نظموا خواطرهم شعرا لكان ذلك أحسن، ولضمنوا لآثارهم البقاء »[5].

ويمكن القول إن آثار دعوة التجديد في الشعر التي دعا إليها هيكل ومدرسة السياسة الاسبوعية من جانب والعقاد ومدرسة الديوان من جانب آخر، في مواجهة حركة التقليد قد ظهرت في انتعاش الشعر في الفترة ما بين

---

(١) السياسة الاسبوعية في ٢٣ يوليو ١٩٢٧ ـ ثورة الأدب ص ٤٤.

(٢) نفس المرجع.

(٣، ٤) السياسة الاسبوعية في ١٣ ابريل ١٩٢٩.

(٥) من حديث أجرته مجلة الهلال مع الدكتور هيكل ـ يونية ١٩٣٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٩٣٢ و١٩٤٥ وقد أتاحت السياسة الاسبوعية بالذات الفرصة المواتية لعدد كبير من الشعراء للظهور في وضح الحياة، مثل ع. الهمشري وعلي محمود طه وأحمد زكي أبو شادي وغيرهم ممن انتظمتهم فيما بعد جماعة «أبولو» وفي ذلك يقول زعيم هذه الجماعة الشعرية: «لما نشأت مدرسة أبولو كانت الفكرة الموحدة الجامعة أن الشعر الحق الرفيع هو ما عبر عن الشعور تعبيرا فنيا أصيلا ولم يكن ابتذالا ولا اجترارا لما سبقه، إذ لا غنى للشعر من وراء التكرار والاجترار»[1].

ونرجح أن تكون آثار دعوة هيكل للتجديد وإلى الأدب القومي، هي التي نلمحها عند أبي شادي مثلا، الذي يصفه محمود حسن اسماعيل»[2] بأنه ينغم الأشعة فيمسك الحان المزاهر ويبسط لك فن الميثولوجيا القديمة في عصر الاغريق والفراعنة فنسمع في نبراتها نجوى الأرباب وحديث السماء».

وهي الآثار التي نلمحها في اتساع المضامين الشعرية للشعر الوجداني وشعر الطبيعة الذي يمتزج بها ويحل فيها، وقد وجدنا هيكل يساهم بقلمه وتوجيهه في مجلة «أبولو» كما فعل العقاد والمازني وغيرهم من رواد التجديد[3].

ولذلك نرجح أن جماعة أبولو لم تتأثر بجماعة الديوان وحدها، كما ذهب البعض[4]. ولم تتأثر بمطران وحده كما ذهب البعض الآخر[5]. وإنما تأثرت إلى حد كبير بدعوات هيكل التجديدية التي تمكنت من أحداث تيار كبير أثر في حياتنا الشعرية وأسهم في صياغة وبلورة كثير من مفهومات التجديد في الأدب ـ بعامة، والشعر بخاصة. وبذلك تكون جماعة أبولو امتدادا لتيار التجديد بفرعيه الديوان والسياسة الاسبوعية، فجاءت أبولو لتحقق هذه النظرات التجديدية في نطاقها الشعري.

---

(١) خفاجي: رائد الشعر الحديث ج١ ص٢٣٦.

(٢، ٣) عبد العزيز الدسوقي: جماعة أبوللو ص٣٧٠.

(٤) نفس المرجع ص٣٧٧.

(٥) مندور: الشعر المصري بعد شوقي (الحلقة الثانية) ص٥٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونشير في هذا الصدد إلى مطولة تأملية تتحلى فيها دعوة هيكل وهي «شاطئ الأعراف» لمحمد عبد المعطي الهمشري، •ففيها هذا البناء الفني المحكم والوحدة العضوية. وهي مطولة تقع في ثلاثمائة وسبعة أبيات كتبها الشاعر في سنة ١٩٢٩ ونشر مقتطفات منها في السياسة الاسبوعية. وقد قدم لها الدكتور هيكل بمقدمة كلها «ثناء وإعجاب بالشاعر النابه»[١].

ما نشير في هذا الصدد أيضا إلى النزعة الوصفية التي ازدهرت في الشعر المصري، والتي أخذت على يد شعراء أبولو صورا جديدة، وأشكالا مبتكرة، وأهم شيء تجلى في هذه النزعة عندهم شعر الطبيعة[٢]، ونلمح في هذه النزعة آثار دعوة هيكل الى الأدب القومي. ومن ذلك ديوان أخرجه بعض تلاميذ أبي شادي أطلق عليه «الريف في شعر أبي شادي»[٣] وهي جميعا قصائد يمتزج فيها الحس المرهف بمظاهر الطبيعة المصرية. كما نجد ذلك عند ناجي فيما «وراء الغمام»[٤] حيث يتجاوب مع الطبيعة ويحيلها الى روضة غناء تسبح على ماء البحر[٥]. ولم يكتف هؤلاء الشعراء بالحلول في الطبيعة والقاء آلامهم بين أحضانها بل راحوا يستنطقونها آلامها ويطلبون إليها أن تشاركهم حزنهم. وفي الريف نشهد الساقية تروي الأرض من خلال عيونها الجارية، ونرى الفلاح وهو يسوق «جاموسته» يغني لها، كما نجد هذه الصور في شعر الهمشري، الذي امتاز من بين مجموعة أبولو بتصوير الطبيعة في ريفنا المصري تصويرا ملهما يفيض رقة وابتكارا. ومن قصائده الوصفية: «إلى نوسا» و«مناجاة الفراش الأصفر» و«حدائق الشفق» و«أغنية النخيل» و«العودة» و«اليمامة» وهي تصور الطبيعة في وقت الظهيرة[٦].

---

(١) محمد فهمي: الروائع لشعراء الجيل ص١٠.

(٢) الدسوقي: جماعة أبولو ص٣٥٠.

(٣، ٤، ٥) نفس المرجع ص٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢.

(٦) شرف: الهمشري شاعر الطبيعة المصرية مقال بمجلة الخرطوم - فبراير ١٩٦٩.

القصة والأدب القومي:

اصطلح مؤرخو الأدب على اعتبار قصة «زينب» للدكتور هيكل بدءاً لتاريخ القصة المصرية، فقد بدأ كتابتها في أوربا عام ١٩١٠ وحاول أن يصور فيها الريف المصري وأخلاق أهله. وقد شغل هيكل بعد ذلك عن القصص بالصحافة والسياسة والنقد والتأليف في بعض نواحي الأدب والتاريخ الإسلامي حتى إذا كان عام ١٩٥٥ خرج على الناس برواية جديدة أسماها «هكذا خلقت» وجعلها معرضا لتصوير الحياة المصرية في المدينة وآثار التطور الاجتماعي فيها[1]. وان كان انشغاله بالصحافة لم يصرفه عن القصة تماما، فقد وجدناه يتخذها شكلا للمقال، الأمر الذي دفع بالمقال القصصي دفعة طيبة، كما سيجيء.

وأيا كان الأمر في انصراف هيكل عن القصة من بعد، فان الثابت أن هيكل فتح في الأدب العربي باب القصة، وهو الباب الذي أتيح له أن يصل في الربع الثاني من القرن الحاضر إلى درجة ملحوظة من النمو والتجدد، وأن تتنوع أشكالها المتخصصة إلى قصص قصيرة وروايات ومسرحيات وسير ذاتية، وبرز فيها من بعد هيكل كتاب بارزون من أمثال: المازني والعقاد وطه حسين وتيمور وتوفيق الحكيم وفريد أبو حديد.

ومن جهة أخرى فقد أسهم هيكل في هذه الدفعة للأدب القصصي، بنظراته النقدية في السياسة الاسبوعية، ومن ذلك مناقشته «لجب» في دراسته عن الأدب العربي الحديث، والتي تناول فيها: النثر العربي والشعر العربي وسائر فنون الأدب العربي الحديث في هذه الفترة من حياة مصر الأدبية، وقد وقف من بحثه عند فن القصص والرواية من فنون الأدب، وأشار إلى أنها لم تتأصل بعد في الآداب العربية، وتكلم في هذا الباب عن قصص شوقي وعن «عيسى بن هشام» للمويلحي وعن روايات جورجي زيدان التاريخية، ثم وقف وقفة

(١) محمد خلف الله أحمد: بحوث ودراسات في العروبة وآدابها ص١٨٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خاصة عند « زينب » وقال إنها الأولى من نوع القصص الجديدة، وتحدث بعد ذلك عن « ابراهيم الكاتب » للمازني، وأشار إلى قصة « الأيام » لطه حسين[1].
ويرى هيكل أن وقفة جب عند فنون القصص والرواية في الأدب العربي ليس بالشيء العجيب، وليست هي الوقفة الأولى من جانب من تصدوا لدراسة فنون هذا الأدب في العصر الحاضر « فكثيرون من المستشرقين ومن الكتاب المصريين انفسهم وقفوا هذه الوقفة متسائلين عن السبب في عدم ذيوع هذا الفن من فنون الأدب سواء في الشعر أو في النثر في حين هو قد يقف من الأدب الغربي في الذروة من كل فنونه »[2].

ويعلل هيكل سر فتور القصص في الثلث الأول من هذا القرن في مصر، التي يرجع إليها الفضل في وضع ألف ليلة وليلة، على الأرجح، وغيرها بالإضافة إلى حب الرواية والقصص في الطبيعة المصرية. ويعنينا من العوامل التي علل بها هيكل ذلك عاملان[3]:

الأول: أن معالجة فن القصة تتطلب من الأديب تخصصا كالتخصص في كل عمل من أعمال الحياة « وهذا التخصص هو وحده الذي يجعل الإنسانية ترجو بلوغ الكمال في ميدان الأدب والفن.

الثاني: جناية السياسة على الأدب.. فقد كان من نتائج الحرب والحركات التي تلتها أن انصرفت الأذهان عن التأمل في الحياة وجمالها الى صور من النضال والكفاح لكسب حقوق سياسية جديدة أو لتنظيم شئون اقتصاد زعزعت الحرب أركانها مما دفع بالكتاب والأدباء إلى أن يضعوا قواهم ومواهبهم في خدمة بلادهم.

على أن هيكل يدحض ما يذهب إليه بعض الكتاب من المستشرقين وغيرهم من أن السبب في هذا النقص يرجع إلى ضعف في الخيال يحول بينه

(١، ٢) السياسة الاسبوعية في ٢٢ فبراير ١٩٣٠.

(٣) نفس المرجع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبين تأليف مجموع القصة. وإلى مثل هذا السبب يعزو أولئك الكتاب اقتصار أكثر كتاب مصر وأدبائها على نشر الرسائل الموجزة: ويشير هيكل لدحض هذا المذهب إلى ما يقوله كتاب الغرب وساسته طعنا في الشرق بأنه خيالي، وبأنه لذلك لا يقدر الطريق العلمية في البحث ولا في سياسة الدولة: «وكيف يمكن أن يكون الشرقي خياليا وضعيف الخيال في وقت معا؟!»[١].

ويرى أن غرض هؤلاء الكتاب «الطعن والتجريح لغايات لا ترضاها الحقيقة وتثبيت الإيمان في نفس أمم الغرب بأنها متفوقة على الشرق في كل شيء تفوقا يجعل من الحق لها أن تحكم أمم الشرق هذه وتستغلها من غير أن يكون في ذلك اعتداء على ما للأمم من حق في الحرية والسعادة»[٢].

ويذهب هيكل إلى أن للفن القصصي فضل الهام غيره من الفنون الجميلة «فهو أسبق من الشعر ومن التصوير ومن الحفر، بل من الموسيقى نفسها، إلى التقاط صور حياة الجماعة التي يعيش فيها وإثباتها على الورق. ثم هو أقدر من هذه جميعا على رسم أمل الجماعة في المستقبل وتصوير المثل الأعلى الذي تصبو إلى تحقيقه»[٣].

وهو بذلك يؤكد على صلة الفن بالحياة، والتزامه بمثلها العليا، فهوى يرى أن القصة أيا كانت حوادثها التي ترويها إنما تدل على فكرة وتتصل بمثل أعلى في نفس كاتبها[٤]. ويؤكد على أن «كل ما لا تحركه فكرة ولا يستهويه مثل أعلى من أرباب الفن لا قيمة لفنه ولا بقاء[٥] وهو لذلك يذهب على أن التجديد الصحيح هو الذي يقوم على فكرة ويلهم مثلا أعلى»[٦]. وذلك لا يتأتى للقصص حتى «يستقل بنفسه ويستمد كل مقومات حياته من البيئة المحيطة بالكاتب ومن القومية والوراثة التي يخضع الكاتب لأثرهما»[٧]. ذلك

(١، ٢) السياسة الاسبوعية في ٢٢ فبراير ١٩٣٠.
(٣) السياسة الاسبوعية في ١٥ فبراير ١٩٣٠.
(٤، ٥) السياسة الاسبوعية في ٢٢ فبراير ١٩٣٠.
(٦، ٧) السياسة الاسبوعية في ١٥ فبراير ١٩٣٠.

أن « القصص على انفساح ميدانه وتشكل صوره وألوانه لا يكفي فيه مجرد المحاكاة والتقليد إذا أريد به أن يكون ذا قيمة تكفل له أن يحشر في ظاهرات فن الأدب. لذلك كان الكتاب القصصيون الذين استحقوا البقاء وحفظ لهم التاريخ شيئا من التقديس ـ من ذوي السعة في العلم والاطلاع إلى جانب مالهم من موهبة الفن في التصوير والأسلوب. هؤلاء يحرك اطلاعهم في نفوسهم الأفكار المختلفة، وينتهي بهم تفكيرهم إلى مثل أسمى يطمحون إليه »[1].

تلك بإيجاز أهم ملامح دعوة هيكل للتجديد في القصة، التي كان له فيها دور الريادة ابداعيا، فكانت « باكورته القصصية مظهرا لنزعة التجديد ورغبة الخلق، فيها انتفاضته الوجدانية نحو وطنه، وفيها معالجته تصوير الحياة في رقعة كبيرة من هذا الوطن، هي الريف.. فتوهجت في القصة مشاعر وعواطف وتعاقبت صور محلية، وتجلت شخصيات شعبية، أريد بها جميعا أن تحقق غرضا هفت إليه نفوس الداعين إلى تجديد الأدب في مستهل القرن العشرين.. ذلك الغرض هو إنشاء أدب مصري السمات، مصري الأحداث، مصري الروح يتأكد به طابع المصرية في التعبير والتصوير »[2]. على أن هذه الدعوة ترتبط بالفكرة القومية وتأصيل الشخصية المصرية. ولسوف نرى آثار هذه الدعوة في « المقال القصصي »، وهو الفن الذي تفوق فيه هيكل في « السياسة الاسبوعية » ونعتبره أثرا صحفيا أكثر منه أثرا أدبيا.

ولكننا نختم هذا الفصل بالحديث عن الشخصية المصرية والأدب القومي اللذين اتسمت بهما دعوة هيكل إلى التجديد في الأدب وفي فنونه المختلفة.

---

(١) السياسة الاسبوعية في ١٥ فبراير ١٩٣٠.

(٢) تيمور: الشخصيات العشرون ص٦٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشخصية المصرية والأدب القومي:

عند هيكل نجد الشخصية المصرية تتمثل في استقراء جوستاف لوبون[1] الذي يذهب إلى أن «مصر الفرعونية حية في مصر العربية باقية في مصر الحاضرة».. ذلك أن هيكل يؤكد تلك الصلات النفسية التي تربط الشعوب بماضيها كما تربطها بتقاليدها ومأثوراتها القديمة، ومن ينكر تلك الصلات التي تربط مصر القديمة بمصر الحديثة - كما يذهب هيكل - لا يعدو ظاهر الحقيقة: «فإن الحقيقة العميقة التي تشعر بها أنت ويثبتها العلم هي أن بينك، وبين أجدادك اتصالا وثيقا لا سبيل إلى إنكاره، وإن جهله الناس وان جهلته أنت، فهذا الدم الذي كان يجري في عروقهم يجري في عروقك، وهذه الانفعالات النفسانية التي كانت تدفعهم في حياتهم هي التي تدفعك في حياتك، وأنت محكوم عليك طائعا أو كارها أن تخضع بحكم قانون الوراثة لما أورثوك إياه»[2].

وينعكس إحساس هيكل بالتاريخ المصري في دعوته للأدب القومي، فنجده يتخذ من التاريخ الفرعوني مادة لقصصه، مثل «ايزيس» و«حورس» ونجده يدير في السياسة الاسبوعية مناقشات بين أنصار الفرعونية والداعين لها وأنصار العروبة والداعين لها. ومن مقالات هيكل في هذه المناقشات مقال بعنوان «بين الحاضر والماضي»[3]. يوضح هذه الدعوة إلى المصرية بأنها واجب قومي، وأن الدعوة لدراسة تاريخ مصر الفرعونية ليس مقصودا بها رد التاريخ على أعقابه ليصب في منبعه، ولا هي مقصود بها إلى الاعراض عن دراسة تاريخ الشرق في مختلف عصوره، ويؤكد أن كل حاضر لا يتصل بماضيه لا مستقبل له».

---

(١) الحضارة المصرية ص٥٠.

(٢) السياسة الاسبوعية: في ٢٧ نوفمبر ١٩٢٦ - ثورة الأدب ص١٢٣.

(٣) السياسة الاسبوعية: في ١١ مايو ١٩٢٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويلمس هيكل جانبا من أهم جوانب هذه الشخصية المصرية ونعني به « الشعور الديني » الذي له من القوة والعمق في نفوس المصريين ما تقوم آثارهم شاهدا عليه وهو خير تفسير لإقبال المصريين على اعتناق الديانات السماوية: المسيحية ثم الإسلام، ففكرة الوحدانية التي تقوم عليها الديانات السماوية كانت لب الديانة الفرعونية[1]ـ على أن هذا الشعور الديني يتصل عند هيكل بالعلم، وقد تأكد لديه هذا الشعور باتصاله بالحضارات القديمة وبالحضارات الفرعونية بنوع خاص وما رآه لهذه الحضارات من قوة وأيد، وما كانت ترتكز مع ذلك عليه من صور الإيمان التي تحفز الجماعات إلى مضاعفة السعي والعمل في الحياة وتصل بهم لذلك إلى أن يخلدوا على الزمن من آثار عملهم ما لم يقدر الزمن على اخضاعه لناموس البلى والتجدد[2].

ويذكر هيكل أنه ازداد إيمانا بصدق هذا الشعور أثناء مقامه بالأقصر وأسوان وحين شاهد للمرة الثالثة معابد الأقصر وخوفو وآمون بالكرنك ومقابر الملوك والملكات ومعابد الدير البحري والروماسيوم ومدينة هابو وتمثالي ممنون بطيبة ومعبد ايزيس الغريق في مياه الخزان عند الشلال فيما وراء أسوان، فتبدى له أن « حضارة جديدة لا بد سيبزغ فجرها عما قريب، وستكون حضارة الفراعنة هذه، وحضارة الشرق والإسلام بعدها، هي العامل الأكبر في هذا البعث »[3] كما يرى في هذه الآثار ما يحدث « عن علم لأهلها غزير، علم استطاعوا به خلق معجزات ما يزال عصرنا ينظر إليها في شيء من

---

(١) برستد، وترجمه حسين كمال: « تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي » فقد تكلم في الفصل الرابع عن الديانة القديمة ص٣٢٠، كما جاء في الفصل الثامن عشر عن « ثورة اخناتون الدينية »: (ومعلوم أن هذا الرقي والتقدم الفكري كان متجها غالبا منذ أقدم العصور إلى الأمور الدينية لا إلى الأمور الدنيوية). وأيضا أحمد زكي بدوي « تاريخ التطور الديني » فقد جاء في ص١٦٠: (يعتبر الدين أهم عناصر الحضارة المصرية ولم يخطئ هيرودوت حين قال « المصريون قوم يخافون الله أكثر من أي شعب آخر »).

(٢) السياسة الاسبوعية في ١٨ مايو ٩٢٩.

(٣) نفس المرجع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البهر والإعجاب»[1] ويربط نبوءته بالحضارة الجديدة بما يشهده من مقدمات القصور في الحضارة الغربية عن أن تؤدي للعالم ما تشعر الإنسانية أنه طلبتها في الحياة من رغد وسعادة: «فلا مفر لهذه الحضارة من أن تسمح لحضارة غيرها ـرويدا رويدا بطبيعة الحال ـ من أن تقوم بما قصرت هي عن القيام به»[2].

ويذهب هيكل من ذلك إلى أن مصر هي خير ميدان للبحث في الوصول إلى وضع «مثل أعلى» يصبو إليه الإيمان الإنساني، ففيها نشأت الحضارة الأولى وعليها تقلبت كل الحضارات والأديان التي تبعتها. «عرفت مدرسة الاسكندرية فلسفة الإغريق وحضارتهم. ثم انتقلت إليهم المسيحية مع الحكم الروماني، وكان للحضارة الإسلامية فيها مظاهر قوية غاية القوة. وهذه الحضارات التي تعاقبت على مصر تأثرت كلها: إلى حد كبير بالحضارة الفرعونية الأولى وأثرت فيها وما تزال آثارها باقية اليوم، لا في البرديات والمقابر وكفى، بل في نفوسنا نحن الذين نعمر مصر بعد الفراعنة بكل ما مضى عليهم من ألوف السنين»[3]. والهدف من هذه الدراسة، كما يقول هيكل، التوفيق بين العقل والروح لتقوم من هديهما الحضارة التي يلتمسها العالم اليوم في أبحاثه المختلفة[4].

نخلص مما تقدم إلى أن هيكل قد صدر في آرائه عن فهم عميق للعوامل التي جمعت المصريين في نطاق متسق من وحدة الشعور، وطبعتهم بتلك الأصالة الدينية التي ارتبطت بالعلم، ولم ينفصل العلم عنها وغلبت على مأثوراتهم طوال أزمنة تاريخهم وقومت شخصيتهم.

ولذلك نحاول تفسير الدعوة إلى الأدب القومي في اطار هذه الرؤية للشخصية المصرية والتي لخص هيكل مقوماتها في قوله: «بين مصر الحديثة

(١، ٢) السياسة الاسبوعية في ١٨ مايو ١٩٢٩.

(٣، ٤) نفس المرجع ص١٣٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومصر القديمة اتصال نفسي وثيق ينساه كثيرون فيحسبون أن ما طرأ على مصر منذ عصور الفراعنة من تطورات في نظم الحكم وفي العقائد الدينية وفي اللغة وفي غير ذلك من مقومات حياة الأمم، قد فصل بين هذه الأمة الحاضرة وبين الأمة المصرية القديمة فصلا حاسما جعلناه إلى العرب أو إلى الرومان أقرب منا إلى أولئك الذين عمروا وادي النيل في ألوف السنين التي سبقت المسيحية »[١].

على أن هيكل يذهب إلى بقاء هذا الاتصال النفسي الوثيق الذي يجعل مصر وحدة تاريخية أزلية خالدة »[٢].

ولكي تؤتي الدعوة إلى الأدب القومي ثمارها، دعا هيكل الى توحيد مصادر الثقافة في مصر[٣]. وذلك لأن « وحدة الثقافة أقوى الوسائل لتكوين الوحدة القومية »[٤].

وحين يتم ذلك يصبح من المستطاع أمام الأدب القومي أن يكون جديرا بحياة شخصية مصر وحضارتها العظيمة، وجدير بالتالي على أن يبعث في الألفاظ حياتها لأن الألفاظ لا تحيا إلا بأدب قومي. والأدب القومي لا يوجد إلا إذا وجدت له حضارة تحمله وتبعث فيه الحياة[٥].

ولإيجاد هذا الأدب القومي، يرى هيكل أن التاريخ الذي مرت به بلادنا والطبيعة الساحرة التي تخلب اللب فيهاشيئان مجهولان بالنسبة لأبناء مصر وقد ترتب على ذلك أن فقد الكثير مكانة بلادنا في الحضارة العالمية وطبيعة وادينا الخالدة. ولذلك يدعو هيكل إلى أن يصور الأدب هذه الحضارة المصرية باتصالها الشعوري بين مصر القديمة ومصر الحديثة عن طريق الكشف عن

(١، ٢) السياسة الاسبوعية في ٢٧ نوفمبر ١٩٢٦ - ثورة الأدب ص١٢١.
(٣) السياسة الاسبوعية في ٢٤ ابريل ١٩٢٧.
(٤) السياسة الاسبوعية في ٣٠ مارس ١٩٤٠.
(٥) هيكل: في أوقات الفراغ ص٣٦٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موضع الاتصال الشعوري هذا في ميادين الأدب وكتبه والعقائد وطقوس العبادة، وهو لا يقصد من ذلك إلى قصر التجديد في القومية الأدبية على آثار الحضارة الفرعونية «فذلك محال لأنه مخالف لخلد الأمم»[١]. فان كان الماضي المجيد لمصر في عصورها المختلفة «تراث يحق لنا أن نفخر به وأن نعيد إلى حياتنا وحياة أبنائنا ذكره، لنزداد به على الحياة قوة وعزة»[٢] وتلك هي المادة الحية للأدب القومي: «وكلما يسمو وحي الوطن بالكاتب في الأدب القومي، فإن هذا الأدب يخلع على الوطن في نفوس أهله جميعا جلالا وبهاء يزيدانهم له حبا وبه إيمانا وتقديسا واباء واعتزازا»[٣].

وكلما ازداد الأدب «بما حوله من صور الحياة امتزاجا ازداد بهذا الامتزاج حياة وازدادت بذلك تجددا. وإذا كان حسنا وواجبنا أن يمتزج الإنسان بالماضي وأن يجد هذا الماضي طي الكتب، فأحسن منه أن يمتزج بالحاضر في كل مظاهر هذا الحاضر ليجمع بين الماضي والحاضر كاملين وليجدد بذلك المستقبل صورا أقوى ما فيها من المظاهر الجديدة شخصيته هو الدائمة التجدد. وأنت أكثر ما تكون قوة على الامتزاج بالحاضر وبالماضي على التجديد فيهما تجديدا تبرز فيه شخصيتك قوية ظاهرة إذا كان هذا الماضي ماضي بلادك، وكان هذا الحاضر حاضر بلادك، بلادك نفسها بما فيها من حياة وجدة وجمال»[٤].

ويفهم من ذلك أن أساس الأدب القومي عند هيكل أن لا يستمد مادته من القديم فحسب «بل أن في الحياة المصرية فيضا من مصادر الهام الأدب في مختلف نواحيه أغزر وأخصب مما في غيرها. والمقاصير تنطوي من ذلك على ما لا يقل عما تنطوي عليه الحقول والمزارع. وما على الكاتب إلا أن يستمع ويبحث ويحلل ليجد من غزارة هذا الفيض خير مادة لما يريد من صور

---

(١) السياسة الاسبوعية في ٢٧ نوفمبر ١٩٢٦ - ثورة الأدب ص١١٢-١١٣.

(٢، ٣) نفس المرجع - ص١٢٨، ١٠٧.

(٤) نفس المرجع - ص١١٢، ١١٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأدب القومي في الحياة الحديثة »[١].

وفحوى هذه الدعوة أن يصطبغ الأدب المعاصر بالصبغة المصرية الصميمة وأن يكون هذا الأدب « الذي يستلهم مادته أدبا قوميا بكل معنى الأدب القومي »[٢].

ومن ذلك يبين لنا أن هيكل يحرص على تأصيل الشخصية المصرية في الأدب القومي، من خلال فهم عميق لأبعاد هذه الشخصية المصرية، والتي تتمثل في عنصري وحدة الاتصال النفسي، والإصالة الدينية، وهي أبعاد في مذهبه، تضيء ظلمات العصر المادي التي خلفتها. ومن أجل ذلك وجدنا هيكل يمضي في دعوته مؤكدا جوانبها المختلفة في تطبيقه الإبداعي من خلال القصة كما فعل في « سميراميس » و« أفروديت » وغيرهما مما استوحاه من تاريخ الفراعنة[٣]. وهو كذلك في « الشيخ حسن » وفي « حكم الهوى » وغيرهما مما استوحاه من واقع حياتنا الحاضرة »[٤]. كما وجدناه في دراساته الإسلامية يؤكد عنصر الأصالة الدينية، وفي مقالاته المتعددة التي تكشف عن هذه الأبعاد، كما وجدنا هيكل يدعو إلى وجوب الاهتمام بالأدب الشعبي أو الفولكلور الذي يتمثل في أناشيد الشعب الساذجة وما يرويه الرواة المحليون عن أبطال القرون الغابرة وما يحكونه من القصص التي تعبر عن خلق الشعب وصبره وقوة احتماله[٥].

وصفوة القول أن آثار هيكل الأدبية والفكرية، والتي تبلورت من خلال السياسة الاسبوعية، قد أسهمت في الكشف عن الشخصية المصرية بسماتها وملامحها الحقيقية وقد رأينا في الباب الأول أن هذا الاتجاه يرجع إلى نشأته

---

(١) السياسة الاسبوعية في ٢٧ نوفمبر ١٩٢٦ – ثورة الأدب ص ١١٢ و١١٣.

(٢) نفس المرجع ص١٣٨.

(٣) هيكل: في أوقات الفراغ.

(٤) هيكل: ثورة الأدب ص١٣٧، ١٣٨.

(٥) السياسة الاسبوعية في ٢ فبراير ١٩٢٩.

الريفية، التي جعلت من اعتزازه بمصر الشعلة التي تضيء فكره وتدفع سلوكه طوال حياته، فكان المصري بين المصريين الذي رادهم - بعد استاذه لطفي السيد - ليتعرفوا على حقيقة ذاتهم وسط الصراع الحاد بين القديم والجديد. ولعل هذا الصراع هو الذي قاد هيكل إلى تعرف حقيقة الشخصية المصرية ونسبتها إلى وطن راد الحضارة مرتين: حضارة الفراعنة وحضارة الإسلام، وكان له في كليهما الصدارة والسبق.



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مراجع البحث

ابراهيم امام (دكتور) : الاعلام والاتصال بالجماهير ـ القاهرة ١٩٧٠
تطور الصحافة الانجليزية ـ القاهرة ١٩٥٦ .

ابراهيم عبده (دكتور) : أعلام الصحافة المصرية ـ القاهرة ١٩٤٨ .
تطور الصحافة المصرية ـ القاهرة ١٩٥١ .

أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث . القاهرة ١٩٤٨ .

أحمد خاكي : قاسم أمين ـ سلسلة أعلام الإسلام ـ القاهرة ١٩٤٤ .

أحمد الشايب : الأسلوب ـ القاهرة ١٩٦٣ .

أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ـ ج٢ ـ القاهرة ١٩٣٦ .

أحمد شوقي : الشوقيات ، ج١ ـ القاهرة ١٩٤٦ .

أحمد لطفي السيد : قصة حياتي ـ كتاب الهلال ـ القاهرة ١٩٦٢ .
(أشرف على) : الدكتور محمد حسين هيكل ـ القاهرة ١٩٥٨ .

آدمس (تشارلس) : وترجمة عباس محمود : الإسلام والتجديد ـ القاهرة ١٩٣٥ .

اسماعيل صدقي: مذكراتي ـ دار الهلال ـ القاهرة ١٩٥٠ .

الماوتلين: وترجمة راسم رشدي: عبد الحميد : ظل الله على الأرض ـ القاهرة ١٩٠٠

حافظ محمود : المعارك في الصحافة والسياسة والفكر ـ القاهرة ١٩٦٥ .

حامد ربيع (دكتور) : مقدمة في العلوم السلوكية ـ القاهرة ١٩٧٢ .

حسين فوزي النجار (دكتور) : أحمد لطفي السيد ـ سلسلة أعلام العرب، ١٩٦٥ .

لطفي السيد والشخصية المصرية ـ القاهرة ١٩٦٣ .

الجريدة: تاريخ وفن ـ رسالة دكتوراه.

شكري فيصل (دكتور) : الصحافة الأدبية.

شوقي ضيف (دكتور) : الادب العربي المعاصر ـ القاهرة ١٩٦١ .

سلامه موسى: الصحافة حرفة ورسالة ـ القاهرة ١٩٥٨ .

طه عمران وادي: الدكتور محمد حسين هيكل ـ حياته وتراثه الأدبي ـ القاهرة ١٩٦٩ .

عباس محمود العقاد : سعد زغلول ـ القاهرة ١٩٣٦ .

رجال عرفتهم ـ القاهرة ١٩٦٣ .

محمد عبده ـ القاهرة ١٩٦٣ .

عبد اللطيف حمزه (دكتور) : المدخل في فن التحرير الصحفي ـ القاهرة ١٩٦٥ .

قصة الصحافة العربية في مصر ـ بغداد ١٩٦٧ .

مستقبل الصحافة ـ القاهرة ١٩٦١ .

عبدالله النديم: سلافة النديم ج٢ ، القاهرة ١٩١٠ .

عبد العزيز الدسوقي: جماعة أبولو ـ القاهرة ١٩٧١ .

عبد العزي فهمي (دكتور) : (وتقديم طاهر الطناحي): هذه حياتي ـ سلسلة كتاب الهلال ـ القاهرة ١٩٦٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبد العزيز شرف (دكتور): لطفي السيد فيلسوف أيقظ أمة ـ السنبلاوين ١٩٦٣ .
عباس العقاد (مخطوط).

عبد المنعم شميس: رحلة في حياة مصر ـ كتاب الجديد ـ القاهرة.

قاسم أمين: تحرى المرأة ـ ط٣ ـ القاهرة ١٩٤١ .

م . محمد حسين (دكتور): الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ج١، من الثورة العرابية إلى قيام الحرب العالمية الأولى

محمد حسين هيكل (دكتور): يوميات باريس (١٩٠٩) مخطوط
زينب ـ كتاب الهلال ـ يناير ١٩٥٣ .
جان جاك روسو ـ ج١، ج٢ ـ القاهرة (٢١ ـ ١٩٢٣)، ج٣، مخطوط.
في أوقات الفراغ ـ ط٣ ـ القاهرة ١٩٦٨ .
عشرة أيام في السودان ـ سلسلة كتب. للجميع ـ نوفمبر ١٩٤٩ .
تراجم مصرية وغربية ـ القاهرة ١٩٢٩ .
ولدي ـ القاهرة ١٩٣١ .
(بالاشتراك مع ابراهيم عبد القادر المازني ومحمد عبدالله عنان): السياسة المصرية والإنقلاب الدستوري ـ القاهرة ١٩٣١ .
ثورة الأدب ـ القاهرة ١٩٦٥ .
حياة محمد ط٤ ـ القاهرة ١٩٤٧ .
في منزل الوحي ط١ ـ القاهرة ١٩٣٦ .
أبو بكر الصديق ـ القاهرة ١٩٤٢ .
الفاروق عمر ـ جزآن ـ القاهرة ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥
عثمان (مخطوط) ١٩٤٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مذكرات في السياسة المصرية ج١ -
القاهرة (١٩٥١) - ج٢، (١٩٥٣)،
ج٣، مخطوط.
هكذا خلقت ط٢ - القاهرة ١٩٥٩.
الامبراطورية الإسلامية والأماكن
المقدسة - كتاب الهلال - القاهرة ١٩٦٣.
الشرق الجديد - القاهرة ١٩٦٤.
قصص مصرية - القاهرة ١٩٦٩.
(أشرف على) موجز أعمال الجمعية العمومية - القاهرة ١٩٤٨.
(أشرف على) مؤتمر القاهرة البرلماني - القاهرة ١٩٤٨.
(أشرف على) مصر في هيئة الأمم المتحدة - القاهرة ١٩٤٨.
محمد شفيق غربال (دكتور): تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ج١- القاهرة ١٩٥٢.
محمد رشيد رضا: تاريخ الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ٣ أجزاء - القاهرة ١٣٥٠هـ.
محمد عبد المنعم خفاجي (دكتور): قصة الأدب الحديث في مصر جزآن - القاهرة.
محمد يوسف نجم (دكتور): فن المقالة - بيروت ١٩٦٠.
محمود تيمور: الشخصيات العشرون - القاهرة ١٩٦٩.
محمود عزمي (دكتور): مبادئ الصحافة العامة - القاهرة ١٩٤١.
مصطفى عبد الرازق: محمد عبده - القاهرة ١٩٤٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفهرس

الصفحة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثالث: الصحافة والتقدم القومي

الباب الرابع: جريدة «السياسة» اليومية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الخامس: هيكل والقضية الوطنية

الباب السادس: السياسة الاسبوعية والفكر القومي

الباب السابع: هيكل والفكر القومي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

